الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING

الدكتور علي الوردي

نقاط على الحروف

مقالات غير منشورة

تحقيق سلام الشماع



مقالات غير منشورة

تحقيق سلام الشماع

الدكتور علي الوردي





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1832-4

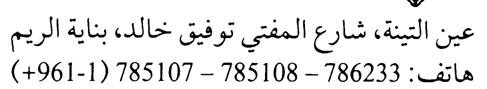
جميع الحقوق محفوظة للناشر



AL-ARAB PUBLISHING LLC.
30450 Orchard Lake Rd.
Farmington Hills, MI 48334
T: 248 - 862 - 5666
E: alarabbook@gmail.com

توزيع





عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

التناشز

الظلم الاجتماعي

التعليم العالي

نقد الماركسية

الصحافة

التفكير الطوبائي

حول تغيّر القيم الاجتماعية

حول النقد

ملاحق الكتاب

مقدمة في فكره ومنهجه

تقديم

الأستاذ سلام الشماع، مؤلف هذا الكتاب، واحد من ألمع الصحفيين العراقيين وأنبههم. وقد عرف عنه حبه للثقافة والأدب، ومصاحبة كبار العلماء والمثقفين وحرصه على محاورتهم والاستفادة من علمهم وأدبهم، وإفادة عامة قراء الصحافة بما يحمله عنهم من أفكار وآراء في مختلف الشؤون.

وكتاب الشماع (نقاط على الحروف) أحد كتبه المهمة في هذا المجال، فهو يجمع فيه ما لم ينشر من كتابات عالم الاجتماع العراقي الفذ الدكتور علي الوردي، ويقدم لنا، من خلاله الأفكار الأساسية التي كان يناقشها هذا العالم في المجالس الثقافية وفي حواراته الصحفية، وكلها تدور حول طبيعة الشخصية العراقية وخصائص المجتمع العراقي، وغير ذلك من الأفكار والآراء.

ويقدم الكتاب، في الوقت نفسه، وبنحو غير مباشر صوراً حية غير منظورة من حياة بغداد الثقافية قبل الغزو الأمريكي للعراق هي: المجالس الثقافية التي كانت تعقد في بعض البيوتات العريقة وتحضرها صفوة من أعلام الثقافة والأدب وبعض المهتمين من عامة الناس، وتدور فيها مناقشات حرة، رصينة هادئة أحياناً وصاخبة أحياناً أخرى، حول مختلف الموضوعات، وفي مقدمتها الأفكار التي يطرحها الدكتور الوردي في هذا الكتاب وبحضوره.

ذلك كله يقدمه المؤلف بأسلوب رائق وشفاف، فيقبل القارئ على مطالعة كتابه بيسر واستمتاع ويتنزه في عوالمه الشائقة.

سامي مهدي

مقدمة

أزعم أن هذا الكتاب سيغني القارئ عن مطالعة جميع كتب العلامة الراحل الدكتور علي الوردي، ففي المقالات التي جمعتها فيه والتي لم تنشر من قبل في كتاب عرض الوردي جميع أفكاره وفرضياته بأسلوبه الممتع في الكتابة.

هذا فضلاً عن أن القاريء الكريم سيغوص، عند قراءته هذا الكتاب، في أعماق النفس البشرية ويتعرف على محاسنها ومساوئها بما يمكنه من تفسير تصرفاته وتصرفات الآخرين من حوله.

هذا الكتاب، إذاً، يصلح أن يكون ملخصاً لجميع الكتب التي ألفها الوردي بدءاً بكتيبه (شخصية الفرد العراقي) مطلع خمسينيات القرن الماضي مروراً بـ(وعاظ السلاطين) وانتهاء بآخر جزء من أجزاء موسوعته ذائعة الصيت (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث).

وهذا الكتاب هو مجموعة مقالات كتبها الوردي إلى جريدة (الاتحاد) التي كانت تصدر عن اتحاد الصناعات العراقي في أواخر ثمانينيات القرن الماضي، وكان من ضمن هذه المقالات مقالات أخرى سبق أن جمعتها وأصدرتها في كتابي (من وحي الثمانين) الذي صدرت منه ثلاث طبعات، إلى الآن، والرابعة في الطريق لنفاده من الأسواق.

يروي الصحفي الرائد ليث الحمداني، الذي تولى رئاسة تحرير الجريدة، في أكتوبة له على صفحته في (الفيس بوك)، يقول إنه تعرف شخصياً على الدكتور علي الوردي يوم بدأوا التخطيط لإصدار جريدة (الاتحاد) عن الاتحاد العام للغرف التجارية والصناعية في الثمانينيات، إذ زاره في مسكنه برفقة الصحفي الراحل رشيد الرماحي الذي كانت تربطه به علاقة وطيدة، وتم الاتفاق معه على كتابة مقال أسبوعي لـ(الاتحاد)، وفعلاً واظب الدكتور الوردي على كتابة مقالاته.

قسمت محتويات الكتاب إلى 12 فصلاً، هي:

الدوافع القهرية في الانسان

اللاشعور

الحضارة الحديثة

العقل

التناشز

الظلم الاجتماعي

التعليم العالي

نقد الماركسية

الصحافة والمجتمع

التفكير الطوبائي

حول النقد

ملاحق

واحتوى كل فصل على مقالات عدة، وتدخلت في صياغة بعض العبارات لكي تتساوق مع النص من دون أن أخرج عن المراد، وحصرت مواقع تدخلي بين أقواس كبيرة.

إنـي إذ آمـل أن يلقـى هـذا الكتاب ما لقيه الكتاب السـابق (خفايا من حياة علي الوردي)، الذي تولته (دار العرب للنشر والتوزيع)، من رواج واسع، فإني واثـق أن إخـراج هـذا الكتاب سـيكون بأبهى صورة لأنـه يحفظ لمحبي الوردي مـا ضـاع مـن تراثـه في ثنايا المجلات والصحف، وإن كنـت حزيناً لأني عثرت علـى كنـز ثميـن من مقالات للوردي نشـرت فـي مجلة (العيادة الشـعبية)، التي كان يصدرها الشـقيقان الدكتوران اسـماعيل وخالد ناجي في خمسـينيات القرن الماضـي، وهـي بحـوزة المؤرخ العراقي البروفيسـور إبراهيم العلاف، ولكنه في الموصل وأنا تتقاذفني الغربة، فلا أنا قادر على الوصول إليه لاستنساخ المقالات

من أعداد المجلة ولا هو يستطيع ذلك، ولكنه أكرمني بكتابة دراسة ممتعة عن هذه المقالات الخمسينية تجدونها مع ملاحق هذا الكتاب.

ومع انتهائي من إنجاز هذا الكتاب يتوجب عليّ تقديم الاعتذار للقراء الكرام إذ سبق أن وعدتهم بإنجاز كتاب الرسائل المتبادلة للدكتور علي الوردي الذي أوشكت على وضع اللمسات الأخيرة عليه، ولكني وجدت أني أحتاج إلى بضعة شهور أخرى لأتمكن من إخراجه كما يليق بالقارئ وكما أريد، لذلك قدمت هذا الكتاب عليه لأنه لم يحتج إلا بضع أسابيع لكي ينجز، وأنجزته فعلا.

إني أقدم جزيل الشكر للمؤرخ البروفيسور إبراهيم العلاف الذي كتب الدراسة الملحقة بهذا الكتاب، كما أشكر الأستاذ إبراهيم الزبيدي الذي يشجعني على الدوام لإنجاز مشاريع الكتب المتأخرة لدي ونشرها من خلال (دار العرب للنشر والتوزيع) التي يتولى إدارتها ومسؤوليتها، والشكر موصول إلى البروفيسور محمد البكاء الذي لم يبخل علي بوقته للإجابة عن أسئلتي اللغوية، وإلى رئيسة مركز علي الوردي للدراسات والبحوث السيدة باهرة الشيخلي التي وضعت بين يدي جميع وثائق المركز للاستفادة منها في تآليفي.

أسأل الله تعالى أن يوفقني لإنجاز مشروعي الواسع الهادف لإحياء تراث الوردي وفاء له وخدمة لمحبيه ومتابعيه وعشاق علمه.. إنه سميع مجيب الدعاء.

سلام الشماع

المنامة في 2015/10/30

الوسوسة أو عقدة الاستكمال(1)

إن الدوافع القهرية في الإنسان كثيرة يصعب حصرها. وقد يصحّ القول إن كلّ إنسان لابدّ أن يكون مصاباً بدافع قهري واحد أو أكثر من واحد، ولكن الفرق بين الأفراد من هذه الناحية هو فرق (درجي)[1].. فأحد الأشخاص قد يكون دافعه القهري ضعيفاً وفي مقدوره السيطرة عليه، بينما يكون في شخص آخر قوياً يصعب السيطرة عليه.

إن الدافع القهري يجعل الإنسان يندفع في عمل يضرّه أو يضرّ غيره، وهو يعرف أنه يضرّه ولكنه لا يستطيع التحرر منه، ولم يُعرف حتى الآن سبب ظهور الدافع القهري في الإنسان، ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن البحوث العلمية التي تدرس طبيعة البشر ما زالت تشعر بالعجز تجاه الكثير من أسرار هذه الطبيعة، ويمكن أن نقول بوجه عام إن العلوم كلّها تقف الآن عاجزة عن فهم أسرار الكون، ولكن العلوم الإنسانية أكثر عجزاً في ذلك من العلوم الطبيعية. ولعل من المناسب أن نذكر هنا الحكمة العربية القديمة التي تمثلت في البيت المشهور:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[2]

يمكن تصنيف الدوافع القهرية إلى صنفين رئيسيين، أحدهما ذو أثر ذاتي وهو الذي يجعل صاحبه يضرّ نفسه أكثر مما يضرّ غيره، أما الصنف الثاني فهو

---

(1) يقصد أنّ الفرق متفاوت بين شخص وآخر.

(2) بيت شعر ينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وتقول الدكتورة سارة مصطفى: «إنها المنظار الواقعي لنظرة الإنسان لنفسه فحين يتأمل الإنسان هذا الكون العظيم الواسع المجرات والأفلاك يحسب نفسه جرماً صغيراً ولكنه لو تبحّر في تركيب جسمه ودرس علم التشريح بدقائقه وفسلجة أجهزة جسمه ودقتها لأخذه الهول من عظمة تكوين هذا الجسم الصغير الذي يكون كل عضو من أعضائه باباً لألف باب من الدقة والتنظيم وكان على رأس هذه الأعضاء وأعظمها شأناً هو الدماغ».

المصدر: جريدة كل العراق/ ملف الإمام علي والطب

الذي يجعل صاحبه يضرّ غيره.. ولا حاجة بنا إلى القول إن الذي يضرّ غيره لا يدري أنه يضرّ نفسه في الوقت نفسه. فإن إضراره بالغير يؤدي إلى تشويه سمعته وإلى نفرة الناس منه، وهذا لابدّ أن يؤدي إلى فشله في الحياة أخيراً. وقد رأينا نماذج كثيرة من هذا الطراز من البشر.

إنهم ضحايا دوافعهم القهرية، وهم مجبورون فيما فعلوه لا إرادة لهم فيه ولا اختيار.

يمكن أن نعدّ عقدة الاستكمال[1] أهم الدوافع القهرية وأوسعها انتشاراً بين الناس، وهذا الدافع من الصنف الأول، أي أنه يضرّ صاحبه أكثر مما يضرّ غيره.

إن هذا الدافع هو الذي يسمى في اللغة الإنكليزية (Perfectionism) وكان العرب قديماً يسمونه «الوسوسة»[2] ويسميه العامة في العراق «الوسواس» كما يسمّون صاحبه «وسواسي»[3].

إن هذا الدافع يجعل صاحبه حريصاً كلّ الحرص على إكمال أي عمل ويقوم بتدقيق شديد له حتى ولو كان التدقيق خلواً من أية فائدة عملية له. وهذا أمر كان شائعاً في الجيل الماضي ولاسيّما في مجال الطهارة والوضوء والصلاة. فالمصاب بهذا الدافع لا يكتفي بغسل يده مرّة أو مرتين، بل هو يظل يكرّر الغسل مرّة بعد مرّة، وهو في كلّ مرة يتصوّر أنّ الطهارة لم تحصل كما

---

(1) يقصد عقدة الوسوسة.

(2) الوسوسة والوَسواس: ما يلقيه الشيطان في القلب. وقال الراغب: الوسوسة: الخطرة الرديئة, وقال البغوي: الوسوسة القول الخفي لقصد الإضلال, والوسواسُ: ما يقع في النفس وعمل الشر وما لا خير فيه, وهذا بخلاف الإلهام فهو لما يقع فيها من الخير. قال ابن القيم: «الوسوسة: الإلقاء الخفي في النفس إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من أُلقِيَ عليه, وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان للعبد». والوسوسة تارة تكون من فعل الشيطان الجني كما قال تعالى: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا) – الأعراف:20 – وسمى الله تعالى شيطاني الجن والإنس «وسواساً» فقال تعالى: (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ – الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ), وتارة تضاف الوسوسة إلى فعل النفس كما قال تعـالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُه).

(3) هناك عائلة معروفة في كرخ بغداد يطلق عليها لقب «آل الوسواسي»، وفي الموصل توجد عائلة يطلق عليها (آل الوسواس).

ينبغي»[1].

أعرف شخصاً مات منذ عهد غير بعيد وكان موسوساً قضى نصف عمره أو أكثر في استكمال الطهارة والوضوء والصلاة. وقد وجدت في مذكرات السيد محسن الأمين[2] الذي توفي في دمشق في عام 1952 أنه شاهد رجلًا موسوساً وهو يتوضأ في مقبرة، ووصف لنا حالته على النحو (الآتي)[3]، فهو يقول ما نصه:

«... خرجت يوماً والفصل شتاءً لأتوضأ لصلاة الصبح فشاهدت رجلاً موسوساً في الطهارة يصبّ الماء على يديه ورجليه، وينتقل من قبر إلى قبر، ويعيد صبّ الماء، وقد صار جلد يديه ورجليه كأنما صبغ بالنيل لشدة البرد. فتوضأت وذهبت إلى المنزل وصليت وعدت لأنظر ما انتهى إليه أمره فوجدته على حاله الأولى يصبّ الماء وينتقل من قبر إلى قبر. فعجبت من ذلك. ولم يزل كذلك حتى طلعت الشمس وفاتته الصلاة.. وهو رجل عاقل متدين ليس فيه ما يعاب إلا هذا الوسواس الذي اتبع فيه أمر الشيطان»..

إن السيد محسن الأمين وهو فقيه مشهور وصف ذلك الرجل الموسوس بأنه اتبع في وسوسته أمر الشيطان. وهذا الرأي يوافق عليه أكثر فقهاء الإسلام إذ هم يعتبرون الوسوسة من عمل الوسواس أي الشيطان. ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أن «الوسواس» هو أحد ألقاب الشيطان[4].

---

(1) عندما كنا أطفالًا شاهدنا من أمثال هؤلاء كثيراً وخصوصاً في الحمامات العامة، التي كنا نرتادها مع الكبار من أسرنا، إذ ينزل الموسوس إلى حوض ماء كبير في ا لحمام ويظل يغطس فيه مراراً إلى أن يتأكّد أنه تطهر وقد لا يتأكّد، ومرة استأجرت امرأة وزوجها، بيتاً صغيراً لنا ملاصقاً لدارنا الذي نسكن فيه، وكانت المرأة تغسل الجدران والسقوف مراراً كل يوم ولا تتأكد من طهارتها فتعيد الكرة، مرة بعد مرة، وكنت أرى الماء على يديها دائماً، وطبعاً عد والدي عقد الإيجار معهم صفقة خاسرة بسبب المبلغ الكبير الذي كانت تحمله له فاتورة الماء شهرياً.

(2) السيّد محسن الأمين العاملي: عالم مجتهد له الكثير من المؤلفات والبحوث التي تميّز بها عن غيره، ولد في قرية شقراء جنوب لبنان في العام 1865. درس في النجف وأقام في دمشق وتوفي في بيروت في 29 آذار 1952، ودفن في دمشق جوار السيدة زينب، ولابد أن نذكر أن الوردي كان متأثراً بالسيد العاملي وآرائه الإصلاحية.

(3) في الأصل: التالي.

(4) **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾** [الناس: 1-5].

ألّف أحد الفقهاء المعروفين في القرن السادس الهجري، وهو ابن قدامة المقدسي[1]، كتاباً صغيراً عنوانه «ذم الوسوسة» وقد جرى هذا المؤلف في كتابه على الرأي القائل بأن الوسوسة من عمل الشيطان. فالموسوس حسب قول المؤلف يعذّب نفسه طاعة للشيطان، ومعنى هذا أن الله سوف يعاقبه على وسوسته.

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لنناقش هذا الرأي.. ففي رأيي أن الله لا يعاقب إنساناً على عمل لا إرادة له فيه أو اختيار، فالوسوسة دافع قهري لا سيطرة للإنسان عليه، ومن الممكن القول إنه نوع من الجنون، والله لا يحاسب المجنون على جنونه طبعاً.

إن الوسوسة لا تقتصر على الطهارة والوضوء والصلاة فقط، بل هي قد تشمل كلّ عمل يقوم به الإنسان في مختلف مجالات الحياة. أعرف شخصاً كان في بداية شبابه متديناً وكان موسوساً في أمور الطهارة والوضوء والصلاة، ولكنه عندما ترك التدين أخيراً صار موسوساً في موضوع «الميكروبات»، أي أنه يغسل يديه مراراً لا من أجل الطهارة الدينية، بل من أجل الوقاية من الميكروبات[2].

إن الوسوسة قد تكون في مجال الحساب أو الكتابة أو القراءة أو في تنظيم الأشياء وترتيبها، فهو يطلب الكمال فيها ويعيد فيها مرّة بعد مرّة، لأنه يشكّ في استكمال ما قام به فعلاً، وهو يكرّر فعله بغية الوصول إلى الكمال المطلق الذي هو مستحيل طبعاً..

يجب أن لا ننسى أن الوسوسة هي من أهم العوامل التي تعرقل نجاح الإنسان في حياته فالإنسان الناجح هو الذي يستخدم موهبته في المجال الذي يعمل فيه، ومشكلة الوسوسة أنها لا تسمح للإنسان بأن يستخدم موهبته استخداماً

---

(1) هو الإمام العلامة المجتهد موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن نصر المقدسي الجمّاعيلي ثم الدمشقي الصالحي الحنبلي. ولد بجمّاعيل إحدى قرى مدينة نابلس سنة 541هـ – 1147م، وهاجر مع أهل بيته وأقاربه إلى دمشق وله عشر سنين. توفي يوم الفطر سنة 620هـ – 1223م. ودفن بجبل قاسيون خلف الجامع المظفري.

(2) لا بدّ من أن نذكر هنا أن الوردي كان من الموسوسين في بداية حياته، وقبل أن ينتقل إلى أمريكا للدراسة، وهو سيعترف بهذا، وقد راجع أطباء أمريكا وتخلص من الوسواس، لكنه اعترف لي في سنواته الأخيرة أنه ما زال يعاني من بقايا وسواسه القديم.

طبيعياً، إذ إن التدقيق الشديد المبتلى به يجعله يهمل إلهام موهبته ويشغل نفسه بالتكرار الذي لا جدوى فيه.

اتضح الآن علمياً أن كلّ مهنة في الحياة تحتاج إلى موهبة خاصة بها، ومن العبث أن يحاول الإنسان النجاح في مهنة لا موهبة له فيها، فهو يكدح بلا جدوى. ومن الجدير بالذكر أن الموهبة تلقائية ولاشعورية في الغالب، والذي يريد أن يستثمر موهبته إلى الدرجة القصوى يجب أن ينسجم معها ويستجيب لإلهامها دون تردد. إنه يدري أنه معرض للخطأ في أعماله، ولكنه لا يبالي بذلك، لأن المنفعة التي تأتيه من الانسجام مع الموهبة هي أكثر من الضرر الذي ينتج عن الخطأ.

مشكلة الموسوس أنه لا يفهم هذا، أو هو لا يستطيع أن يفهمه. وهو كثيراً ما يفقد إلهام الموهبة من جراء انشغاله في التدقيق والاستكمال. إنه يخشى من الخطأ وينسى أن الخطأ محتوم في الإنسان لا مفرّ منه.

إن الموسوس يريد أن يجعل عمله كاملاً لا خطأ فيه ولا نقص، وهو لا يدري أن الخطأ لا مناص منه في كلّ عمل يقوم به الإنسان.

إن الإنسان ناقص بطبيعته وهو لا يستطيع أن يصل إلى الكمال[1] مهما حاول. ولهذا فإن الشخص الذي يريد النجاح في مهنته أو عمله يجب أن يندفع مع إلهام موهبته، ولا يكترث لما يقع فيه من خطأ.

أرجو أن لا يفهم القارئ من هذا أني أشجع على ارتكاب الخطأ فكلّ ما أردت قوله إنّه محتوم وإن الإنسان لا يستطيع تجنب الخطأ مهما حاول، وهذا القول موجه إلى الموسوسين بوجه خاص لأن خوفهم من الخطأ أدى إلى ضياع مواهبهم.

---

(1) الكمال لله وحده.. عبارة يرددها العراقي عندما يكتشف أنه أو غيره أخطأ في عمل ما.

السرقة.. المماطلة.. الحرص.. الإيذاء.. وأشياء أخرى(1)

إن دافع الوسوسة الذي تحدثنا عنه مقصور على الضرر بالنفس وتعذيبها، ولكن هناك دوافع أخرى لا تقتصر على الإضرار بالنفس، بل هي تضرّ الغير، وهي كثيرة، وقد ابتلي بها الكثيرون منّا مع الأسف، وهم فيها مجبرون لا إرادة لهم فيها ولا اختيار. أذكر فيما (يأتي)[1] نماذج منها:

1. **دافع السرقة**: فالإنسان قد يكون غنياً ولكنه يجد نفسه مدفوعاً إلى سرقة بعض الأشياء التافهة، التي هو في غنى عنها، كملعقة شاي من مقهى، أو كتاب من مكتبة، أو علبة من مخزن. فهو يبذل جهده لمغافلة الناس من أجل السرقة منهم، وهو قد ينكشف أمره وينال الفضيحة ولكنه لا يرعوي، بل يظهر خاضعاً لدافعه القهري حتى آخر أيامه.
2. **دافع المماطلة**: ونقصد به ميل الشخص للمماطلة في دفع الديون المستحقة عليه. فهو قد يكون قادراً كلّ القدرة على الوفاء بدينه ولكن نفسه لا تطاوعه على ذلك، وتراه يكيل الوعود لدائنيه مرّة بعد مرّة، وتسوء سمعته من جراء ذلك، فلا يبالي، وكأنه يشعر أن أكل الدين نوع من الغلبة والشطارة تجاه الغير[2].
3. **دافع الحرص**: وهو شدة البخل، وصاحبه يحرص على المبلغ التافه بالرغم من ثروته الكبيرة. فهو يرغب في تضخيم ثروته مع علمه أنها تذهب إلى غيره بعد موته، وهو يظل على حرصه هذا حتى الساعة الأخيرة من حياته[3]!

---

(1) في الأصل: يلي.

(2) وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان، وقد ابتليت بأكثر من واحد من هؤلاء لكني في كل مرة كنت أعرف كيف استخلص حقي منهم.

(3) أعرف شخصاً في حيّنا له متجر صغير للمواد الغذائية في الحي نفسه، عندما حضرته الوفاة أوصى أولاده أن ينقلوه بسيارة صغيرة إلى المقبرة وأن لا يعطوا إلى المغسّل والدفّان أكثر من مبلغ حدده لهم

4. **دافع الإيذاء**: وصاحبه يحب إيذاء الناس ولا يحب نفعهم أو مساعدتهم، فهو يرمي سيكارته قبل إطفائها على المواد القابلة للالتهاب بغية إشعال النار فيها، أو يرمي قشور الفواكه في وسط الشارع لكي تنزلق بها أقدام المارة[1]، أو يحطم أي شيء يقع تحت يده حين لا يرى أحداً يراقبه، أو ينمّ بين اثنين لكي يثير النزاع والعداء بينهما.. الخ.. وهو لا يرتاح نفسياً إذا رأى أحداً ينتفع من شيء، وقد يحاول أن يعرقل وصول الشيء إلى الذي ينتفع به. وإذا وجد شخصاً مستضعفاً لا عون له عمد إلى الاعتداء عليه أو إيذائه ثم يختلق عذراً يبرر به الاعتداء[2].
5. **دافع الاستهزاء**: وصاحبه يبحث عن شخص أضعف منه لكي يستهزئ به ويضحك عليه، فهو يشعر في أثناء ذلك بنوع من الاستعلاء والتفوق، وإذا كان صاحب هذا الدافع مصاباً بدافع الإيذاء أيضاً فإنه لا يكتفي بالاستهزاء تجاه ضحيته بل يعمد إلى إيذائه دون أن يخالجه أي شعور بالرحمة[3].
6. **دافع الكذب**: وصاحبه لا يستطيع أن يقول الصدق فيما يتحدث به. فهو لابدّ أن يكذب فيه، أو يبالغ فيه على الأقلّ. ومن الجدير بالذكر أن الكذاب

وأن لا يغلقوا متجره أكثر من يوم، وإذا شاء أناس أن يرافقوا جنازته إلى المقبرة أن يستأجروا سيارة على حسابهم الخاص في حين لم يكن مثل هذا مألوفاً في مجتمعنا، على الرغم من أنه يعرف أنّه مغادر الحياة ولن ينفعه بعد ذلك مال أو بنون، وللمعلومات فإني وجدت هذا طبيعياً في مدن الفرات الأوسط وربما في الجنوب، فقد كنت صغيرا وأصررت على مرافقة جنازة أحد أقاربنا في مدينة من مدن الفرات الأوسط إلى مثواه الأخير واصطحبت معي أخوتي الصغار وعند محاسبة السائق دفعنا مثل ما دفع الكبار، والحمد لله كانت الأيام أيام عيد وجيوبنا ممتلئة بالنقود، وإلا كانت ستحدث لنا مشكلة.

(1) كان أهلنا يوصوننا أن نميط الأذى عن الطريق فإذا وجدنا قشر موز أو حجارة نركنها في مكان بعيد لا يؤثر على السابلة، أو إذا وجدنا سيكارة مشتعلة نسارع إلى إطفائها، وكنا نؤدي هذا العمل وننتظر رد الفعل على وجوه الكبار طمعاً في مديحهم.

(2) كان في منطقتنا أحد الأشقياء يعتدي على باعة الخضر والفواكه وغيرهم ويأخذ منهم ما يريد من دون مقابل طبعاً ومازلت أذكر وقائع هذا الشقي بازدراء وألم على الرغم من مرور عقود كثيرة عليها، وقد قتل هذا الشقي أخيراً عندما دافع عن ولده الذي اعتدى على عرض إحداهن.

(3) الواقع أن هذا الدافع تستطيع ملاحظته بسهولة بين الناس، وخصوصا في المجالس الأدبية والاجتماعية وغيرها.. إن المصاب يتوهم أنه يمتلك من القدرات ما لا يمتلكه سواه من الناس فيبدو هذا الدافع واضحاً عليه.

هو ضحية دافعه القهري، وهو يضرّ نفسه بذلك ويشوّه سمعته دون مبالاة!.

7. **دافع المغابنة**: وهذا الدافع قد يُصاب به بعض الباعة والحرفيين في المجتمعات المتخلفة، وصاحبه يصعب عليه أن يصدق مع الزبون أو يُخلص له وهو ينتهز أية فرصة تتاح له لكي يغشّ الزبون أو يغبنه. إن مصلحته تقضي عليه أن يصدق مع زبائنه لكي تتحسن سمعته ويروج سوقه في الأمد البعيد، ولكن دافعه القهري يمنعه من ذلك، إذ هو يفضل الربح العاجل القليل على الربح الآجل الكثير[1].

8. **دافع الحسد**: وهذا الدافع موجود في جميع الناس على درجات متفاوتة، فمن طبيعة الإنسان أنه لا يرتاح حين يرى قريناً له قد تفوّق عليه في شيء أو نال مكانة بين الناس أعلى من مكانته، ولكن بعض الأشخاص يبلغ بهم الحسد درجة المرض. فالواحد منهم يشعر بالحسد الشديد تجاه الناس كلّهم من غير تفريق، وهو لا يكاد يسمع بمصيبة حلّت بأحد منهم حتى يغمره الفرح الطاغي.

9. **دافع الاغتياب**: وهذا الدافع مرتبط بدافع الحسد من بعض الوجوه، وصاحبه يحب أن يتكلّم بالسوء عن كلّ شخص غائب، ولا يكاد يسلم أحد من لسانه. إنه يجد لذّة في البحث عن مصائب الآخرين وفي التحدث عنها. وهو قد يجد رفاقاً يشبهونه في هذا الدافع، فيقضي أوقات فراغه معهم، ليشاركهم في التمتع بلذّة الاغتياب[2].

10. **دافع الكلام**: وصاحبه إذا اجتمع مع الآخرين في مجلس لا يحب أن يرى أحداً يتكلّم غيره، كأنه يشعر بأن الكلام في المجلس نوعاً من الغلبة والتفوق وهو لا يريد أن يتفوق أحد عليه. إنه حين يستمع إلى حديث غيره يشعر بالتضايق، وترى عينيه تدوران بحثاً عن فكرة يقاطع بها حديث

(1) الغريب أن شركات كبرى أخذت تمارس المغابنة مع المستهلكين وهو ما دعا إلى تأسيس جمعيات حماية المستهلك، مما يعني أن المغابنة أصبحت ظاهرة استوجب معها تأسيس جمعيات لمحاربتها أو الحد منها.

(2) البغداديون يسمون مثل هؤلاء «الكراشة».

غيره لكي يبدأ هو بالحديث[1]. وإذا كان المصاب بهذا الدافع محباً للجدل فإن مشكلته تكون أشد تعويصاً فهو يجادل في كلّ موضوع، وإن كان هو لا يعرف عن الموضوع سوى معلومات محدودة، وإذا سمع من أحد قولاً مخالفاً لمعلوماته المحدودة أسرع إلى تصحيحه أمام الحاضرين لكي يُظهر سعة علمه وحذقه لهم. وهو لا يبالي حين يظهر أنه كان مخطئاً في تصحيحه[2]. والملاحظ في بعض المصابين بهذا الدافع أنهم لا يملكون القدرة على الحديث الجيد، إذ هم يتلعثمون فيه أو يتأتئون. ولكنهم يحسبون أنهم الفصحاء المفوهون وكثيراً ما يشعر المستمعون بالملل والتضايق من حديثهم بينما هم يظلّون مصرّين على متابعة الحديث ظناً منهم أن المستمعين مسرورون.

11. **دافع الخصام**: وهو الدافع الذي يوصف في اللغة الإنكليزية بـ«المقدرة المنحوسة على خلق الأعداء». وصاحبه لا يستطيع أن يحتفظ بصديق له مدة طويلة، فهو لابدّ أن يجد سبباً للخصام معه، فيُلاومه ثم يترك صداقته ويحمل الحقد عليه. إنه يطلب من الصديق أن يكون كاملاً لا نقص فيه، مع العلم أنْ ليس في الدنيا صديق من هذا الطراز. فإذا وجد في صديقه أقلّ هفوة شهر عليه سيف اللوم والتقريع ومما يلفت النظر أنه نفسه قد يكون من أكثر الناس عيوباً، غير أنه لا يدرك ذلك في نفسه، وقد يعدّ نفسه مبرّءاً من كلّ عيب. إن تفكيره موجه نحو التحري عن عيوب الغير ونسيان عيوب نفسه.

---

(1) رأيت الوردي يصمت إذا تحدث أحد ويظل مصغياً لحديثه باهتمام شديد. وحدث مرة في أحد المجالس التي ألفنا حضورها، أن تحدث أحد المصابين بهذا النوع من الدوافع القهرية وأطال في حديثه ثم أن الحاضرين طلبوا رأي الوردي في موضوع ورد في ذلك الحديث المطول. وما كاد الوردي يتحدث حتى اعترض عليه ذلك المتحدث قائلاً: لقد أطلت في حديثك كثيراً، فهل أنك تحسب أن الكلام في المجلس هو حكر عليك.. ولأول مرة شاهدت الوردي ينفجر في وجه ذلك المعترض ثم يصمت حتى نهاية الجلسة.

(2) كان الوردي يتضايق من مثل هؤلاء ويناكدهم بأن يقوم بتصحيح أخطائهم أمام الآخرين ولاسيّما إذا أخطأوا في القواعد النحوية، فيصرّ ذلك على رأيه فهو يرى، مثلاً، أنه يرى أن الصحيح هو أن الفاعل منصوب مما يثير ضحك الآخرين عليه.

12. **دافع العصبيّة**: وهو الذي يسمى في اللغة الإنكليزية «Prejudice» وصاحبه يضمر بغضاً عميقاً وحقداً على كلّ من ينتمي إلى قوم غير قومه، أو طائفة غير طائفته، فإذا لمح أحداً منهم شعر بالتوتر العصبيّ ضدّه، وقد يعمد إلى الاعتداء عليه. وهو إذا كان مصاباً بدافع الإيذاء علاوة على دافع العصبيّة فإنه يندفع في اعتدائه بلذّة عارمة لا تعدلها لذّة أخرى، إذ هو يجد حينئذ الفرصة التي كان ينتظرها منذ زمن طويل[1].

هناك دوافع قهرية أخرى لا يسع المجال لذكرها، وبعضها لا يستحسن ذكره لارتباطه بالجنس، ويجب أن لا ننسى أن بعض الدوافع القهرية قد تكون نافعة للغير لا ضارّة بهم، كدافع الرحمة مثلاً الذي هو على النقيض من دافع الإيذاء الذي ذكرناه.

حين نستعرض الدوافع القهرية ندرك خطأ الرأي القديم القائل بأن الإنسان حيوان عاقل. والواقع أنه حيوان عجيب مليء بالمتناقضات، وهو كثيراً ما يندفع مع أمور لا يدري لماذا اندفع فيها؟!.

إن كلّ إنسان – كما قلت سابقاً – لابدّ أن يكون مصاباً بشيء من الدوافع القهرية قليلاً أو كثيراً. والواقع أن كلّ شخص لا يمكن أن يخلو من مساوئ أو محاسن على وجه من الوجوه. ولو كشف الله الغطاء عن حقيقة الكثيرين من الناس لرأينا فيهم من العيوب ما يثير الدهشة، ولكن الله ستر عليهم فجعل عيوبهم قليلة نسبياً ومن السهل إخفاؤها.

---

(1) يمكن لكل عراقي أن يورد لك أمثالًا لا تعد عن هذا الدافع وخصوصاً بعد الاحتلال والتهييج الطائفي وصلت إلى تلذذ الطائفيين بحرق من يخالفهم من الطائفة وهو حي أو سحله أو قتله أو قطع عنقه.

اللاشعور

اللاشعور.. وأثره في حياة الإنسان(1)

(إن مصطلح «اللاشعور» أصبح كثير التداول شائع الاستعمال في الكتابات والمؤلفات الحديثة، ولكن كثيراً من القراء لا يعرفون عنه إلا فكرة غامضة غير كافية)..

يمكن القول إن اللاشعور وأثره في حياة الإنسان فطن إليه البشر ببديهيتهم منذ قديم الزمن، حيث أدركوا أن بعض أفعال الإنسان وأفكاره ليست نتاج تفكيره الواعي، بل هي نتاج قوى خفية تؤثر فيه من حيث لا يدري أو لا يشعر. وقد عزوا ذلك إلى الجنّ والشياطين في بعض الأحيان وإلى الآلهة في أحيان أخرى.

يجب أن لا ننسى في هذا الصدد ما كان الشعراء العرب قديماً يعتقدون به من إلهام الشياطين لهم، فكان لكلّ واحد منهم شيطان خاص به يلهمه الشعر في زعمهم، فإذا غاب عنه شيطانه ضاع عليه نظم الشعر. إن هذا يدل على أنهم كانوا يدركون أن العقل الواعي ليس هو منبع الإلهام في شعرهم، بل أن هناك منبعاً آخر له لا يخضع للإرادة أو التفكير الواعي.

مما يلفت النظر أن القدماء كانوا ينسبون كلاً من العبقرية والجنون إلى تأثير الجنّ. ومن هنا جاءت لفظة «مجنون» في اللغة العربية، كما جاءت لفظة «عبقري». فقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون بوجود وادٍ في موضع بعيد من جزيرة العرب يسكنه الجن وينسبون إليه كلّ أمر بديع عجيب ولعلّ هذا له صلة بلفظة (جينس) الإنكليزية التي تعني العبقرية.

يقال إن أول من لفت الأنظار إلى موضوع اللاشعور في العصر الحديث هو الفيلسوف الألماني المعروف (لايبنتز)[1] المتوفى في عام 1716. ولكن بحثه

---

(1) غوتغريد فيلهلهم لا ينتز (1646 – 1716م)، أول رئيس لأكاديمية برلين للعلوم. جمع في شخصه معرفة عميقة بكلّ الرياضيات والفيزياء، وكان أيضاً جيولوجياً وبيولوجياً ومؤرخاً. عدل من المذهب الديكارتي عن الأفكار الفطرية، التي وصفها بأنها تستقر في العقل استقرار عروق الصخر في لوح الرخام، ونادى بأن معيار الحق هو الوضوح وانعدام التناقض. الموسوعة الفلسفية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الخامسة، 1985، ص 409.

في اللاشعور لم يلق اهتماماً واسع النطاق. بل كان أثره مقصوراً على المجال الفلسفي والأكاديمي فقط. ثم ظهر (فرويد)[1] في أواخر القرن التاسع عشر، فكانت له اليد الطولى في بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً، وقد أثار ضجة كبرى في العالم، ونال رواجاً منقطع النظير. لقد وصف (وليم جيمس)[2] نظرية فرويد بأنها «أعظم اكتشاف خلال مئة عام».

قد يصح أن نقول عن نظرية فرويد في اللاشعور مثلما قيل عن المنطق العقلاني القديم الذي وضعه أرسطو. فكلّ واحد منهما كان في حينه ثورة تقدمية ساعدت على تطوير الفكر البشري، ولكنه صار بعدئذ عقبة في طريق هذا التطوّر.

إننا إذ نعترف بفضل فرويد لا يجوز أن نغالي فيه على نحو ما غالى العقلانيون في المنطق القديم.. إن الدراسات الحديثة أظهرت كثيراً من النقائض في نظرية فرويد. وقد نشر أحد الباحثين في أميركا مؤخراً بحثاً وصف فيه نظرية فرويد بأنها «بمثابة فقاعة صابون سرعان ما تتبدد في الهواء عند مواجهتها للحقائق العلمية». ووصف النظرية باحث آخر يقول: «إنها مثل بناية كبيرة جدّاً ولكنها شيدت وفقاً لخطة رديئة».

إن فرويد له فضل كبير في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي، لأنه كان

---

(1) سيغموند فرويد (6 مايو، 1856 – 23 سبتمبر، 1939) ولد فرويد في فريبج عام 1856 بالنمسا من أبوين يهوديين. وعلى الرغم أن فرويد صار لاحقاً ملحداً إلا إنه كان دائما يؤكد أهمية الديانة اليهودية في تكوينه. التحق بمدرسة الطب عندما بلغ السابعة عشرة من عمره ولكنه مكث بها ثماني سنوات لكي ينهي الدراسة التي تستغرق عادة أربع سنوات ويرجع ذلك إلى متابعته وانشغاله بكثير من الاهتمامات خارج مجال الطب ولم يكن مهتماً بأن يصبح طبيباً ولكنه رأى أن دراسة الطب هي الطريق إلى الانغماس في البحث العلمي. وكان أمل فرويد أن يصبح عالما في التشريح ونشر عددا من الأوراق العلمية في هذا المجال وسرعان ما أدرك ان التقدم في مدارج العلم ومراتبة سيكون بطيئا وإدراكه هذا فضلا عن حاجته إلى المال دفعاه إلى الممارسة الاكلينيكية الخاصة كمتخصص في الأعصاب عام 1881.

(2) وليم جيمس (11 كانون الثاني 1842 – 26 آب 1910) فيلسوف أمريكي ومن رواد علم النفس الحديث. كتب كتبا مؤثرة في علم النفس الحديث وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الديني والتصوف، والفلسفة البراغماتية. وكان شقيق الروائي المعروف هنري جيمس وأليس جيمس كاتب اليوميات. وليم جيمس ولد في مدينة نيويورك، وله العديد من المؤلفات منها إرادة الاعتقاد، مبادئ علم النفس، البرغماتية.

أول من لفت الأنظار في العصر الحديث إلى موضوع اللاشعور وأثره في حياة الإنسان، ولكن عيب فرويد أنه جعل اللاشعور مقصوراً على الرغبات المكبوتة، ولاسيّما الرغبات الجنسية. وقد تبيّن الآن أن اللاشعور عالم زاخر تكمن فيه مختلف الدوافع والعوامل، وليس مقصوراً على دافع واحد كما تصوّر فرويد.

وعلى كلّ حال فقد راجت نظرية فرويد في بداية هذا القرن رواجاً عجيباً مذهلاً. وربما كان من أسباب رواجها أنها فضحت سلوك الإنسان من الناحية الجنسية وتحدثت بصراحة عن هذا الموضوع الذي كان المفكرون قبلئذ يتحاشون الخوض فيه.

وكان من نتائج رواج النظرية الفرويدية أنها دخلت في عالم الأدب، وتبناها بعض مشاهير الأدباء. وصارت بعض مصطلحات فرويد - كعقدة «أوديب»[1] - محوراً للكثير من الروايات والمسرحيات، وانتشرت عدوى ذلك إلى اللغة العربية، وأصبحت نظرية فرويد في نظر الكثيرين في الأقطار العربية وكأنها الكلمة النهائية في علم النفس. وما زالت هذه «الموضة» شائعة لدى (بعضهم)[2] حتى يومنا هذا!.

إن اللاشعور في مفهومه الحديث يختلف عما فهمه فرويد منه. فهو لا يحتوي على الرغبات المكبوتة فقط، بل هو يشمل محتويات أخرى عديدة. وهذه المحتويات كنت قد ذكرتها، وكررت ذكرها، في كتبي ومقالاتي، ولعل من المجدي في هذه المناسبة أن أعيد ذكرها مرّة أخرى لما لها من أهمية كبيرة في حياتنا العملية. ومن المؤسف أن أقول إني وجدت بعض القرّاء لم يقتنعوا بصحة ما ذكرته، وكرّرت ذكره، في هذا الشأن أو هم لا يريدون أن يقتنعوا.

---

(1) عقدة اوديب مفهوم انشأه سيجموند فرويد واستوحاه من اسطورة اوديب الاغريقية وهي عقدة نفسية تطلق على الذكر الذي يحب والدته ويتعلق بها ويغير عليها من ابيه ويكرهه وهي المقابلة لعقدة اليتكرا عند الأنثي، والطريف أن «أوديب» تعني باليونانية «صاحب الأقدام المتورمة».

(2) في الأصل: البعض منهم.. أجمع أغلب علماء اللغة على عدم جواز دخول الألف واللام على: (بعض) و(كل)، فلا نقول: البعض، والكل، إلا أن مصطفى جواد أجاز دخول الألف واللام على (بعض)، والأسلم قولنا: (بعضهم)، على الرغم من أن اللغوي الدكتور محمد البكاء عثر على شاهد لغوي يدعم رأي مصطفى جواد.

فهم ما زالوا يعيشون في قوقعتهم العقلانية القديمة، حيث يحسبون أنّ الإنسان من الممكن إصلاحه عن طريق الخطابات والمقالات الرنّانة[1].

إنهم يجب أن يعلموا أن الإنسـان لا يمكن إصلاحه أو التأثير فيه إلا بعد فهم طبيعته التي خلقه الله عليها، والتغلغل في أعماقه من خلالها.

مـن الممكـن أن نطلـق مصطلح اللاشـعور علـى جميع الدوافـع التي تدفع الإنسـان فـي مختلـف نواحـي الحيـاة وهو لا يعرف مصدرها فيه، فالإنسـان حين يندفع بها يتصوّر أنه فعل ذلك بإرادته واختياره، بينما هو مسيّر من حيث لا يدري.

وصـف أحـد الباحثين اللاشـعور بقوله: إنـه يحتوي على منجم من الذهب وعلى مجموعة من النفايات في آن واحد. وكان الباحث يعني بذلك أن اللاشعور يضم جوانب إيجابية وسلبية معاً. وسنحاول فيما (يأتي)[2] ذكر عدد من الجوانب السلبية من اللاشعور وهي التي لها أثرها الضار في حياة الإنسان الاجتماعية على أن نذكر الجوانب الإيجابية في فرصة أخرى.

التعصّب التقليدي:

ونقصد بالتعصّب التقليدي ميل الإنسان إلى التمسك بالمعتقدات والعادات والقيم والأعراف التي نشـأ عليها في طفولته، والتي تسـمى في اللغة الإنكليزية واللغـات الأوروبيـة الأخـرى «Culture» والتـي أفضـل ترجمتهـا إلـى مصطلح «التراثية»[3].

فمن طبيعة الإنسان بوجه عام أنه إذ ينشأ على معتقدات وتقاليد معينة يتصوّر أنهـا أفضـل المعتقـدات فـي العالـم وإن كانت هي مليئة بالخرافـات والأباطيل، فهـو يركـز نظـره على خرافات المجتمعات الأخرى، وينتقدها انتقاداً لاذعاً بينما

(1) كان الوردي يردد دائماً أن الخطابات والمقالات الرنانة والوعظ لا تؤثر في الناس إلا قليلاً، مرتكناً في ذلك إلى ابن خلدون يرى هذا الرأي نفسه.

(2) في الأصل: يلي.. على الرغم من أن بعض اللغويين يرى أن (يأتي) و(يلي) سيان إلا أن معظمهم يرجحون كلمة (يأتي) لأنها فعل مضارع يطلق على ما هو مقبل أو قادم، في حين تأتي كلمة (يلي) بمعنى (يليه أو يتبعه) فالفقرة كما هو معلوم تتبع ما قبلها، وهذا ما أفادني به اللغوي الدكتور محمد البكاء.

(3) عرّب الوردي الكثير من المصطلحات الأجنبية فاجترح التراثية والخارقية والعائنية وسواها.

هـو يغـض النظـر عن خرافات مجتمعه، وقد يأتي بالأدلـة والبراهين لتبريرها أو تمجيدها وهذا هو الذي جعل الإنسان يقاوم كلّ دعوة جديدة لإصلاح مجتمعه مهما كانت الدعوة فاضلة في حد ذاتها[1].

ومـن الجديـر بالذكـر، أن القرآن أشـار إلى ذلـك في بعض آياته حيث ذكر تمسك كلّ قوم بما وجدوا عليه آباءهم، وكيف أنهم يحاربون كلّ نبي يظهر بينهم وإن كان يدعو إلى معتقدات وتعاليم هي أفضل من تلك التي نشأوا عليها[2].

وهنا يجب أن لا ننسى أن الإنسان في تعصّبه التقليدي لا يخضع لتفكيره المنطقـي الواعـي، بـل هو يخضع لدافع لاشـعوري لا إرادة لـه فيه ولا اختيار. وقد يصح القول إن الإنسـان في حياته الاجتماعية يخضع لتنويم يشـبه التنويم المغناطيسـي من بعض الوجوه، وهو الذي يمكن تسـميته «التنويم الاجتماعي». فالإنسـان يظـل خاضعـاً لهـذا التنويـم ما دام قابعاً في بيئته الاجتماعية التي نشـأ فيهـا، ولكنـه لا يـكاد يفـارق تلك البيئة أو يتصل ببيئات أخرى حتى يبدأ التنويم الاجتماعـي بالانقشـاع عنـه تدريجياً[3]. فهو في ظروفـه الجديدة يتلقى إيحاءات تختلـف عـن الإيحـاءات التي اعتاد عليها سـابقاً. وهذه الإيحاءات لابدّ أن تؤثر في تكوين لاشعوره قليلاً أو كثيراً..

(2) الاتجاه العاطفي:

ونقصد به ميل الإنسـان إلى النظر في الأمور بنظرة تحيّزية تبعاً لما يشـعر به من عاطفة إيجابية أو سـلبية نحوها فهو مثلاً إذا أحبّ شـخصاً اتجه تفكيره نحو المبالغة في محاسن هذا الشخص، وغض النظر عن مساوئه.[4] وهو يفعل العكس من ذلك حين يكره شخصاً. ويجب أن لا ننسى أن الإنسان حين يركز

---

(1) ينطلق المرء في محاربته للجديد من عصبية تشبه في أغلب وجوهها العصبية القبلية والطائفية.

(2) **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾** [المائدة: 104].

(3) تعرّض الوردي إلى مثل هذه الحالة عندما سافر إلى أمريكا، إذ احتكّ بمجتمع آخر ليس له شبه بمجتمعه.

(4) يقول الإمام الشافعي في هذا الصدد:

وعيـن الرضـا عـن كلّ عيـب كليلـة　　　كما أن عين السخط تبدي المساويا

نظره على المحاسـن أو المسـاوئ يتصوّر أنه يفعل ذلك طلباً للحق والحقيقة، وهو لا يدري أنه آلة صماء بيد العاطفة اللاشـعورية الكامنة في أعماق نفسـه. إنـه قـد يغيـر نظرته هذه بمرور الأيام تبعاً لتغيّر عاطفته، ولكنه لا يعترف بذلك، بل هو يعلل تغيّر نظرته بكونه قد اطلع على بعض الحقائق التي لم يكن مطلعاً عليها من قبل. وقد رأينا نماذج من هذا الطراز غير قليلة!.

(3) الدافع المصلحي:

ونقصد به حب الإنسان لمصلحته الخاصة وبحثه عن كلّ ما ينفعها أو يدرأ الضرر عنها. وهذا يمكن ملاحظته بوضوح في قاعات المحاكم، فكلّ من لديه قضية في المحكمة نراه منهمكاً في البحث عن القرائن والأدلة التي تساعد على نجـاح قضيتـه، وهـو يتصـوّر أنه على حق في قضيته وأن خصمه على باطل فإذا حكم القاضي في مصلحته صار في نظره قاضياً عادلاً نزيهاً «كثّر الله من أمثاله»، أما إذا حكم القاضي في غير مصلحته اعتبره ظالماً أو مرتشياً «ألف لعنة عليه».

وهـذا أمـر نلاحظـه أيضـاً عندما ينشـب نزاع بين فريقين مـن الناس، فأنت حيـن تسـتمع إلـى مـا يقوله فريقان من الناس، موضوع النـزاع تجده يذكر جانباً مـن الحقيقـة غيـر الجانب الذي يذكره الفريـق الآخر. إن صاحب المصلحة هو كصاحـب العاطفـة لا يسـتطيع أن ينظـر في الأمور نظـراً موضوعياً محايداً مهما حاول، فهو متحيّز في نظره ولكنه لا يدري أنه متحيز.

(4) الأنوية[1]:

ونقصد بها شـعور الإنسـان بـ«الأنا» وسـعيه الدائب نحو رفع مكانتها في نظر الآخرين. فهذه طبيعة بشرية عامة لا يستطيع الإنسان التخلص منها تخلّصاً

(1) شرح لي الوردي مرة مفهوم الأنوية بقوله: إن (الانوية) محور الشخصية البشرية، ونعني بها شعور الإنسان بـ(الأنا) وسعيه المتواصل لرفع مكانتها في نظر الآخرين وكسب تقديرهم. والإنسان لا يقف عند حد في سعيه هذا فهو كلما نال مكانة عالية طمح إلى مكانة أعلى منها. وهذا هو الذي جعل الإنسان راكضاً لاهثاً طيلة حياته إلى أن يدركه الموت فيستريح به ويريح. إن الأنوية في الإنسان تجعله يكره أي قرين له يصل إلى المكانة التي كان هو يطمح إليها، فهو يعدّه منافساً في نيل تقدير الناس. وهذا هو ما يسمى (الحسد)، وهو موجود في كل إنسان إنما هو يختلف شدة وضعفاً في الأفراد تبعاً لاختلافات تكوين الشخصية فيهم..

تامّاً مهما حاول. فالإنسان يسعى طيلة حياته نحو نيل المكانة العالية أو السمعة الواسعة بين الناس وهو لا يقف عند حدّ في ذلك حتى يدركه الموت فيستريح ويُريح. ومشكلة الإنسان أنه حين يكون مدفوعاً بهذه الأنوية الطاغية لا يدري أنه مدفوع بها، أو هو لا يريد أن يدري. وحين يسأله أحد عن السبب الذي يدفعه إلى هذا السعي الدائب يجيب أنه لا تهمّه نفسه بمقدار ما يهمّه حبّ الحقّ والحقيقة، أو المصلحة العامة، أو التقرّب إلى الله، أو غير ذلك من التبريرات الظاهرية، إن الإنسان يخدع نفسه قبل أن يحاول خداع الآخرين.

(5) التجارب المنسية:

إن الإنسان كثيراً ما تمرّ به حوادث سارّة أو مؤلمة ثم ينساها بمرور الزمن، وهو يظنّ أنه نسيها تماماً، ولكنه لا يدري أنّ بقيّة منها ظلّت كامنة في أعماق لاشعوره وهي تؤثر في سلوكه أو تفكيره على وجه من الوجوه.

خُذْ على سبيل المثال رجلاً رأى امرأة لها شيء من الشبه بأمّه التي ماتت منذ زمن بعيد. فهو قد يقع في حب المرأة من النظرة الأولى ويعدّها جميلة جدّاً بينما هي في الواقع ليست جميلة بالدرجة التي يتصوّرها.. وقد يعجب الناس من شدّة حبّه لها لأنهم لا يعرفون السبب اللاشعوري الذي دفعه إلى ذلك[1].

وخُذ مثلاً آخر في رجل حدثت له حادثة مؤلمة في وقت كان يسمع فيها أغنية معينة. فإن هذه الأغنية تبقى مرتبطة في ذهن الرجل بالحادثة المؤلمة. وهي قد تكون في المستقبل من أبغض الأغاني إليه دون أن يعرف السبب الكامن وراءها.

وخُذ مثلاً ثالثاً في رجل كان له عدو من سالف الأيام وكان يكرهه كرهاً شديداً. ثم مات ذلك العدو ولكن ذكراه ظلت كامنة في ذهن الرجل فهو لا يكاد يرى أحداً يشبه ذلك العدو في بعض ملامحه أو حركاته حتى يشعر بالكره له وهو قد يعلل هذا الكره بتعليلات أو تبريرات وهمية يختلقها لنفسه ولو أنه بحث في أعماق لاشعوره لوجد السبب الحقيقي كامناً فيه.

---

(1) ينطبق ذلك، طبعاً، على المرأة أيضاً، إذ قد يقود اللاشعور امرأة جميلة جداً إلى الارتباط برجل لأنَ له شبهاً بمن أحبّت في حياتها كأبيها أو أخيها أو أحد أقاربها.

(6) الرغبات المكبوتة:

إن الإنسان كثيراً ما تكون لديه رغبات محرّمة أو غير مقبولة اجتماعياً، فهو يخجل من إظهارها ويحاول كبتها في أعماق نفسه، ولكنها لا تبقى مكبوتة دائماً، بل هي تحاول التنفيس عن نفسها بالظهور بمظهر آخر غير مظهرها الحقيقي..

رأيت في أحد الأيام رجلاً قوياً من الذين يطلق عليهم لقب «الأشقياء»[1] وهو يعتدي على رجل مستضعف ويكيل له الضربات والصفعات، ولما سألته عن سبب ضربه الرجل قال عنه إنه «يكفر» وقد اتضح لي أن هذا الرجل القوي مصاب بداء «الصادية»[2] أي أنه يتلذذ بالاعتداء والقسوة والإيذاء، ولكنه لا يستطيع أن يشبع هذه الرغبة بغير عذر مقبول اجتماعياً. وشاءت الصدفة أنه سمع الرجل المستضعف ينطق في ساعة غضب بكلمات تتضمن سبّاً لأحد الأئمة، فوجد صاحبنا القوي في ذلك فرصة سانحة لإشباع رغبته في القسوة، وانهال على المسكين بالضربات والصفعات الشديدة، متظاهراً أنه يفعل ذلك في سبيل الله ومن أجل الحرص على الدين.

قد يصحّ أن أقول إن كثيراً من الذين يتظاهرون بحرصهم على الدين أو المصلحة العامّة، أو الحقّ والحقيقة، إنما هم في أعماقهم يطلبون إشباع رغبات

---

(1) الشقي هو من يطلق عليه في مصر اسم (الفتوّة) وفي بلاد الشام (القبضاي) أو (الأزعر) وغالباً ما يصفونه بالرجولة ويشبهونه بالأسد وأنّه إذا مشى على الأرض هزّها برجليه هزّاً، وإذا كان الوردي قد أدرك الزمن الذي كان يقدر فيه الشقيّ، فقد أدركنا نحن الزمن الذي أخذ الناس يسخرون فيه من الشقيّ، فقد تغيّرت الدنيا، وصار الناس سواسية في ظلّ أنظمة وقوانين تسري على الجميع من دون استثناء، ولكن للأسف الشديد عادت هذه الظاهرة بوجوه أخرى في المجتمع العراقي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003 وسيادة الانفلات الأمني.

(2) الصادية: هي السادية التي تعني الحصول على اللذة والمتعة بتعذيب الآخرين، وينسب مصطلح السادية إلى المركيز دي ساد (1740–1814 marquis de sade)، الذي أشتهر بمؤلفاته ذات المحتوى العنيف في الممارسات الجنسية، والتي أشهرها روايته (جوستين وجوليت). وإيقاع الألم على الطرف الآخر هو شرط أساس لإثارة الرغبة الجنسية والوصول إلى الذروة عند الشخص السادي. وتختلف صفة هذا الألم ودرجته إلى حد كبير، فقد يتلذذ السادي بوخز الطرف الآخر، أو عضه أو ضربه أو أحياناً سبّه (ألم نفسي)، وقد تصل درجة الألم إلى حد القتل!. وهناك شبه ارتباط بين الشخص السادي والمغتصِب، بالرغم من اختلاف دافع كل منهما، فقد وجد أنه بين كل أربعة مغتصِبين يوجد واحد على الأقل له ميول سادية.

لهم مكبوتة. وإني لا أزال أذكر أولئك الذين كانوا يسحبون جثة نوري السعيد[1] في عام 1958[2].

فالواقع أنهم كانوا في عملهم هذا يشبعون رغبة مكبوتة، ولكنهم ينكرون ذلك ويتظاهرون بأن الذي دفعهم إلى عملهم هذا هو حبّ الوطن فقط لا غير[3]. وإني واثق أن ثورة 1958 لو كان وقد أخفقت، لفعلوا بعبد الكريم قاسم[4] مثلما فعلوه بنوري السعيد.

أقف عند هذا الحد في ذكر الجوانب السلبية من اللاشعور، وهي الجوانب التي تجعل الإنسان متحيّزاً في تفكيره وبعيداً عن العدل والموضوعية. أما الجوانب الإيجابية من اللاشعور فسوف أحاول شرحها في فرصة أخرى – قل إن شاء الله!.

---

(1) نوري باشا السعيد (1888–1958)، سياسي عراقي، تولى منصب رئاسة الوزراء في العراق 14 مرة بدءاً من وزارة 23 آذار 1930 إلى وزارة 13 مايو 1958. كان نوري السعيد ولم يزل شخصية سياسية كثر الجدل والآراء المتضاربة عنها. اضطر إلى الهروب مرتين من العراق بسب انقلابات حيكت ضده. ولد في بغداد وتخرج من الأكاديمية العسكرية التركية في إسطنبول، خدم في الجيش العثماني وأسهم في الثورة العربية وأنضم إلى الأمير فيصل في سوريا، وبعد فشل تأسيس مملكة الأمير فيصل في سوريا على يد الجيش الفرنسي، عاد إلى العراق وأسهم في تأسيس المملكة العراقية والجيش العراقي..

(2) قال لي السيد جواد هبة الدين الشهرستاني إنّه أجرى تحقيقاً وبحثاً بشأن سحب جثّة نوري السعيد في شوارع بغداد بعد ثورة 14 تموز 1958، فثبت له أنّ الجماهير الغاضبة كانت تسحب جثّة وزير أردني من وزراء الاتحاد الهاشمي له شبه بنوري السعيد ظنّاً منها أنّها جثّة نوري السعيد، وأنّ جثّة السعيد أخفيت في قبو في وزارة الدفاع باتفاق بين عبد الكريم قاسم ومرافقه وصفي طاهر الذي كان مرافقاً لنوري السعيد أيضاً، ثمّ أخرجت بعد أيام ودُفنت في المقبرة القريبة من وزارة الدفاع في باب المعظم.. ولم أسمع مثل هذا الرأي إلا من السيد جواد.

(3) وهذا ما لاحظناه جلياً بعد احتلال العراق وانتشار ظواهر غريبة عن المجتمع العراقي، حيث يقتل المجرم انساناً ويدعي أنه إنما قتله خدمة للدين أو الطائفة التي ينتمي إليها.

(4) عبد الكريم قاسم (1914–1963) رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع في العراق من 14 تموز 1958 ولغاية 9 شباط 1963 حيث أصبح أول حاكم عراقي بعد الحكم الملكي. هو عسكري عراقي عرف بوطنيته وحبه للطبقات الفقيرة التي كان ينتمي لها. ومن أكثر الشخصيات التي حكمت العراق إثارة للجدل حيث عرف بعدم فسحه المجال للآخرين بالإسهام معه بالحكم واتهمه خصومه السياسيين بالتفرد بالحكم فكان يسميه المقربون منه وفي وسائل إعلامه «الزعيم الأوحد». تم إعدامه في دار الإذاعة في بغداد يوم 9 شباط 1963.

اللاشعور في جوانبه الإيجابية(1)

ذكرنا من قبل قول أحد الباحثين في وصف اللاشعور وهو أنه يحتوي على منجم من الذهب وعلى مجموعة من النفايات في آن واحد. فالمقصود بالنفايات هي الجوانب السلبية التي شرحناها، أما منجم الذهب فالمقصود به الجوانب الإيجابية من اللاشعور، وهي الجوانب التي نحاول شرحها الآن.

يمكن القول إن معظم المخترعات الكبرى والأفكار المبدعة التي ساعدت على تطوير المجتمع البشري عبر التاريخ هي نتاج ومضات خاطفة انبثقت في لاشعور بعض الأفراد بين حين وآخر. وكذلك يمكن القول إن معظم الناجحين في الحياة قد استمدوا نجاحهم من استثمار مواهبهم اللاشعورية على وجه من الوجوه.

هناك جانبان في اللاشعور لهما أثرهما الكبير في إبداع الإنسان أو في نجاحه. وكثيراً ما يقع الإنسان في خطأ مهلك حين يعتمد في حياته على التفكير المنطقي الواعي وحده، ويهمل الومضات الإبداعية أو الخارقة التي تنبثق من عقله الباطن.

ذكرت (آنفاً) شيئاً عن داء «الوسوسة» أو «الوسواس» كما يسميه العوام في العراق. فالمصاب بهذا الداء قد يكون موهوباً بدرجة عالية من الذكاء، أو ببعض القدرات الخارقة، ولكنه لا يستطيع استثمارها في حياته لأنه مشغول بعقدة الاستكمال التي تسيطر عليه فلا يستجيب لومضات مواهبه اللاشعورية أو هو لا يهتم بها. وكثيراً ما ينتهي المصاب بهذا الداء إلى الفشل الذريع في الحياة!.

إن العظيم أو الناجح من الناس هو القادر على التمييز بين محتويات لاشعوره، فيستثمر الجوانب النافعة منها بينما هو يراقب الجوانب الضارة فلا يتيح لها أن تعبث به كما تشاء.

نلاحظ في بعض الأفراد أنهم قادرون على استثمار الجوانب الإيجابية من

لاشعورهم، ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون أن يتخلصوا من مساوئ الجوانب السلبية: فترى أحدهم بارعاً في مهنته ولكن التعصّب التقليدي أو العاطفة والأنويّة تسيطر عليه وتفقده كثيراً من نتائج براعته.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن العالم أو الأديب أو السياسي أو الإداري، فالواحد منهم قد يكون موهوباً في المجال الذي يعمل فيه، ولكنه لا يستثمر موهبته كما ينبغي لأن الجوانب السلبية من لاشعوره تربك عمله وتخلق له خصوماً ليس هناك ما يدعو لخصومتهم.

يجب أن أعترف أن (شرح الجوانب الإيجابية على نحو ما شرحت به الجوانب السلبية) هو فوق طاقتي، أو هو بالأحرى فوق طاقة العلم في وضعه الحاضر. إن مواهب الإنسان كثيرة ومتنوعة، وما زال العلم يشعر بالعجز عن اكتناه الكثير منها. إن الطبيعة البشرية وما فيها من ألغاز ما زالت في معظمها غير معروفة، وقد يصدق عليها ما قال الشاعر العربي قديماً:

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر[1]

إن مواهب الإنسان كثيرة ومتنوعة، كما أشرنا إليه آنفاً، ومن الممكن تصنيفها إلى صنفين رئيسيين، هما المواهب الذكائية والمواهب الخارقية.

في عام 1982 جاء الباحث الأمريكي هوارد غاردنر[2] بنظرية جديدة مفادها أن الذكاء ليس نوعاً واحداً، بل هو سبعة أنواع، فالفرد قد يكون ذا درجة عالية في أحد أنواع الذكاء بينما هو ذو درجة واطئة في نوع آخر منه. خذ مثلاً أينشتاين[3]،

---

(1) انظر صفحة 17.

(2) أستاذ في كلية هارفارد للدراسات العليا، جاء عام 1982 بنظرية جديدة مفادها أن الذكاء ليس نوعا واحدا بل هو سبعة أنواع.

(3) عاش ألبرت أينشتاين ما بين 14 آذار 1879 إلى 18 نيسان 1955. عالم في الفيزياء النظرية. ولد في ألمانيا، لأبوين يهوديين، حاز في العام 1921 على جائزة نوبل في الفيزياء. بعد تأسيس دولة إسرائيل عرض على آينشتاين تولي منصب رئيس الدولة في إسرائيل لكنه رفض مفضلا عدم الانخراط في السياسة وقدم عرضا من نقاط عدة للتعايش بين العرب واليهود في فلسطين. الوثيقة التي أرسلها أينشتاين تدل أنه كان بعيدا تماما عن معرفة الأمور السياسية وتعقيداتها وبعيداً عن أي معرفة بالأفكار الصهيونية التي تقوم عليها إسرائيل.

وهـو العبقـري المشـهور صاحب نظرية النسـبية[1] التي اعتبـرت في حينها طفرة فـي عالـم الفيزيـاء والفلـك. فهذا الرجل كان فـي طفولته لا يجيد الكلام، وظل كذلك حتى آخر حياته، وقد ظنّ أهله أنه لا خير فيه لأنهم كانوا يقيسون الذكاء بفصاحة اللسان وجودة النطق، كما هو الحال في الجيل الماضي عندنا. فهم لم يكونوا يعرفون أن أينشـتاين لديه درجة عالية جدّاً من نوع آخر من الذكاء. ولو كان أينشتاين قد عاش في مجتمع متخلف لما تمكّن من استثمار ذكائه الممتاز، ولبقي طيلة حياته لا خير فيه[2].

ويمكـن أن نقـول مثـل هذا عن أديسـون[3] وهو المختـرع العظيم الذي لم يظهر في تاريخ البشرية أكثر اختراعاً منه. فهو لم ينجح في المدرسة في طفولته وكتب عنه مدير المدرسة أنه متخلف في ذكائه فالمدير كان يقيس الذكاء بمقياس لم يكن منطبقاً على أديسون. ولو كان أديسون يعيش في مجتمع متخلف لصار مصيره كمصير أينشتاين (لا خير فيه).

وحيـن نأتـي إلـى المواهـب الخارقيـة نجـد أنها أكثـر تنوعـاً وغموضاً من المواهب الذكائية. وهذا الموضوع هو الذي اختص به علم الخارقية[4] الجديد،

---

(1) نظرية النسبية لألبرت آينشتاين أو ما يدعى اختصارا النسبية، مصطلح يشير لاثنتين من أهم النظريات الفيزيائية في العصر الحديث أسهم بهما بنحو خاص الفيزيائي ألبرت أينشتاين، بالإضافة إلى هنري بوانكاريه الذي يعدّ أحد واضعي النسبية الخاصة. ومصطلح نسبية من وضع ماكس بلانك عام 1908 ليؤكد كيفية استخدام النسبية الخاصة لمبدأ النسبية (في ذلك الحين لم يكن للنسبية العامة وجود بعد)..

(2) كان الوردي يستشهد بهذين المثلين في كلّ مناسبة يتحدث بها عن الأساليب التربوية في مجتمعنا وكان يقول: إنّ الطفل إذا كان من مثل أينشتاين أو أديسون ويعيش في مجتمعنا فإنّ أمه أو أباه يضربانه ويطلبان منه أن يكون مثل ابن الجيران. فلماذا يرسب هو وينجح ابن الجيران؟ مثلاً (شناقص حلك خشم.. عيون!)، أي: إنّ ابن الجيران لديه فم وأنف وعيون وأنت لديك مثلها، فما الذي ينقصك؟

(3) توماس ألفا أديسون 1847–1931) مخترع أمريكي سُجّل بإسمه أكثر من الف اختراع كان من ضمنها مسجلات الاقتراع والبارق الطابع والهاتف الناقل الفحمي والمصدح (الميكرفون) والحاكي (الفونوغراف) أو الغرامافون واعظم اختراعاته المصباح الكهربائي. ومن الطريف أن توماس اديسون لم يتعلم في مدارس الدولة إلا ثلاثة اشهر لأن ناظر المدرسة كان يرى أنه طفل بليد ومصاب بالتخلف العقلي.

(4) الوردي هو من أطلق على علم الباراسيكولوجي اسم (الخارقية) وله تسميات أخرى لعدد من المصطلحات الغربية، وهو يعد أحد أبرز رواد هذا العلم في العراق.

أي «الباراسايكولوجيا» كما يسمى في اللغة الإنكليزية واللغات الأوروبية الأخرى.

فقد اتضح الآن في ضوء هذا العلم أن كثيراً من الناس لديهم قدرات خارقة، كقراءة الأفكار، أو رؤية الأشياء المحجوبة أو البعيدة، أو تحريك الأشياء بالنظر، أو التنبؤ بحوادث المستقبل، أو المقدرة على شفاء الأمراض، أو غيرها. ولكن كثيراً من هؤلاء الذين يملكون مثل هذه المواهب لا يستطيعون أن يستثمروها في حياتهم، أو هم لا يعرفون أنهم يملكونها، فتضيع فوائدها عليهم يجب أن لا ننسى أن المواهب الخارقية، هي كمواهب الذكاء، لا تخضع للتفكير الواعي، أو هي قد يفسرها التفكير الواعي، فهي تنبثق من أعماق اللاشعور، ومن يريد أن يستثمرها يجب أن يستجيب لها بلا تفكير أو تمنطق أو وسوسة.

خُذ على سبيل المثال تاجراً ناجحاً في تجارته، وكان سبب نجاحه أنه يملك قدرة خارقة في قراءة أفكار الزبائن، أو التأثير فيهم، أو التنبؤ بمستقبل الأسعار، أو ما أشبه. وهو يجري في استثمار موهبته عفو الخاطر.. فهو لا يكاد يخضع موهبته لتفكيره الواعي حتى يبدأ بالسير في طريق الفشل[5].

إن هذا هو الذي جعل العلماء والمفكرين لا يصلحون للتجارة. فهم إذا دخلوا في عالم التجارة أخفقوا فيه، لأنهم اعتادوا على التفكير المنطقي في مجال عملهم، وهذا النوع من التفكير يعرقل الاستجابة لومضات القدرات الخارقة. ومن هنا جاء المثل الدارج المعروف في أسواق بغداد وهو: «الذي يدخل السوق يجب أن يضع عقله على الرف».

إن الناجحين في مختلف شؤون الحياة هم الذين يملكون القدرة على التوفيق بين طاقات عقولهم الواعية واللاشعورية معاً. فلا خير فيمن يستجيب لومضات لاشعوره وحدها دون تفكير واعٍ كما لا خير فيمن يستجيب لتفكيره الواعي دون اهتمام بومضات لاشعوره.

إن التفكير الواعي هو الميزان الذي يزن به الإنسان ما يخطر في ذهنه من خواطر متنوعة، ويدرك قيمة كلّ منها في الحياة العملية. فنحن نعرف أشخاصاً يملكون مواهب نادرة أو قوى خارقة ولكنهم لا يعرفون كيف يستثمرونها لنقص

---

(5) تستطيع ان تجد مصاديق ذلك في الكثير من قصص النجاح والفشل في المجال التجاري.

في عقولهم الواعية. وكذلك نعرف أشخاصاً على النقيض من ذلك يعتمدون على عقولهم الواعية في كلّ أمورهم - كما هو الحال في المصابين بداء «الوسوسة» - وتراهم يحققون ويدققون في كلّ صغيرة وكبيرة، فتضيع بذلك ومضات الإبداع اللاشعورية فيهم.

إن الومضات الإبداعية كثيراً ما تختلط في يقظتنا بمحتويات اللاشعور الأخرى، كالرغبات المكبوتة أو التعصّب التقليدي، أو التجارب المنسية، أو العواطف القوية، وهنا تأتي وظيفة العقل الواعي في التمييز بين المحتويات، وفي معاملة كلّ منها بما ينفع فيها.

وهناك ناحية أخرى جديرة بالذكر هنا هي أهمية الدأب والمثابرة في استثمار ومضات اللاشعور. فإن الذي يملك موهبة الإلهام دون أن يملك معها موهبة الدأب والمثابرة كثيراً ما يضيّع إلهامه سدى[1].

يروى عن أديسون أنه وصف الاختراع الذي يبدعه أي مخترع بأنه في معظمه حصيلة الجهد والتعب، أما الإلهام فليس له في إنجاز الاختراع سوى نصيب قليل جدّاً.. وهو على حد تعبير أديسون: «2 بالمائة نتيجة الإلهام و98 بالمائة نتيجة العرق». وهذا قول فيه مبالغة ولكنه مع ذلك لا يخلو من الحقيقة، فإن الملهمين العظام في مجال العلم أو الفن ليسوا حصيلة الإلهام وحده، بل هم قد تميزوا عن غيرهم بالتعب المتواصل وبذل الجهد، أي بـ «العرق» على حد تعبير أديسون.

خذ مثلاً الشاعر المشهور الذي بزّ منافسيه بروعة شعره، فهو لم يكتف بما لديه من موهبة شعرية، بل رأيناه يكافح طويلاً في حفظ قصائد الشعراء الجيدين قبله، ويسعى بكلّ جهده في أن يقارن بينها لكي يعرف ميزة كلّ منها على الأخرى. وهو كلّما ازداد حفظاً ودرساً وتدقيقاً ازدادت قدرته على نظم الشعر البديع. ولكنه مع ذلك لا يقسر نفسه على نظم الشعر في أي وقت يشاء، بل هو ينتظر لحظات انطلاق القريحة، فيقتنصها عند ذاك كما يقتنص الصياد فريسته.

---

(1) من هنا جاءت معارضة الوردي لمقولة (من جدّ وجد ومن زرع حصد)، فالجدّ والمثابرة وحدهما من دون أن تعضدهما موهبة الإلهام لا تؤدي إلى نتيجة كما يرى.

وهـذا هـو مـا يفعله المؤلف والباحـث العلمي، فهو لا يكتفي بما لديه من ذكاء أو موهبة علمية، بل هو يبذل أقصى جهده في جمع المعلومات وتصنيفها. وفـي الـدأب المتواصـل الـذي لا يقف عند حد فيها.. وكلّما ازداد دأباً في ذلك ازدادت قدرتـه علـى الإبـداع فيه، حتى يجد نفسـه أخيـراً وقد زخر عقله الباطن بالومضـات المبدعـة، فيعمـد إلـى اقتناصهـا علـى نحو ما يقتنص الشـاعر فيض قريحته.

والواقـع أن الإبـداع فـي كتابة المقالات هو من هذا الطراز أيضاً، فالكاتب لا يستحسـن لـه أن يعتمـد على قريحتـه أو موهبته وحدها عندما يريد أن يكتب مقـالاً. فهـو مهمـا كان ذا موهبـة كبيرة فليس في مقدوره أن يكتب المقال الجيد ما لم يتعب أولاً في جمع المعلومات الخاصة به.

يؤسفني أن أرى بعض مدارسنا وكلّياتنا تعلم طلابها بخلاف هذا في كتابة الإنشاء، فهي تطلب من الطالب أن يلجأ إلى الخيال والتأمل المجرد، وأن يشحذ قريحته اعتماداً على الألفاظ الرنانة والتعبيرات البلاغية المكررة. ومن هنا نشـأ لدينـا كتـاب بارعـون فـي صياغة الألفاظ الرنانة غير أننا لا نسـتفيد من كتاباتهم شيئاً أو لا نفهم منها شيئاً.

الحضارة الحديثة

الحضارة بين منطقين(1)

إن الحضارة الحديثة، وكلّ حضارة بشرية ظهرت في تاريخ العالم، لا يمكن أن تخلو من مساوئ خاصة بها[1]. ومن الممكن القول: إن الحضارة الحديثة هي أكثر مساوئ من الحضارات التي سبقتها وذلك لأنها أكثر تقدماً واختراعاً.

إنّ هذا قول قد لا يرتضيه المفكرون العقلانيون لأنهم اعتادوا على النظر في الأمور حسب التصنيف الثنائي الذي التزم به المنطق القديم. فإنّ هذا المنطق يصنّف الأمور إلى صنفين متضادين: خير أو شرّ، حقّ أو باطل، نافع أو ضار، حسن أو قبيح، الخ.. ومن الجدير بالذكر أنّ هذا التصنيف الثنائي لا يوافق عليه المنطق الحديث ويعتبره مغلوطاً.

إن الأمور في ضوء المنطق الحديث كثيراً ما تكون مزيجاً من الخير والشر، أو بين النفع والضرر، فليس هناك في هذه الدنيا خير محض أو شرّ محض. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم حين قال: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم»[2].

إنّ أمور هذه الدنيا نسبيّة في الغالب، فما يرضى عنه قوم قد يسخط عليه آخرون، ويجب أن لا ننسى أن مبدأ النسبيّة لا يقتصر أثره على الأمور البشرية فقط، بل هو يشمل ظواهر الكون أيضاً، على نحو ما توصّل إليه أينشتاين في نظريته المعروفة[3].

---

(1) تطرق الوردي إلى هذا الموضوع بعد أن وردته رسالة وجهها إليه أحد القراء وهي: «إلى الدكتور علي الوردي: قرأنا في بعض مقالاتك وكتبك أنّك تدعو بحماس إلى تبني الحضارة الحديثة والسير في طريقها، ولكنك في الوقت نفسه تقول بأنّ هذه الحضارة مليئة بالمساوئ. واسمح لنا أن نقول إنّ موقفك هذا من الحضارة الحديثة لا يخلو من تناقض. فإذا كانت الحضارة مليئة بالمساوئ فكيف تدعونا إلى تبنيها والسير في طريقها؟ أفتونا مأجورين».

(2) ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 216].

(3) يقصد النظرية النسبية.

إنّ الحضارة الحديثة أنتجت من المخترعات ما غيّرت به وجه العالم، وهي مخترعات لو سمع بها القدماء لاعتبروها مستحيلة أو غير معقولة، ولكن هذه المخترعات أضرّت بالبشرية بمقدار ما نفعتها، أو هي بعبارة أخرى أضرّت بالبشرية ونفعتها في آن واحد.

إنَ الأضرار التي أصابت البشرية من جراء هذه المخترعات الكثيرة يصعب حصرها. وقد يكفي أن نذكر منها: تلوث البيئة وتضخم المدن وتكاثر السكان والانفجارات النووية وتضاؤل طبقة الأوزون[1] وانتشار التصحّر وتقلّص الغابات وظهور أمراض جديدة[2] وتسمّم المياه والأغذية[3] والمطر الحامضي[4] وغيرها.

---

(1) طبقة الأوزون، هي الجزء من الغلاف الجوي لكوكب الأرض والذي يحوي بنحو مكثف غاز الأوزون. وهي متمركزة بنحو كبير في الجزء السفلي من طبقة الستراتوسفير من الغلاف الجوي للأرض. اكتشفت طبقة الأوزون في 1913 وتمت معرفة التفاصيل عنها من خلال تطوير جهاز لقياس الأوزون الموجود في طبقة الستراتوسفير من سطح الأرض. بين سنة 1928 و1958 أنشأ دوبسون شبكة عالمية لمراقبة الأوزون والتي ما زالت تعمل حتى وقتنا هذا. وحدة قياس دوبسون، هي وحدة لقياس مجموع الأوزون في العامود، تمت تسميتها تكريماً له.

(2) مثل الأيبولا ونقص المناعة المكتسبة HIV وجنون البقر وانفلونزا الخنازير والطيور وفيروس الكورونا الجديد الذي شُخَص بأنه فيروس غامض ونادر من عائلة «الكورونا فيروس»، وبحسب المعلومات الأولية، فإن أعراض هذا الفيروس تبدأ بسيطة كأعراض الإنفلونزا، فيشعر المريض بالاحتقان في الحلق، والسعال، وارتفاع في درجة الحرارة، وضيق في التنفس، وصداع، قد يتماثل بعدها للشفاء. وربما تتطور الأعراض إلى التهاب حاد في الرئة، بسبب تلف الحويصلات الهوائية وتورم أنسجة الرئة، أو إلى فشلٍ كلوي، كما قد يمنع الفيروس وصول الأوكسجين إلى الدم مسبباً قصوراً في وظائف أعضاء الجسم، ما قد يؤدي إلى الوفاة في حالات معينة، وظهور أنواع لا عدّ لها من الفيروسات المقاومة للمضّادات الحيوية.

(3) بسبب استعمال المبيدات الحشرية التي سببت التلوث البيئي.

(4) يعرّف أستاذ الفيزياء حسن يوسف شهاب الدين المطر الحامضي بأنه المطر الذي يكتسب الصفة الحمضية والتي يمتلكها بسبب ذوبان الغازات الضارة بماء المطر, والمطر النقي بطبيعته حامضي بنسبة ضئيلة بسبب ثاني أوكسيد الكربون المنحل به, ويقول: إن الأمطار الحامضية تؤدي إلى تلف الكثير من النباتات والأشجار ومياه البحيرات والأنهار والأراضي وما تحتويه من خيرات، كما تسبب عمليات التآكل في المنشآت الحجرية والمعدنية، ويتسبب المطر الحمضي والضباب الدخاني في احتقان الأغشية المخاطية وتهيجها والسعال وتلف الأنسجة عند الإنسان, وتؤثر سلبا على النباتات ذات المحاصيل الموسمية فهي تجرد الأشجار من أوراقها وتحدث خللا في التوازن الشاردي للتربة ثم يضطرب الامتصاص في الجذور والنتيجة حدوث خسارة في المحاصيل وموت الغابات, وهذا بدوره يؤثر سلبا على الحيوانات العاشبة فتتأثر الحيوانات اللاحمة ,ولوحظ موت القشريات والأسماك

إنّ العلماء اليوم يحاولون علاج هذه الأضرار أو العمل على تقليلها، ولكن السؤال الذي يواجهنا هنا: هل هم قادرون على ذلك؟.

في رأي بعض العلماء إن الأضرار الناتجة عن الحضارة الحديثة ستنمو بمرور الزمن، وهي قد تؤدّي في نهاية المطاف إلى هلاك البشرية، وهذا الرأي يذكّرنا بما ورد في القرآن الكريم عن يوم القيامة[1]، ونسأله تعالى أن لا يُبقينا إلى هذا اليوم - آمين!..

لا تقتصر مساوئ الحضارة الحديثة على النواحي المادية وحدها، وهي النواحي التي أشرت إلى نماذج منها آنفاً، بل هي تشمل نواحي أخرى غير ماديّة.

المعروف عن المجتمعات المتقدّمة التي ازدهرت فيها الحضارة في عصرنا أنّها مشحونة بعوامل القلق والكآبة والجنون والانتحار والانحراف والتشرّد.. وقد يصحّ أن نقول إنّ المجتمع كلّما ازداد تقدم الحضارة فيه ازدادت فيه في الوقت نفسه معدلات الانتحار والجنون والانحراف والجريمة[2].

إنّي أدركت في صباي الجيل الذي عاش في العهد العثماني قبل مجيء الحضارة الحديثة إليه. فقد كان جيلاً يسوده الفقر والحرمان، ولكنّه كان في الوقت نفسه تسيطر عليه الطمأنينة النفسية والعقيدة الجازمة.

كانت العقيدة الدينية حينذاك مسيطرة على النفوس لا يتطرّق إليها الشكّ،

الصغيرة في البحيرات المتحمضة، ولخطورة هذه المشكلة قدرت خسائر ألمانيا الغربية- خلال سنة واحدة بنحو 600 مليون دولار نتيجة إتلاف المحاصيل الزراعية، بسبب الأمطار الحمضية. وهناك دراسات أخرى كثيرة تبين الآثار السيئة للأمطار الحمضية نشرت في المجلة العلمية «ديسكفري».

(1) ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: 58].

(2) نسبة الانتحار عموماً هي (35) لكلّ مائة ألف شخص في هنغاريا، و(23) في النمسا وتشيكوسلوفاكيا، و(22) في السويد، و(23) في ألمانيا، و(19) في سويسرا، و(18) في الدانمارك، و(16) في فرنسا، و(15) في بلجيكا، و(14) في أستراليا، و(11) في الولايات المتحدة، و(10.5) في إنكلترا، و(10) في بلغاريا وبولونيا، و(9) في كندا، و(7) في النرويج. ويقدر عدد الذين يحاولون الانتحار سنوياً في فرنسا وحدها بمئة ألف شخص يموت من بينهم 15000 شخص. وتتنوع حالات الانتحار فمنها ما يكون غرقاً، ومنها بالسلاح، ومنها بالأدوية، ومنها بالسموم، ومنها بالغاز، ومنها بأدوات حادة، ومنها بالقفز من الأماكن العالية.. لكن ثلاثة أرباع هذه الحالات تتم بواسطة التسمم.
«غرائب العالم، ص 57، منشورات المكتبة الشرقية - بيروت 1982».

وكان الناس يجدون فيها السلوى تجاه ما يعانونه من مشاكل الحياة ومصائبها.. فهم كانوا يجدون في العقيدة علاجاً روحياً لكلّ مشكلة يواجهونها، أو هم على الأقلّ ينتظرون من الله أن يعوّضهم في الآخرة عما يعانونه في هذه الدنيا «الفانية» من آلام[1].

لا أنكر أن العقائد التي كانت سائدة في تلك الأيام لم تكن خالية من بعض الخرافات والأباطيل، ولكنها كانت مع ذلك تسبغ على الناس طمأنينة وراحة نفسية، وتبعدهم عن القلق والتذمّر.

إنّي ما زلت أتذكر السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في العراق، وكيف اندهش الناس حين رأوا بعض مظاهر الحضارة الوافدة إليهم. فهم قد شاهدوا فجأة مصابيح موضوعة على أعمدة الشوارع وليس فيها نفط ولا فتائل ولا تحتاج إلى «نفطجي»[2] مكلّف بإنارتها وإطفائها كلّ مساء وصباح. إنّ هذا أمر لم تكن تستسيغه عقولهم ولا يستطيعون تفسيره، وقد ذهبوا في تعليله مذاهب شتّى حسب مفاهيمهم القديمة التي اعتادوا عليها.

إنّ الحضارة الحديثة بدأت بالتسلّل إلى العراق منذ منتصف القرن التاسع عشر، حيث جاءت الباخرة والتلغراف والحاكي والعربة وبعض المخترعات البسيطة الأخرى. ولكنّ المخترعات الحديثة أخذت تأتي إلى العراق عقب الحرب العالمية الأولى بزخم شديد، فأذهلت عقول الناس وأخرجتهم من قوقعتهم الذهنية التي كانوا مرتاحين فيها.

كتبت ذات مرّة مقالاً في إحدى الصحف بعنوان: «من على ظهور الحمير إلى الجمبو»[3] وهذا العنوان يصور الفترة التي عشت فيها منذ طفولتي حتى شيخوختي الحاضرة فالواقع أنّي سافرت مع أهلي في أواخر عام 1916 على

(1) كان الوردي يغبط مثل هؤلاء المؤمنين وكثيراً ما سمعته يقول عندما يسمع بأحد منهم «هنيئاً له فهو يعيش مطمئناً مرتاحاً ناعم البال» وكثيراً ما كان يردد مقولة «من آمن بحجر كفاه»، أو يقول: هنيئاً لفلان فهو يمتلك إيمان العجائز.

(2) بدأت وظيفة (النفطجي) منذ العهد العثماني في العراق، وقد شاهدت مرة مسلسلاً تمثيلياً سورياً ظهر فيه (النفطجي)، إذ كانت سوريا أيضاً خاضعة للحكم العثماني..

(3) غادر الوردي هذه الحياة في 13 تموز 1995 في وقت فرضت على العراق عقوبات دولية بسبب حرب الخليج الثانية، وهو لم يدرك الطائرة الصاروخية، التي لم ندركها نحن بعد.

ظهور الحمير[1]، ثم أتيح لي في الآونة الأخيرة أن أسافر بطائرة «الجمبو» وربّما أتيح لي قبل مغادرة هذه الدنيا أن أركب الطائرة الصاروخية - قُلْ إن شاء الله!.

إنّ هذه الفترة التي استغرقت نحو سبعين سنة يمكن اعتبارها أهم مرحلة مرّ بها العراق في تاريخه الاجتماعي، فقد انتقل المجتمع العراقي بها من وضعه الراكد المنعزل إلى وضعه الجديد الذي تسوده الحضارة الحديثة بمخترعاتها ونظمها المختلفة.

إنّي حين أقارن بين ما كنّا فيه قبل سبعين سنة وما نحن فيه الآن أجد فرقاً كبيراً من الناحيتين المادية والنفسية، فنحن الآن نتمتع بأقصى ما توصّلت إليه الحضارة من مخترعات عجيبة كالسيارة والطائرة، والمذياع والتلفاز، والثلاجة والمكيّف وأصبح كلّ بيت يستطيع أن يجمع في جنباته ما يشتهيه أهله من ملذّات ماديّة. أما الملذّات الروحيّة، التي كان البيت القديم مملوءً بها فقد بدأت بالتضاؤل يوماً بعد يوم - مع الأسف الشديد!.

إنّ هذا أمر محتوم لا مفرّ منه، فليس في مقدور الإنسان أن يحصل على محاسن الحضارة بينما هو ينبذ مساوئها كما يشاء. إنّ شؤون الحضارة هي كغيرها من شؤون الحياة البشريّة لا يمكن أن نتبع فيها طريقة الانتقاء والاختيار على نحو ما يفعل أحدنا عند شرائه البطيخ من البقّال.

ويجب أن لا ننسى أنّ المحاسن والمساوئ تأتي معاً في الحياة الاجتماعية، ومن يطلب المحاسن وحدها دون المساوئ فالأحرى به أن يعيش في عالم آخر غير هذا العالم الذي نعيش فيه.

إنّ المخترعات العظيمة، التي تزخر بها الحضارة الحديثة قد منحت الإنسان متاعاً ماديّاً غير أنها أفقدته المتاع الروحي.

يقول أحمد بن حنبل[2]: العقيدة تسليم ومن تمنطق فقد تزندق، وهذا القول

---

(1) أتينا على تفاصيل هذه السفرة وكانت إلى مدينة النجف في كتابنا «خفايا من حياة علي الوردي». دار العرب للنشر والتوزيع 2015.

(2) الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني، أحد الأئمة الأربعة، ولد في بغداد في شهر ربيع الأول سنة 164هـ/ 780م وتنقل بين الحجاز واليمن ودمشق. سمع من كبار المحدثين ونال قسطاً وافراً من العلم والمعرفة توفي 241هـ/ 855 م) هو أحد أئمة أهل السنة والجماعة

يقرب مما جاء به علم الاجتماع الحديث. فكلّما كان المجتمع أكثر انغلاقاً وانعزالاً كانت العقيدة في أفراده أقوى، وهو لا يكاد ينفتح على المجتمعات الأخرى، وتأخذ الحضارة بالتسرّب إليه، حتى يبدأ التشكيك وضعف العقيدة بالظهور فيه قليلاً أو كثيراً.

إنّ المفكرين العقلانيين يظنون أنّ في مقدور المجتمع أن يسير في طريق العلم والحضارة مع احتفاظه بالطمأنينة النفسية الشاملة لجميع الأفراد فيه، وهم يضعون في ذلك منهجاً يحسبون أنه يوصلهم إلى الهدف المنشود.

إنّ هذا من الأوهام التي شغل بها المفكرون العقلانيون منذ زمن قديم، وما زالوا مشغولين به حتى الآن. فهم يحسبون أنهم قادرون على تغيير طبيعة الإنسان عن طريق المواعظ وهم ظلّوا يمطرون الناس بمواعظهم طيلة مئات السنين بينما بقي الناس على طبيعتهم القديمة دون أن يتغيّر منها شيء[1].

الواقع أنّنا نقف تجاه الحضارة الحديثة في مأزق، أو ما يسمى في الاصطلاح العلمي «dilemma»، أي أننا في مشكلة ذات حدّين.

يجب أن لا ننسى أن الحضارة الحديثة محتومة علينا لا مفرّ منها، فهي قدرنا الذي لا محيص منه، فنحن ما دمنا نريد العيش في هذا العصر فلابدّ أن ندخل في معترك هذه الحضارة، شئنا أو أبينا.

إن إمام اليمن السابق يحيى حميد الدين[2] الذي عاش في النصف الأول

ومجدد الإسلام في القرن الثاني وافقه أهل زمانه.

(1) في واحد من أواخر اللقاءات الصحفية، التي أجريتها مع الوردي في حزيران 1994، قال لي: إنّ النظام المثالي التواعظي لا تأثير له في سلوك الناس إلا قليلاً، وإنّ أكبر التأثير هو لنظام القيم العملي، الذي ينشأ عليه الفرد ويعتاد عليه في طفولته في البيت عندما يلعب مع الأقران، وفي كبره عندما يشارك في الحياة العامة.

(2) الإمام يحيى حميد الدين (1869–1948م): ملك اليمن، الإمام المتوكل على الله ابن المنصور بالله، من أئمة الزيدية. ولد في صنعاء، وخرج منها مع أبيه إلى صعدة سنة 1890، وولي الإمامة بعد وفاة أبيه سنة 1904. كان يرى الاستبداد في الحكم خيراً من الشورى. كان شديد الحذر من الأجانب وآثر العزلة والانكماش في حدود بلاده. وكان من كلامه المأثور عنه قوله (لأن تبقى بلادي خربة وهي تحكم نفسها، أولى من أن تكون عامرة ويحكمها أجنبي)، وكان له اشتغال بالأدب، ونظم كثيرا. تألفت جماعات في السر، تظهر له الإخلاص وتبطن له نقيضه. وعلى رأس هؤلاء أقرب الناس إليه عبد الله بن أحمد، المعروف بابن الوزير. خاف معارضوه بطشه، بعد أن كشفهم، فأتمروا به، وعندما خرج

من هذا القرن[1] حاول أن يعزل بلاده عن الحضارة الحديثة، فلم يسمح بالدخول إلى بلاده منها إلا بعض الأمور المحدودة التي اعتبرها نافعة غير ضارة. إنه كان يعتقد أن الحضارة الحديثة مليئة بالشرور، وهي تُفسد الأخلاق والإيمان، وإن واجبه الديني يقضي عليه أن يقف حائلاً بين بلاده وتسرب الحضارة إليها.

لو كان الإمام يحيى يعيش في أحد القرون القديمة لكان في مقدوره أن يعزل بلاده عن أي تيار حضاري وافد إليها، ففي تلك القرون لم تكن وسائل السفر والإعلام والاتصال الفكري والاجتماعي ميسورة على نحو ما هي عليه اليوم. وكان من السهل على أي حاكم مستبد آنذاك أن يسدّ منافذ بلاده عن تيارات العالم الخارجي. ومن سوء حظّ الإمام يحيى أنه عاش في غير زمانه، ثم قضى غير مأسوف عليه.

خلاصة القول إن الحضارة الحديثة محتومة علينا يالرغم مما فيها من مساوئ ومخاطر كبيرة، فهي قدرنا المكتوب علينا، وكلّ ما نقدر أن نعمله تجاهها هو أن نتنبأ بالمساوئ والمخاطر التي تأتي معها ونُعدّ أنفسنا لمعالجتها أو التقليل من أضرارها بمقدار جهدنا – والله المستعان على كلّ حال!.

الإمام يحيى بسيارته ليتفقد مزرعته التي تبعد عن صنعاء 8 كيلو مترات في طريق الحُدَيْدَة، فاجأه بعض أتباع ابن الوزير بسيارة وانهالوا عليه برصاصهم، فقتلوه. خلف الإمام يحيى 14 ولداً يلقبون بسيوف الإسلام.

(1) المقصود هو القرن العشرون.

مساوئ الحضارة

[وردتني رسالة موجهة إليّ جاءت فيها النبذة الآتية[1] أنقلها بنصها](1).

(إنك أيها الدكتور العزيز تدعو في مقالاتك إلى الحضارة الحديثة، وتطنب في مدحها وتقول عنها إنها محتومة علينا لا خلاص منها، ولكنك تنسى ما في هذه الحضارة من جوانب سيئة ومثالب مردية فهل تريد منا يا دكتور أن نأخذ الحضارة على ما فيها من مساوئ كثيرة، ولماذا لا تدعونا إلى العودة إلى حضارتنا الإسلامية الرائعة ونترك هذه الخزعبلات التي يسمونها الحضارة الحديثة؟)..

إن هذا الذي يقول به الأخ السائل يشبه ما ورد في كتاب صدر في جَدّة في العام الماضي[2] بعنوان (الشباب المسلم والحضارة الغربية) لمؤلفه الأستاذ حسن حسن سليمان وفحوى ما جاء في الكتاب أن الحضارة الغربية تحمل تهديداً للبشرية عموماً لافتقارها للجانب الروحي، وأن ما فيها ما يؤدي إلى هدم الدين واللغة والأخلاق في شبابنا المسلم، وهذا يوجب علينا أن نعمل على إحياء الحضارة الإسلامية لإنقاذ البشرية من الضياع.

الواقع أن هذا الرأي الذي ورد في كتاب الأستاذ حسن وفي الرسالة التي وصلت إليّ، له مؤيدون كثيرون في أرجاء العالم الإسلامي، وهو رأي له قيمته ولكن المشكلة فيه أن تحقيقه صعب جدّاً أو هو يقرب من المستحيل في عصرنا..

إن الرأي العلمي في هذا الشأن يقول بأن الحضارة الحديثة محتومة علينا لا مفر منها، وإذا نحن قاومناها أصابنا من الضرر أكثر مما يصيبنا من النفع.

لا ننكر أن الحضارة الحديثة مليئة بالمساوئ والجوانب السلبية، فهي

---

(1) في الأصل: التالية.

(2) المقصود هو العام 1988.

بطبيعتها تضعف العقيدة الدينية[1]، وتؤدي إلى تفكك نظام الزواج والعائلة، كما تؤدي إلى انتشار الكآبة والانتحار والانحراف، بالإضافة إلى ما ينتج عنها من تلوث البيئة وتقلّص طبقة الأوزون وتكاثر السكان واتساع التصحر والإشعاع النووي[2] وغيرها.. وهناك من يقول إن الحضارة الحديثة سوف تؤدي إلى فناء البشرية عاجلاً أو آجلاً..

ولكننا في الوقت الذي نعترف فيه بالجوانب السلبية من هذه الحضارة يجب أن نعترف أيضاً أننا لا نملك تجاهها أية قدرة لمنعها من المجيء إلينا فهي آتية لا ريب فيها، شئنا أم أبينا..

إن من أهم مساوئ الحضارة هي أنها تضعف العقيدة الدينية في النفوس، وهذا ناموس بشري عام لا مقدرة لنا على مقاومته.

[إن] الحضارة بطبيعتها تحرك الذهن وتبعث على التساؤل والتشكيك في كلّ الأمور، وهي لابدّ أن تؤثر في العقيدة الراسخة في النفوس فتضعفها قليلاً أو كثيراً.

يجب أن لا ننسى أن مبدأ التساؤل والتشكيك هو الأساس الذي قام عليه العلم الحديث. والمشكلة فيه أنه يصعب حصره في المجال العلمي وحده، فإن الإنسان الذي يتخذ التشكيك مبدأ له في العلم قد يجره ذلك إلى التشكيك في الأمور الأخرى، وهذا هو ما فطن إليه ابن حنبل في القرن الثالث الهجري – أي في القرن التاسع الميلادي[3].

---

(1) مما أذكره أن اتحاد المؤرخين العرب أقام حفلًا لتكريم الدكتور حسين علي محفوظ على قاعة معهد التاريخ العربي في المنصور وكان من ضمن المتحدثين الوردي، ومن ضمن ما قاله إنه ذهب إلى أمريكا للدراسة واحتك هناك بالحضارة الغربية فتضعضع إيمانه، لذلك فهو لا يشعر بالاستقرار. أما الدكتور محفوظ فقد بقي على دراساته الشرقية القديمة فظل إيمانه قوياً ونفسيته مستقرة مطمئنة، ثم أردف ذلك بالآية الكريمة: «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية»، وكان واضحاً أن الوردي أراد السخرية بأسلوبه المعروف.

(2) الإشعاع النوَوي هو ظاهرة فيزيائية تحدث في الذرات غير المستقرة للعناصر، وفيه تفقد النواة الذرية بعض جسيماتها وتتحول ذرة العنصر إلى عنصر آخر أو إلى نظير آخر من العنصر ذاته.

(3) الإشارة هنا إلى قول الإمام أحمد بن حنبل: «العقيدة تسليم ومن تمنطق فقد تزندق» ويقول الوردي إنّ هذا القول الذي جاء به ابن حنبل قبل اثني عشر قرناً تقريباً يشبه ما يقول به علم الاجتماع الحديث الآن.

هناك أفراد قادرون على التوفيق في أنفسهم بين التشكيك العلمي واليقين العقائدي ولكنهم قليلون في عصرنا، وهم يقلّون تدريجياً بمرور الزمن مع الأسف الشديد.

الملاحظ في عصرنا أن أبناء الجيل الجديد هم أضعف عقيدة من الذين عاشوا قبلهم. ومن الممكن القول بوجه عام إن كلّ جيل قادم هو أضعف عقيدة من الجيل السابق له وهذه ظاهرة عامة لا تنحصر في مجتمعنا وحده، بل هي موجودة في جميع مجتمعات العالم التي وقعت تحت تأثير الحضارة الحديثة. وكلّما كانت الحضارة أكثر تقدماً في المجتمع كانت العقيدة الدينية أضعف فيه.

ومن الجدير بالذكر هنا أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد تنبأ بهذا حين قال: «سيأتي يوم على أمتي يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر»، أو حين قال: «سيعود الدين غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء من أمتي».

إن العقيدة الدينيّة نعمة من الله على البشر، إذ هي تسبغ على الإنسان الطمأنينة والثقة والتفاؤل. فإذا هي ضعفت في الناس انتشر بينهم القلق والتكالب والتشاؤم والانتحار، وهذا هو ما حصل فعلاً في البلاد التي بلغت درجة عالية في تقدّمها الحضاري.

دلّت الإحصاءات على أنّ معدل الانتحار بلغ في بلاد السويد أعلى مما بلغه في بلاد العالم الأخرى. هذا مع العلم أن السويد وصلت في تقدمها الحضاري إلى الدرجة القصوى. فالفرد فيها مضمون في معاشه ومسكنه وهو مجهّز بالمعدّات والمخترعات التي جعلت الحياة مريحة له إلى حدّ كبير، ولكنّه في الوقت نفسه مصاب بالقلق والتشاؤم بحيث أصبحت الحياة تافهة في نظره لا جدوى فيها وليس وراءها سوى الموت الذي هو في نظره يعني الفناء.

حين أقارن حال الفرد السويدي هذا بالحال الذي كان الفرد عليه عندنا في العهد العثماني أجد فرقاً كبيراً فقد كان الفقر والحرمان شائعاً في الناس في ذلك العهد، ولكن العقيدة الراسخة كانت تعوّضهم عن فقرهم وحرمانهم، وهم كانوا واثقين أن الله سيعوّضهم أضعافاً في آخرتهم. فقد كانت الدنيا في نظرهم فانية والآخرة باقية.

أعرف امرأة من بقايا ذلك العهد فقدت زوجها وابنها الوحيد، ثم صارت في السنوات العشر الأخيرة من حياتها مقعدة لا تستطيع التحرك ولكن التفاؤل كان قوياً فيها، وكثيراً ما كانت تطلب من أقربائها أن يقرأوا لها القرآن والأدعية المأثورة. وكانت مؤمنة إيماناً لا شكّ فيه أن الله سيرزقها الجنة بعد موتها تعويضاً لها عن الشقاء الذي عانته في حياتها.

إن البشر في حاجة إلى نظام يجمع بين العقيدة الراسخة والحضارة الراقية. ولكن السؤال الذي يواجهنا هنا: هل هذا أمر في مقدور البشر الحصول عليه؟!.

إن العلم الحديث يقول بأن هذا غير ممكن، فالطبيعة البشرية ناقصة، وليس في مقدورها أن تخلق النظام الكامل وأن تتلاءم معه بلا مروق أو خطيئة.

إن القرآن وصف الإنسان بما فيه الكفاية، وفيما (يأتي)[1] أذكر بعض الآيات القرآنية التي ورد فيها وصف الطبيعة البشرية:

1. (إن النفس لأمّارة بالسوء إلا من رحم ربك)[2].
2. **﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾**[3].
3. **﴿... إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾**[4].
4. **﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾**[5].
5. **﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**[6].

---

(1) في الأصل: يلي.

(2) يقول الله في كتابه العزيز: **﴿وَمَا أُبَرِّيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [يوسف: 53]، هكذا وردت الآية في القرآن الكريم، ولعل هناك خطأ مطبعي في أصل المقال.

(3) المعارج: 19–21.

(4) العلق: 6–7.

(5) الشورى: 27.

(6) يس: 30.

6. ﴿... وَلَكِـنَّ أَكْثَـرَ النَّـاسِ لاَ يَعْلَمُـونَ﴾[1]، ﴿... بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[2]، (ولكن أكثرهم للحق كارهون)[3]، (وَلَـكِنّ أَكْثَرَهُـمْ يَجْهَلُونَ)[4].

إن هـذا الإنسـان الـذي رأينـا وصفـه في القـرآن والذي اختبرنـاه في واقع حياتنـا، هـل يمكـن أن يعيـش فـي نظام كامـل يجمع كلّ المحاسـن ويخلو من المساوئ على نحو ما تخيّله الطوبائيون القدماء.

إننـا يجـب أن نقـدّر أولئـك الذيـن يدعون إلـى العودة إلى التـراث القديم مـن حيـث التمسـك بالعقيـدة الراسـخة والطمأنينة النفسـية، فهم يريـدون الخير لنا. ولكن مشـكلتهم أنهم يعيشـون في غير زمانهم. فهم يعيشـون في وسـط هذا العالـم الصاخـب وتحيـط بهم الحضـارة الحديثة من كلّ جانب، وهم مضطرون أن ينجرفـوا بتيارهـا فـي نهايـة المطاف. إن الذي يقـاوم التيار لابدّ أن يقع على الأرض وتسحقه الأقدام.

أرجـو منهـم لا يغضبـوا مـن هـذا الكلام، فهـي الحقيقة التـي يجب أن لا نُغمـض عيوننـا عـن رؤيتهـا. إن لهـم الحق في أن يتأسـفوا ويتألموا لما سـوف يحلّ بالبشـرية من مصير مظلم، ولكن ماذا يمكن للإنسـان أن يصنع تجاه تيار أقوى منه؟!.

---

(1) ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 6]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57]، ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: 26].

(2) ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: 63].

(3) ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: 70]، هذه هي الآية ولعل هناك خطأ مطبعي في أصل المقالة.

(4) ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111].

[قلت][1] إننا نقف تجاه الحضارة الحديثة في مأزق – أو ما يسمى باللغة الإنكليزيـة (dilemma) – فنحـن يجـب أن نسـير فـي طريقها مـن جهة، ولكنّها من الجهة الأخرى مليئة بالمساوئ والجوانب السلبيّة فماذا نصنع تجاه ذلك؟!.

إن الأمّة التي تمتنع عن السير في طريق الحضارة الحديثة لا يمكن أن تبقى صامدة تجاه هذا الصراع الهائل الذي يعمّ العالم اليوم.

إن الحروب كانت في الماضي تقوم على السـيف ولا ينتصر فيها إلا من يحذق استعمال السيف ومن يملك الشجاعة في الصولة به. أما الآن فإنّ السيف قد ذهب زمانه وحلّ محلّه العلم والتقنية الحديثة. إن الأمة التي لا تُريد السـير في هذا الطريق الجديد لابدّ أن تقع في أيدي الذين هم أقوى منها فيه.

حاول إمام اليمن السابق يحيى حميد الدين[2] أن يعزل بلاده عن الحضارة الحديثة، إذ هو كان يعتبرها مفسدة للدين والأخلاق، (وهو كان مصيباً في رأيه هذا)، ولكن مشكلته أنه لم يستطع أن ينجح في سياسته الانعزالية. فالتيار كان أقوى منه. وهو لو لم يسـقط في الوقت الذي سـقط فيه لسـقط في وقت آخر بعده. إن سقوطه كان محتوماً لا مفرّ منه.

يـروى عـن الإمـام يحيـى في أثنـاء الحرب التي نشـبت بينـه وبين خصمه عبد العزيز بن مسـعود[3]، في عام 1933، أنه لجأ إلى قراءة الأدعية مع أصحابه بغية كسـب النصر على خصمه. ونحن لا ننكر تأثير الأدعية في تقوية المعنويّة لدى المقاتلين، ولكنها لا تجدي وحدها في ذلك، بل يجب أن يصحبها السلاح

---

(1) كان الوردي في هذا الموضوع يردّ على قارئ وصفه بالتناقض في أقواله، فهو قد كتب رسالة وجهها إليه يقول فيها: «إنّ الوردي يقول إنّ الحضارة الحديثة مليئة بالمساوئ والمخاطر وهو ينقل رأياً لأحد الباحثين فحواه إنّ الحضارة الحديثة سوف تؤدي إلى هلاك البشرية ولكنَّ الوردي في الوقت الذي يقول بهذا الرأي يقول أيضاً إنّنا يجب أن نسير في طريق الحضارة الحديثة وأن نزيح عنه كلّ ما يعرقل علينا السير فيه. فكيف يمكن التوفيق بين قوله الأول وقوله الثاني؟!».

(2) مرت ترجمته سابقاً.

(3) عبد العزيز بن سعود (1876–1953) ملك المملكة العربية السعودية الأول ومنشؤها، استطاع بعد معارك كثيرة مع خصومه أن يبسط سيطرته على الحجاز ونجد. انظر ترجمته في الأعلام، خير الدين الزركلي، طبعة دار العلم الخامسة، بيروت، 1980.

المتفوّق. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم حين قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ...﴾[1].

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن (رباط الخيل) الذي ذكره القرآن ليس المقصود به الخيل فعلاً، بل المقصود به السلاح الذي يمكن به التغلّب على العدو. فإن الطائرات والصواريخ والدبابات تقوم اليوم مقام الخيل كما لا يخفى، وفي حالة التقصير في إعدادها فإن الأدعية لا تنفع مهما كانت بليغة!.

خلاصة القول إنّ الذي يريد أن يعيش في هذا العصر يجب أن يتسلّح بسلاحه ويستعدّ بعدّته. وهذا أمر لا خيار لنا فيه، بل هو محتومٌ علينا شئناً أم أبينا!.

قد يسأل هنا سائل: أليسَ في مقدورها أن نأخذ من الحضارة الجانب العلمي والتقني ونترك الجوانب الأخرى التي هي سيّئة؟!.

يجب أن لا ننسى أن الحضارة لا تخضع للانتقاء والاختيار على نحو ما يفعل أحدنا عند شراء الفاكهة من البقّال، إذ هو يلتقط الجيّدة منها ويترك الرديئة. إن من طبيعة الحضارة أنها تأتي كلاً لا يتجزأ، أي إنها تأتي بمحاسنها ومساوئها معاً.

ليس في مقدور أية أمّة من الأمم أن تضع على حدودها حراساً يقفون في وجه الحضارة القادمة فيسمحون بدخول الجوانب الحسنة منها ويمنعون الجوانب السيئة من الدخول.

إن العالم اليوم أصبح بمثابة قرية كبيرة يختلط الحابل بالنابل فيها، فإنّ وسائل النقل والاتصال الحديثة وصلت إلى درجة لا يمكن إيقافها عند حدّ معيّن، وهي في تصاعد مستمر يوماً بعد يوم.

يُقال إنّ الفرد في القرن القادم أو الذي بعده سيكون لديه صاروخ يحمله إلى أقصى الأرض في دقائق معدودة، وأنّه سيحمل في جيبه هاتفاً[2] في مقدوره

---

(1) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

(2) يقصد الهاتف الخلوي (الموبايل) وقد انتشر في العراق بعد رحيل الوردي بسنوات قليلة، كما انتشر الحاسوب الذي تستطيع ربطه بالانترنت فيعطيك أي معلومة تريدها في ثوان.

مخاطبة أي إنسان ورؤيته، وأنه سيملك إلى جانبه حاسوباً يمكن أن يعطيه أية معلومة يطلبها في أية لحظة[1]، الخ...

إن هذا قد يعتبره (بعضنا)[2] مستحيلًا على نحو ما كان آباؤنا يعتبرون الطائرة والمذياع والتلفاز، ولكنه آت لا ريب فيه، ومعنى هذا أنّ الذي يريد الأخذ بأسلوب الانتقاء الحضاري سوف لا يبقى له مكان في هذه الدنيا، وهو مخيّر بين أن ينجرف مع التيار أو أن يسحقه التيار.

إنّي أتذكّر عام 1924 عندما نشب الصراع في بغداد بين دعاة السفور والحجاب[3] وكان أكثر الناس من دعاة الحجاب وكانوا يعدّون السفور مفسداً للأخلاق ومن وسائل الاستعمار لإضعاف الأمة[4]، وقد كنت في ذلك العام تلميذاً في المدرسة الابتدائية وكان المرحوم عوني بكر صدقي من معلمينا في

---

(1) وهذا أيضاً تحقق بالحواسيب التي انتشرت بعد رحيل الوردي بسنوات والتي تربط بشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) وكذلك الحواسيب المحمولة (اللابتوب)، والتي يمكن ربطها بالشبكة المذكورة فتعطيك أية معلومة تريد.

(2) في الأصل: البعض منا.

(3) يقول عبد الله حميد العتابي في مقال له في جريدة (الصباح) البغدادية يوم 8 آذار/ مارس 2015 إنه بحكم التطور الذي طرأ على المجتمع العراقي اخذت الكثير من القيم الاجتماعية بالتراجع، اذ اخذ السفور يطل برأسه بين الطالبات وان كان خجولاً في بادئ الامر، الا ان المرحلة اللاحقة، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية وخمسينيات القرن الماضي شهد السفور انتشارا كبيراً في المجتمع العراقي، واصبح خروج المرأة من الدار لطلب العلم امراً طبيعياً تماشياً مع التطور الذي اصاب المجتمع العراقي، وإن الافكار التنويرية لتحرير المرأة وتعليمها تحولت فيما بعد الى ما يعرف في أدبياتنا معركة الحجاب والسفور التي أطلق شرارتها الأولى الشاعر جميل صدقي الزهاوي بنشره مقالة في جريدة المؤيد المصرية العام 1910 وحملت عنوان: (المرأة والدفاع عنها)، وعندما وصلت مقالة الزهاوي إلى بغداد ونشرتها المجلة الدينية (تنوير الافكار)، ثار الرأي العام المحافظ ضده وطافت في أزقة بغداد جماهير غفيرة واحتشدت امام سرايا الحكومة، مطالبة الوالي ناظم باشا بعزل الزهاوي من وظيفة التدريس في مجلة الاحكام العدلية التابعة لمدرسة الحقوق البغدادية، ودفه ذلك الزهاوي إلى التنصل به عن مقالته السابقة، مبينا انها مدسوسة عليه من احد المغرضين. والواقع إن هذه المعركة وإن كان الزهاوي أشعلها في بدايات القرن الماضي إلا أنها استمرت إلى ما بعد منتصفه، وقد أدركت خيوطها الأخيرة.

(4) تقول صبيحة الشيخ داود في كتابها (أول الطريق): «إن أحد الرافضين للسفور وتحرير المرأة كتب مقالاً عن السفور نشرته له إحدى الصحف البغدادية القديمة قال فيه إن السفور من (خلق المستشرقين الذين يستهدفون به إفساد الأخلاق) وآخر كتب أيضاً (كيف يمكن أن يحدث السفور في بلد كبلادنا وهو بلد إسلامي يأمر دينه أن تقرَ النساء في بيوتهن ولا يتبرجن تبرج الجاهلية».

المدرسـة، وكان هو أحد الكتاب المجددين الذين كانوا يدعون إلى السـير في طريق الحضارة الحديثة، والذين كانوا قليلين جدّاً في تلك الأيام.

كان عونـي بكـر صدقـي مـن دعـاة السـفور، وقد غضب منه أحـد الوعاظ فحرّض العوام عليه وأخذ العوام يبحثون عنه بغية تأديبه، ولكنهم لم يعثروا عليه، بل عثروا على شخص آخر يشبهه في ملامحه فأشبعوه ضرباً وصفعاً وكفخاً..

ومرّت الأيام بعد ذلك، فرأيت بنات هذا الواعظ وحفيداته وزوجات أبنائه قد أسـفرن عن وجوههن كسـائر النسـاء. وهو قد شـاهد ذلك قبل موته ولم يقل شيئاً.

إنّي لا ألوم هذا الواعظ فيما فعل أولاً وما فعل أخيراً، فهو قد انجرف مع التيار على نحو ما انجرف الكثيرون غيره، ولو كنّا في مثل ظروفه لصرنا مثله.

تـروي المرحومـة صبيحـة الشـيخ داود[1] فـي كتابهـا «أول الطريق»[2] قصة رجـل مـن المحافظيـن كان يمنـع ابنته من مغادرة بيتها إلى البيوت المجاورة إلا إذا كانت ملفعة بعباءتين.

ثـم مـرّت بـه الأيـام فوجـد ابنته قد أسـفرت عن وجهها كغيرهـا من بنات محلتهـا وطبقتهـا. وعندمـا تخرّجت هـذه البنت من الثانوية وأرادت الدخول في

(1) من رائدات النهضة النسوية في العراق، الحقوقية الأولى في العراق ومارست المحاماة، والقاضية الأولى في الوطن العربي، وصاحبة أول صالون أدبي في بغداد كان يرتاده مساء كلّ خميس نخبة من أعلام الفكر والأدب والسياسة والقانون شبيهاً بصالون الكاتبة العربية (مي زيادة).. ولدت في بغداد عام 1915 وقيل في عام 1910، ولما أسست أول مدرسة ابتدائية للإناث كانت أول طالبة تلتحق بها عام 1920. وفي مهرجان أدبي أقيم في بغداد عام 1923 لإحياء ذكرى سوق عكاظ ظهرت صبيحة الشيخ داود لتمثل دور الشاعرة العربية «الخنساء» وقد أثار ظهورها هذا ثائرة الرجعيين والمتزمتين حتى أن ساطع الحصري كتب في مذكراته: (إن رئيس الوزراء يومذاك غضب غضباً شديداً لأن فتاة مسلمة تسهم في الحفل، ولما قيل له إن البنت صغيرة ولا يزيد عمرها على السابعة استمر في غضبه وصاح: «هذا لا يجوز ولو كانت رضيعة»)..

(2) كسرت صبيحة الشيخ داود الطوق الاجتماعي والتقاليد البالية التي كانت تكبل المجتمع العراقي وتحرّم على المرأة العراقية التمتع بحقوقها الشرعية والإنسانية.. إذ كانت تلك التقاليد تعد المرأة «عورة» و«ناقصة العقل» و«إحدى الحلي» ووصفتها بالمثل المشهور «ألف ولد مجنون ولا بنت خاتون».. ومن يقرأ كتابها المذكور يجد ذلك واضحاً. محمد علي الكاتب - مجلة ألف باء - العدد (1466) في 30 تشرين الأول 1996.

إحـدى الكليّـات المختلطـة أخذ والدها يسـاعدها في ذلـك بمقدار جهده. ولما سـئل عن الفرق الكبير بين موقفه هذا وموقفه القديم هزّ رأسـه ضاحكاً وقال: «ذاك زمان.. وهذا زمان»!..

إنّـا يجـب أن نضـع هـذه العبارة أمام أبصارنا دائماً فكلّ زمان له مقتضياته وظروفـه. وللإمـام علـي بـن أبـي طالب كلمة جديـرة بالذكر هنا هـي قوله: «لا تعلّموا أولادكم على عاداتكم فإنّهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم».

العقل

العقل المشلول

في مساء 22/ 2/ 1989 ألقى الدكتور الوردي في قاعة اتحاد الأدباء محاضرة عنوانها «طبيعة العقل البشري»، وكان الوردي قد تطرق إلى هذا الموضوع كثيراً في كتبه ومقالاته السابقة، ذلك أن هذا الموضوع كان من صميم اختصاصه، رحمه الله.

وطالما اعتذر الوردي إلى القراء لكثرة التكرار في موضوع العقل حيث أنهم يطلبون منه مواصلة الحديث فيه ويقولون إن موضوع العقل مهم جدّاً لنا في حياتنا العملية، ومهما كرر الوردي فيه فنحن لا نشبع منه.

ويفسر الوردي هذا الاهتمام من القراء بموضوع العقل بأننا في بيئتنا الشرقية قد نشأنا على تمجيد العقل وعلى الثقة المطلقة به، وهذا جاءنا من الإغريق القدماء منذ خمسة وعشرين قرناً، وظل المفكرون يلهجون به ويتجادلون فيه جيلاً بعد جيل، حتى أصبح في نظر الناس كأنه من الحقائق المطلقة التي لا شك فيها. وقد انتقلت هذه النظرة إلى العوام عندنا، فأنت لا تكاد تتحدث إلى أحد العوام في موضوع غير مألوف لديه حتى يسرع إلى تكذيبه قائلاً: «إن الله أعطانا العقل لكي نميز به الأمور»[1].

ويعتقد الوردي أن العقل نزل عن عرشه الذي كان متربعاً عليه قديماً، وأن البحوث الحديثة اكتشفت في العقل البشري عيوباً كثيرة. فالعقل الآن لم يكن كما كان في الماضي خالياً من كلّ عيب على نحو ما كان المفكرون القدماء يعتقدون به.

وقال الوردي مرّة: إنّ هذا هو الرأي السائد الآن، في الأوساط العلمية في الخارج ولكنه لم يصل بعد إلينا إلا ضمن نطاق محدود جدّاً. ويبدو أن أبناء

(1) وجدت الكثير من العوام عندما يريدون تكذيب أمر يقولون: (حدّث العاقل بما لا يليق فإن صدّق لا عقل له)، وما لا يليق هو الأمور التي لم يألفوها وإن كانت صحيحة.

الجيـل الجديـد يتطلعـون إلى معرفة هذا الموضـوع والتعمق فيه، وهم في ذلك على النقيض من أبناء الجيل الذي قبلهم، فهؤلاء ما زالوا يسيرون في تفكيرهم على المنهج العقلاني القديم ولا يريدون التحول عنه.

كان الوردي يرى أن العقل البشـري ليسـت وظيفته إدراك الحق والحقيقة كما كان المفكرون القدامى يعتقدون، بل إن وظيفته هي مسـاعدة الإنسـان في تنازع البقاء. ومعنى هذا أنّ وظيفة العقل للإنسـان في تنازع البقاء. هي كوظيفة الخرطوم للفيل والمخلب للأسد والسم للعقرب والقرون للخروف.

لقد سـمعت الوردي يردد في أكثر من مجلس من مجالسـه التي حضرتها، أن العقل بارع في ابتكار الوسائل أو جمع الأدلة التي تساعد الإنسان في التغلب على خصمه أو خصم الجماعة التي ينتمي إليها، وهو في الوقت نفسه عاجز أو مشلول تجاه الحقيقة التي لا تلائمه أو تلائم جماعته.

وكان الدكتور علي الوردي يرى أنّ العقل البشري يكون عاجزاً مشلولاً في خمس نواح هي:

1. التراثية.
2. الجهل.
3. العاطفة.
4. الأنوية.
5. المصلحة الخاصة.

وهو يفصل الحديث في هذه النواحي الخمس في الحديث الآتي[1].. ووراء هذا التفصيل قصة لولاها ما كتب الوردي ذلك.

فقد انتقد أحد القراء الدكتور علي الوردي ووصفه بالتناقض في أقواله ذاكراً قوليـن للـوردي فـي كتاباته عن العقل البشـري ومعتبراً هذين القولين متناقضين، فالـوردي فـي واحـدة مـن تلك الكتابات يقول إن عقل الإنسـان يكون عاجزاً أو مشـلولاً عنـد وجـود مصلحـة لـه في شـيء. ولكنه فـي واحدة أخـرى من تلك الكتابات يقول إن الإنسـان حين تكون له مصلحة في شـيء معين يركز تفكيره

(1) في الأصل: التالي.

على ابتكار الوسائل التي تمكنه من الحصول على ذلك الشيء.

وسأل ذلك القارئ الوردي: كيف يمكن أن يكون العقل عاجزاً مشلولاً وهو في الوقت نفسه يركز تفكيره على ابتكار الوسائل، التي تمكنه من الحصول على الشيء المطلوب.

وكانت إجابة الوردي لهذا القارئ هي: «أنّي قبل كلّ شيء لا أنكر وجود تناقضات كثيرة في أقوالي وكتاباتي، فأنا بشر كغيري من الناس لا بدّ أن أقع في التناقض من حيث أدري أو لا أدري. إنّ الذي ينَزّه نفسه من الوقوع في التناقض هو كالذي ينَزّه نفسه من الوقوع في الخطأ، فالتناقض هو كالخطأ محتوم في الإنسان لا مفر منه. أما التناقض الذي ذكره القارئ فليسمح لي أن أقول إنه لم يكن تناقضاً حقيقياً، بل هو تناقض ظاهري سببه سوء التعبير مني أو سوء الفهم منه، أو كلاهما».

وقال: «أحيل القارئ إلى نظرية جاء بها وليم جيمس في موضوع العقل البشري، وهي النظرية التي أميل إليها، ومفادها أن العقل البشري ليس المقصود منه التوصّل إلى الحقيقة المطلقة كما كان الفلاسفة القدماء يتصوّرون، بل هو بالأحرى عضو في الإنسان خلقه الله فيه لمساعدته في تنازع البقاء كما خلق الخرطوم للفيل، والمخلب للأسد، والسم للعقرب، والقرون للخروف، الخ..».

وأضاف الوردي: «إن الإنسان ضعيف في بدنه تجاه الحيوانات الأخرى، ولكن الله وهبه وسائل لتساعده في تنازع البقاء أهمها العقل، فالعقل إذن له وظيفة أساسية للإنسان هي مساعدته في تنازع البقاء. أما البحث عن الحق والحقيقة وما أشبه ذلك من الأقاويل التي كان الفلاسفة القدماء يتحذلقون بها فهي بعيدة عن طبيعة العقل».

ورأى «أن الإنسان لا يحب الحقيقة إلا إذا كانت له مصلحة فيها أو أية رابطة أخرى تربطه بها، وهو لا يكاد يرى الحقيقة مخالفة لتلك المصلحة أو الرابطة حتى ينبري لنقضها أو التشكيك فيها بكلّ وسيلة تتاح له، وهو يسعى للبحث عن الأدلة التي تؤيده في وجهة نظره».

وأوضح الوردي: «إني عندما قلت إن العقل يكون مشلولاً أو عاجزاً تجاه

المصلحة كنت أقصد أن العقل عندما تكون له مصلحة في شيء يركز كلّ تفكيره في ذلك الشيء وكيف يحصل عليه، أما في غير ذلك فإنه لا يفهم شيئاً ولا يريد أن يفهم شيئاً. وفي هذا مصداق للمثل العربي القديم القائل: (صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاها)».

وقال: «أنظر إلى فريقين من البشر وهما يتنازعان في مصاولة بالسلاح، أو في دعوى قضائية، أو في جدال طائفي، أو في غير ذلك.. ولنفرض أنك طلبت منهما ترك التنازع والاحتكام إلى العقل، فماذا سوف تكون نتيجة طلبك منهما؟!».

وأجاب الوردي: «إن العقل في هذا المجال عاجز أو مشلول، فكلّ فريق منهما حين يحتكم إلى عقله يتصوّر أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه، ولا يمكن حل التنازع بينهما إلا بأن يتغلب أحدهما على الآخر بالقوة، أو يتدخل فريق ثالث قادر على فرض حكمه عليهما. وبغير هذا يظل التنازع بينهما مستمرّاً وقد يتفاقم تدريجياً بمرور الزمن».

وقرّر الوردي: «إن القارئ له شيء من الحق في وصف قولي بالتناقض، فالواقع أن العقل تجاه المصلحة لا يكون عاجزاً بشكل مطلق، بل هو يكون شديد النشاط والإبداع في المجال الذي يوصله إلى تحقيق مصلحته، أما في غير ذلك فإنه يكون عاجزاً».

ونتابع الآن الوردي وهو يشرح بالتفصيل النواحي الخمس التي يكون العقل البشري عاجزاً مشلولاً فيها..

الشماع

حول العقل وطبيعة الإنسان[1]

إنّ رأيي في العقل معروف، وقد واصلت الكتابة فيه، مرّة بعد مرّة، منذ نحو أربعين سنة، حتى سئم القراء منه وضاقوا به ذرعاً. وقد جابهني أحد القراء منذ عهد قريب قائلاً: «تعيد وتصقل في نفس الموضوع، فإلى متى؟!»[2].

إنّ هذا القارئ قد نطق بالحقيقة التي يجب أن أعترف بها. وإنّي أريد أن أنتهز هذه الفرصة لكي أوضح موقفي من العقل ومن الطبيعة البشرية بوجه عام.

قلت في مناسبات سابقة، وأعيد القول هنا، إنّنا نشأنا على مفاهيم مغلوطة في موضوع العقل والطبيعة البشرية، وقد أدت هذه المفاهيم إلى كثير من الإضرار بنا وبمجتمعنا. ولا أكتم القارئ أنّي أنا من ضحايا هذه المفاهيم، فقد نشأت كغيري من أبناء جيلي عليها واعتدت النظر في الأمور من خلالها، وكان ذلك من الأسباب التي جعلتني أتورط خلال حياتي في أخطاء كنت في غنى عنها. وإنّي أحاول بمقدار جهدي أن أحذّر أبناء الجيل الجديد من مثل الأخطاء التي وقعت فيها قبلهم.

عندما ذهبت إلى الخارج في الأربعينات لدراسة علم الاجتماع وعلم النفس

---

(1) نشرت في جريدة الاتحاد العدد (109) في 6 شباط 1989.

(2) كان الوردي يرد في هذا الموضوع على قارئ كتب إليه ما نصّه: «نراك في كتاباتك تهاجم المفكرين العقلانيين وتنتقص من شأن العقل، وقد صدر لك في عام 1955 كتاب عنوانه «مهزلة العقل البشري» ولكنك تنسى أن العقل أعظم ما وهبه الله للإنسان وهو الذي أنتج هذه الحضارة الكبرى التي وصلت إلى القمر وسوف تصل إلى المرّيخ. فما تقول في الرد على ذلك؟ نرجو الجواب!». ومما يُذكر هنا هو أني شهدت الكثير من الجدل العنيف والنقاش الشديد في أكثر من مكان حول رأي الوردي في العقل، منها مناظرة دامت أكثر من ساعتين مع الفقيه الشيخ الدكتور عيسى بن عبد الحميد الخاقاني، وجرى جدل آخر عنيف في الموضوع نفسه مع الشيخ علي طهراني الذي عارض الثورة الإسلامية للخميني ولجأ إلى العراق خلال الحرب مع إيران.

الاجتماعي[1] انكشفت أمامي أمور لم أكن أعلم عنها شيئاً من قبل. واتضح لي أنّي كنت غارقاً في الأوهام مع الأسف الشديد.

كانت الأوساط العلمية في الخارج، حينذاك، قد برزت فيها اتجاهات ثلاثة كنّا، نحن في الشرق، غافلين عنها كلّ الغفلة، وهي كما (يأتي)[2]:

1. الاتجاه الذي بدأ به (وليم جيمس)[3] و(كولي)[4] و(ميد)[5] في موضوع العقل والأنويّة في الإنسان.
2. الاتجاه الذي بدأ به الأستاذ (راين)[6] في جامعة ديوك في موضوع (الباراسايكولوجيا) أو (علم الخارقية) كما أحب أن أسميه.

---

(1) علم النفس الاجتماعي فرع من فروع علم النفس يهتم بالسلوك الاجتماعي للفرد والجماعة وأهمية العلاقة الاجتماعية والتفاعلات في داخل الجماعة، ويرى كريتش وكريتشفيلد أنه يشمل جوانب سلوك الفرد فى الجماعة، ويرى مصطفى فهمي أنه يدرس سلوك الفرد في علاقته بالآخرين، أما بوينج فيعرفه بأنه دراسة الأفراد في صلاتهم البيئية المتبادلة دراسة تهتم بما تحدثه هذه الصلات البيئية من آثار على أفكار الفرد مشاعره وعاداته وانفعالاته، ولآخرين تعريفات أخرى له.

(2) في الأصل: يلي.

(3) وردت ترجمته سابقاً.

(4) جارلس كولي (1864–1929) فيلسوف وعالم اجتماع أميركي ألّف عدة مؤلفات أشهرها الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتماعي، والتنظيم الاجتماعي، والعملية الاجتماعية. تعتمد جميع آرائه الاجتماعية على نظريته العضوية التي تنظر إلى المجتمع كأنه كائن حي كبير يتكون من أجزاء مختلفة لكنها مترابطة ومكملة الواحدة للأخرى، ولكلّ جزء من الأجزاء وظائفه الأساسية التي يحتاجها المجتمع. انظر معجم علم الاجتماع، دار الرشيد للنشر – العراق، ص: 87، 1980.

(5) الفيلسوف الأمريكي «جورج هربرت ميد» (1863–1931م)، دِعامة من دعامات الفكر الفلسفي البرجماتي، الذي أسس اتجاها ومنهجًا برجماتيا جديدًا لم يتناوله أعلام الفكر البرجماتي في عصره.

(6) بروفيسور أمريكي جعلته جامعة (ديوك) في أمريكا مشرفاً على فرع خاص لدراسة القوى النفسية التي بدأت بشكلها التجريبي سنة 1930، وقد عد وقتها نقطة تحول في تاريخ الفكر البشري، وقد ألف راين كتباً عدة لخص فيها نتائج بحوثه فأثار ضجة كبرى في الأوساط العلمية، حيث جابه العلماء هذا الموضوع بشيء من السخرية والاستنكار أول الأمر، وقاومه كثير من الأساتذة والهيئات الجامعية اعتبروه نكسة في تطور العلم ورجوعاً إلى الخرافة والسذاجة البدائية، ولكن جامعة (ديوك) ثابرت على خطتها حتى أصبح هذا الموضوع اليوم موضوعاً تجريبياً محترما يشتغل فيه أساتذة من طراز عالمي، وتؤسس له المختبرات وتؤلف فيه الكتب الجامعية.

3. الاتجـاه الـذي بـدأ به (كارنيجي)[1] في موضـوع كيف تعامل الناس وكيف تنجح في معاملتهم؟[2].

إنّ هـذه الاتجاهـات الثلاثـة تناقض كلّ التناقض تلك المفاهيم التي نشـأنا عليهـا فـي مجتمعنـا وأضـرّت بنا، ولابدّ لي من الإشـارة هنا إلـى أنّ الناس في الغـرب قـد نشـأوا علـى مثل المفاهيم التي نشـأنا نحـن عليهـا، ولكنّهم أدركوا خطأهـم قبلنـا. وقد شـعرت أنّ الواجب يقضـي عليّ عند عودتي إلى الوطن أن أنبّه الناس إلى الخطأ في تلك المفاهيم.

في عام 1950 عدت إلى الوطن بعد إكمال دراسـتي، وكان ذهني مشـحوناً بالاتجاهات الثلاث التي ذكرتها. أضف إلى ذلك أنّي تعلّمت هناك أسـلوباً في الكتابة يختلف عن الأسـلوب الذي اعتدنا عليه في بلادنا وهو أسـلوب الألفاظ الرنّانة والتحذلق والمزاوجة.

لـم أكد أبدأ بالكتابة بعد عودتي إلى الوطن حتى صار النقد الشـديد يوجه إليّ من ناحيتين، من ناحية الأسلوب وناحية المضمون. فالأدباء من ناحية يريدون منّـي أن أحلّـق فـي عالـم التحذلـق والألفاظ الرنّانـة عالياً، وينتقدون الأسـلوب (التلغرافي)[3] الذي اتخذته. والآخرون من الناحية الأخرى يريدون مني أن أسير

---

(1) ديل كارنيجي (وُلد في 24 نوفمبر 1888 قرب ميزوري وتوفيَ في 1 نوفمبر 1955 في فوريست هيلز، نيويورك) كان مؤلفاً أمريكياً ومطور الدروس المشهورة في تحسين الذات ومدير معهد كارنيجي للعلاقات الإنسانية ولد عام 1888 وتوفي متأثرا بسرطان الدم على عكس ما أشيع عنه من أنه مات منتحراً وهذا ليس بصحيح. من أهم مؤلفاته كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» الذي ترجم إلى العربية وانتشر بنحو واسع في العالم العربي والإسلامي. تأثرت به مجموعة كبيرة من الكتّاب العرب والمسلمين وانتشرت كتب بعده مستوحاة من الفكر الغربي في تحسين الذات ولكن بقالب إسلامي مثل كتاب «لا تحزن» للداعية عائض القرني وكتاب «جدد حياتك» للشيخ محمد الغزالي. المصدر ويكبيديا.

(2) انتشر هذا كتاب (كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس) انتشاراً كبيراً في ستينيات القرن الماضي في العراق بطبعته العربية، وطُبع طبعات شعبية، وتهافت على قراءته الشباب أكثر من غيرهم، وأذكر أن الشباب كانوا يتواصون حول الكتاب فيما بينهم لقراءته.

(3) أخبرني الوردي، مرّة، أنّه تعلّم الأسلوب (البرقي) أو (التلغرافي) من الكاتب المصري سلامة موسى، ولم يُخف سلامة موسى إعجابه بأفكار الوردي في كتابه (مقالات ممنوعة)، ص 41 – مطبعة التقدم – القاهرة.

على نفس الخطّ القديم الذي سار الناس عليه قبلنا حيث أتّبع المفاهيم التقليدية في الثقة المطلقة بالعقل ومحاولة إصلاح المجتمع عن طريق الوعظ الطوبائي.

جوبهت بتهم متنوعة على مدى أربعين عاماً تقريباً فمن النقّاد من اتهمني بأنّي عميل للأجانب ومكلّف بهدم تراثنا العظيم، ومنهم من اتهمني بأني أطلب المخالفة من أجل الحصول على الشهرة، ومنهم من اتهمني بغير ذلك. وأسأله تعالى أن يبرئني من هذه التهم - في أواخر حياتي على الأقلّ![1].

قد يسألني سائل فيقول: لقد ذهب الكثيرون غيرك إلى الخارج للدراسة، ولكنهم لم يفعلوا مثلما فعلته أنت، فما هو السرّ في ذلك؟!.

مشكلتي أنّي درست في الخارج علم الاجتماع، وهذا من سوء حظّي، فقد كان من الأنفع لي أن أدرس علماً آخر كما فعل الآخرون.

المصيبة في علم الاجتماع أنّ الناس كلّهم، وحتى الأميين منهم، يتصوّرون أنفسهم أنّهم اختصاصيون فيه. فكلّ فرد من الناس يحسب نفسه مفكراً اجتماعياً من الطراز الأول، وهو مستعد لمجادلتك في أي موضوع اجتماعي وإن كان هو لا يعرف عنه شيئاً[2].

إنّ الناس اعتادوا أن لا يجادلوا ذوي الاختصاص في موضوع اختصاصهم إلا في علم الاجتماع. فهم مثلاً لا يجادلون الطبيب في موضوع اختصاصه، أو المهندس، أو الحقوقي، أو الفقيه، أو الكيمياوي، أو الفيزياوي، أو غيرهم. أما الاجتماعي فهم يسرعون إلى مجادلته وتفنيد آرائه وهم واثقون أنّهم على صواب وأنّه على خطأ.

أجريت في أحد الأيام تجربةً في أحد المجالس[3] التي أرتادها، وهو يضم نخبة من المثقفين. فعرضت عليهم نظرية اجتماعية جديدة لم يكونوا يعرفون عنها

---

(1) الواقع أنّ الاتهامات التي وجهت إلى الوردي كانت كثيرة ومتناقضة جداً، وقد جئنا على تفصيلات ذلك في كتابنا (خفايا من حياة علي الوردي).

(2) شهدت أميين يناقشون الوردي في علم الاجتماع' ولم يكن الوردي يُخفي تذمّره أمامي من هذه الحالة، وكان يقول: لو كنت طبيباً أو صيدلانياً أو مهندساً.. هل كان هؤلاء سيجادلونني هكذا؟!!

(3) يقصد مجلس الدكتور عبد الرزاق محيي الدين الذي خاض معه سجالاً مشهوداً في كتاب أسطورة الأدب الرفيع، وهذا المجلس كان يقام كلّ يوم أحد مساء في بغداد.

شيئاً من قبل، وكانت هي مخالفة للمفاهيم التي اعتادوا عليها. فانبرى بعض منهم[1] ينتقد النظرية ويذكر جوانب الخطأ منها واحداً بعد الآخر. وعندما قلت لهم إنّها نظرية قد اتفق عليها أكثر العلماء في الوقت الحاضر، أجابني أحدهم قائلاً: ثم ماذا؟ إنّ العلماء كثيراً ما يخطئون. ولمّا سألته عن المقياس الذي يميّز به الخطأ عن الصواب في النظريات العلمية، أجابني: «إنّه العقل!!».

الواقع أنّ هذا المثقف ليس نادراً بين مثقفينا، فإنّ الكثيرين منهم لا يزالون يعيشـون في قوقعتهم العقلانية القديمة حيث يعتقدون أنّ العقل هو مفتاح عام يصلح لفتح كلّ المغاليق ويفسر جميع القضايا.

إنّ هذا النمط من المفكرين، وهم الذين نسميهم «العقلانيين»، أخذ عددهم يتضاءل فـي الأوسـاط العلميـة والثقافية في البلاد المتقدمة. ويؤسـفني أن أقول إنّهم ما زالوا لهم دورهم النشيط في أوساطنا، فهم ينظرون إلى العقل على نحو ما كان ينظر إليه أفلاطون وأرسـطو، أو الفارابي وابن رشـد، غافلين عما يجري في العالم من تيارات فكرية جديدة.

قلـت مـراراً، وأعيـد القـول هنا، إنّ العقل البشـري بمقدار ما هو عظيم في قدرته على الإبداع والاختراع، هو ضعيف عاجز في النواحي الأخرى.

يجب أن لا ننسى أنّ الله منح العقل للإنسان لكي يساعده في تنازع البقاء، على نحو ما منح الخرطوم للفيل، والمخلب للأسد، والسمّ للعقرب، والقرون للخـروف، الـخ... ومعنـى ذلـك أنّ العقـل ليسـت وظيفتـه التوصّل إلـى الحقّ والحقيقـة كمـا توهّمـه العقلانيون القدماء، بل إنّ وظيفته هي مسـاعدة الإنسـان في تنازع البقاء. فالإنسان هو حيوان قبل أن يكون إنساناً.

إنّ الإنسان حين تجابهه مشكلة في حياته يبدأ بالتفكير في إيجاد حلّ لها. فهـو لا يطلـب الحـقّ والحقيقة بمقدار ما يطلب الحلّ لمشـكلته، وهذا هو سـرّ الاختراعات المدهشة التي أبدعها الإنسان عبر تاريخه الطويل. فهذه الاختراعات لم يكن المقصود بها التوصّل إلى الحقيقة المطلقة بل المقصود تغلّب الإنسان على أعدائه من الحيوانات الأخرى أو من بني نوعه من شرّ.

(1) في الأصل: البعض منهم.

إنّ أول اختراع اخترعه الإنسان في بداية تاريخه هو قطعة الحجر المدببة في طرف منها، وهي التي تسمى (Eulith) فهذه القطعة قد استخدمها الإنسان في قتال أعدائه أو في الصيد. ثم اخترع الإنسان العصا بعدئذ، ثم ربط بين العصا وقطعة الحجر بألياف استمدها من الأشجار، فصارت في يده سلاحاً عظيماً يقارب في أهميته القنبلة الذرية في عصرنا.

لا مجال هنا لذكر سلسلة الاختراعات التي أبدعها الإنسان في تاريخه الطويل. ويكفي أن نقول إنّ العقل البشري بارع كلّ البراعة في إبداع ما ينفع الإنسان في تنازع البقاء، غير أنّه من الجهة الأخرى عاجز كلّ العجز عن إدراك الحقيقة التي تخالف منفعته. انظر إلى البشر في وضعهم الحاضر، فهم وصلوا في مخترعاتهم إلى هذه الدرجة الهائلة التي نشهدها، ولكنّهم من الجهة الأخرى عاجزون عن إيجاد حلّ لحروبهم. فهم سيظلون يتحاربون ويتحاربون إلى ما شاء الله – مع الأسف الشديد!.

لكي نفهم طبيعة العقل البشري بوضوح نذهب إلى قاعات المحاكم. فكلّ من له قضية في محكمة يسعى جاهداً نحو جعل القاضي يحكم لصالحه وتراه يجمع الأدلة العقلية والنقلية للبرهنة على صحة دعواه. وحين يحكم القاضي في مصلحته يكون أعظم القضاة عدلاً ونزاهة، أما إذا حكم في غير مصلحته فإنّه يصبح ظالماً أو مرتشياً «لعنة الله عليه!».

إنّ القضاء مؤسسة اجتماعية ابتكرها البشر منذ قديم الزمان لكي يحلّ بها المنازعات التي تنشب بينهم. فقد أدرك البشر ببديهتهم أنّ المنازعات لا يمكن حلّها عن طريق مناشدة المتنازعين بالاحتكام إلى العقل، فإنّ كلّ فريق من المتنازعين حين يحتكم إلى عقله يعتقد جازماً أنّ الحق معه وأنّ الباطل مع خصمه. ولابدّ إذن من قيام مؤسسة لها قوة رادعة تحكم بين المتنازعين. وفي غياب مثل هذه المؤسسة يأكل الناس بعضهم بعضاً.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أنّ البشر حين نجحوا في حلّ المنازعات التي تقع بين الأفراد أو الجماعات المحلية، لم ينجحوا في حلّ المنازعات التي تقع بين الدول. فلم تظهر مؤسسة قضائية عالمية تملك القوة الرادعة التي

تستطيع أن تفرض أحكامها على الدول المتنازعة.

إنّ الأمم المتحدة في أيامنا هذه هي كعصبة الأمم السابقة لها لا تصلح لحلّ المنازعات الدولية، لأنّها لا تملك القوة الرادعة التي تجبر الدول المتنازعة على الانصياع لأوامرها. ولهذا فإنّ الحروب سوف تبقى مستعرة بين الدول إلى أن تقوم مثل هذه القوة العالمية الرادعة. ومن المؤسف أن نقول إنّ هذه القوة لن تقوم ما دامت الدول الكبرى تتنافس فيما بينها وكلّ واحدة تريد أن تكون كلمتها هي العليا.

هذه هي طبيعة البشر منذ خلقهم الله، وسيظلون كذلك حتى يوم يبعثون. فالبشر متنازعون بطبيعتهم، وهم يظلون يتنازعون ويتقاتلون ما داموا لا يجدون أمامهم قوة تردعهم.

إنّ هذا الكلام كررته على القراء عشرات المرّات على طريقة «يعيد ويصقل» ولكنّي لم أجد من يقبل به إلا القليلين فإلى متى؟!.

بين منطقين(1)

[وجه إليّ أحد القراء سؤالاً حول العقل، وهذا نصه:].

«أيها الدكتور علي الوردي، إنّك في تهجمك على العقل تُريد منّا أن نكون مجانين. فالعقل هو الذي يرشدنا إلى طريق الصواب في حياتنا العملية، وإذا تركنا دليل العقل كما تريد منّا أن نفعل، فأيّ دليل آخر يمكن أن نستعيض به في حياتنا؟! أفتونا مأجورين».

يبدو لي أنّ هذا السائل قد أساء فهمي، فإنّي عند انتقادي أو تهجمي على العقل لم أقصد إبعاده عن حياتنا نهائياً، فقد قلت مراراً، وأعيد القول هنا، إنّ العقل عظيم جدّاً، ولكن مشكلتنا معه هي أنّنا نستعمله في كلّ شيء حتى في النواحي التي اتضح علمياً أنّه عاجز وقاصر فيها..

كلّ ما أريد قوله في هذا الشأن هو أنّنا يجب أن نميز بين النواحي التي يكون العقل فيها عظيماً والنواحي التي يكون فيها عاجزاً قاصراً.. وإنّي لا أحب أن أعيد هنا ما كررته مراراً في مقالاتي وكتبي السابقة حول هذا الموضوع.. ولكني مع ذلك مضطر أن أذكر بإيجاز خلاصة ما توصّل إليه العلم الحديث فيه..

هناك منطقان أو منهجان للتفكير، أحدهما نسميه المنطق «الاستنتاجي» أو «العقلاني» والآخر نسميه المنطق «الاستقرائي» أو «العلمي».

ولا حاجة بنا إلى القول إنّ المنطق الاستنتاجي هو الذي كان سائداً في العالم منذ أن أنشأه الإغريق في القرن الخامس قبل الميلاد، أما المنطق الاستقرائي فهو الذي يسود الأوساط العلمية في العصر الحديث.

يمكن القول إنّ التقدم العلمي والتقني الذي نشهده في عصرنا هو نتاج المنطق الاستقرائي الحديث، فلو أنّ المنطق الاستنتاجي القديم ظل مسيطراً على الأذهان لما كان في مقدور البشر التوصّل إلى ما توصّلوا إليه من تقدم علمي وحضاري عجيب، ومن المؤسف أن نرى بعض متعلّمينا ومثقفينا ما

زالوا يجرون في تفكيرهم على المنطق القديم بالرغم من تشدقهم بالأفكار والمعلومات الحديثة.

لا أنكر أنّ المنطق القديم عندما بدأ به الإغريق كان يمثل ثورة على التفكير الذي كان سائداً في عصرهم. فقد كان البشر في العصور القديمة، وما زال الكثيرون منهم حتى يومنا هذا، يعيشون في عالم من الخرافات والأساطير التي لا يقبلها العقل. فنهض فلاسفة الإغريق لمكافحة هذا التفكير الخرافي، وأنشأوا منطقهم لهذا الغرض وهو المنطق الذي عرف بأسماء مختلفة كالمنطق الصوري، والشكلي أو الأرسطي.

إنّي تطرقت لهذا الموضوع في مجلة (الحضارة)[1] في عددها الصادر في أيار الماضي، وأشرت حينذاك إلى أنّ المنطق العقلاني الذي أنشأه الإغريق يعد حركة تقدمية بالنسبة إلى زمانه، ولكنه تحول بمرور الزمن إلى حركة رجعية، شأنه في ذلك شأن الكثير من الثورات والحركات التقدمية التي شهدها التاريخ، إنّه كان ثورة على التفكير الخرافي ثم صار فيما بعد عقبة تجاه التفكير العلمي.

لو درسنا تاريخ الفكر في القرون الوسطى لوجدنا المنطق العقلاني سائداً على عقول المفكرين في الغالب، فكان كلّ ذي رأي أو عقيدة يستخدم ذلك المنطق سلاحاً بيده ضدّ خصومه. إنّ المنطق العقلاني بعبارة أخرى صار مطية الأهواء وليس وسيلة للتوصّل إلى المعرفة النافعة.

إنّ هذا كان واضحاً في المجتمعات الأوروبية والإسلامية معاً في تلك القرون، وهذا هو الأساس الذي قام عليه علم الكلام في الإسلام، ومن الجدير بالذكر أنّ المفكرين المسلمين لم يكونوا كلّهم من هذا النمط، فقد ظهر بينهم مفكرون عديدون حاربوا المنطق العقلاني أو انتقدوه وأظهروا عيوبه، كان من بينهم الغزالي[2]

---

(1) راجع ملاحق هذا الكتاب.

(2) الغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الشافعي الطوسي ولد في مدينة طوس في خراسان في حدود عام 450هـ/ 1058م. عالم وفقيه ومتصوِّف إسلامي، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

وابن تيمية[1] وابن خلدون.. وقد يصح أن نعتبر هؤلاء من رواد الثورة المنطقية الحديثة التي دعت إلى تبني منطق الاستقراء، وقد شرحت ذلك في كتابي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) الذي صدر في القاهرة عام 1962.

(يواجهنا هنا السؤال الآتي:) ما هو العيب الأساسي في المنطق العقلاني وهو العيب الذي جعل هذا المنطق سلاحاً بيد الفرق المتنازعة تتجادل به دون أن تصل في جدلها إلى نتيجة حاسمة؟..

عيب هذا المنطق أنه استنتاجي، أي أنه يستنتج الأفكار التي يريدها من كلّيات عقلية عامة، وهي الكلّيات التي كان أصحاب المنطق العقلاني يعتبرونها بديهية اتفق على صحتها العقلاء ولا يجوز الشك فيها. وهذا هو الذي جعل المناطقة القدامى حين يبدأون مقالاً لهم يقولون في مقدمته: «مما اتفق عليه العقلاء» أو «مما لا شك فيه» أو «مما لا يتجادل فيه اثنان» أو ما أشبه به. وما زالت هذه العبارة مستعملة لدى الكتاب والمؤلفين حتى يومنا هذا..

تبين الآن علمياً أن لا وجود للحقائق المطلقة، أو الكلّيات العقلية العامة، في هذه الدنيا.. فإنّ ما يعده الناس في عصر من العصور من الحقائق المطلقة ليس سوى مألوفات اعتادوا عليها واعتبروها كذلك، وهي قد تنقلب في عصر آخر إلى أوهام.. أو أباطيل لا أساس لها من الصحة.

أذكر فيما يلي قصة واقعية جرت لي في الإسكندرية بمصر في تموز عام 1969، وقد ذكرتها في مناسبة سابقة ولا بأس أن أذكرها هنا مرّة أخرى لأنها تصلح أن تكون نموذجاً للجدل الذي ينشب بين الناس على أساس المنطق الاستنتاجي القديم.

---

(1) ابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، تقي الدين أبو العباس، الملقب بشيخ الإسلام ولد في 661 هـ/ 1263م وهو أحد علماء المسلمين. ولد في بلدة حران في الشمال الشرقي من بلاد الشام في جزيرة ابن عمرو بين دجلة والفرات. وحين استولى المغول على بلاد حران وجاروا على أهلها، انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة 667 هـ/ 1269م، فنشأ فيها وتلقى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها. وقدم مع والده إلى دمشق وهو صغير. قرأ الحديث والتفسير واللغة وشرع في التأليف من ذلك الحين. بَعُدَ صيته في تفسير القرآن وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل وكان من مذهبه التوفيق بين المعقول والمنقول.

خلاصة القصة أني كنت حينذاك في الإسكندرية وقد اعتدت أن أقضي بعض الوقت في الجلوس إلى شخص أعرفه هناك، وهو يملك دكّاناً لبيع السلع المتنوعة بالقرب من محل إقامتي. وكان هذا الشخص له أصدقاء يرتادون دكّانه ويجلسون معه لتبادل الحديث فيه. كانوا جميعاً من الأميين أو أنصاف المتعلمين، وكنت أستفيد من التحدث إليهم والمناقشة معهم لما في ذلك من دراسة عملية للتفكير البشري كما هو في الواقع لا كما يتحذلق به المفكرون الطوبائيون.

جئت إليهم في صباح أحد الأيام لأبشرهم بصعود أول إنسان إلى القمر[1]، وكان هذا الخبر قد أذيع في الليلة السابقة ولكنهم نظروا إليّ مستنكرين قولي ومتعجبين من تصديقي لهذا الخبر الذي هو غير معقول في نظرهم ولا يمكن أن يصدق به إنسان له ذرة من العقل حسب قولهم. فقلت لهم: لابدّ أنكم شاهدتم في التلفزيون أمس صورة هبوط الرجل على سطح القمر، فما قولكم في هذه الصورة؟ فانبرى أحدهم في الرد علي قائلاً: إذا كانت الصورة التي ظهرت في التلفزيون حقيقية وليست مصطنعة فهي تدل على أن أرض القمر هي كأرضنا مكونة من التراب، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يسقط التراب علينا من القمر؟!.

أخذت أتابع المناقشة معهم لكي أتعرف على أدلتهم الأخرى، فقلت لهم إن التراب لا يسقط علينا من القمر تحت تأثير قانون الجاذبية، فليس هناك فوق وتحت في الفضاء فنحن نرى القمر فوقنا في السماء، والذين في القمر

(1) جرى هذا الحدث التاريخي في 21 تموز من عام 1969، فبعد أن انفصلت المركبة القمرية عن سفينة القيادة أبولو 11، هبطت بملاحي الفضاء نيل أرمسترونغ (مولود عام 1930) وأدوني ألارين (مولود عام 1930 أيضاً) على سطح القمر. وكان أرمسترونغ أول إنسان يضع قدمه على جرم سماوي وشاهد مئات الملايين من المتفرجين على شاشة التلفزيون كيف استخدم الرائدان الأجهزة الخاصة لالتقاط نماذج عدة من الأتربة والصخور القمرية، ووضعا بعض الآلات الخاصة لتكمل أبحاثهما بعد العودة إلى الأرض. ثم التحقت بالسفينة الأم، التي كان يقودها ميكايل كولينز، وبلغت الأرض من دون متاعب تذكر. وهكذا تحققت المغامرة البشرية الأكثر جرأة في تاريخ الإنسانية. ولما كان من عادة الوردي أن يستطلع آراء الناس البسطاء في كلّ خبر جديد أو ظاهرة جديدة فقد توجه إلى أولئك الإسكندرانيين لاستطلاع رأيهم في هذا الحدث المهم.

يرون الأرض فوقهم في السماء كذلك. فالأرض لها جاذبيتها والقمر له جاذبيته، والإنسان الذي يقف على الأرض يعتبر ما تحت قدمه (تحت) وما فوق رأسه (فوق) وكذلك يفعل الذي في القمر.

إن هذه الأدلة التي جئت بها لم تلق قبولاً منهم، بل لقيت استهزاء أو استنكاراً، وقال أحدهم وهو يخاطبني بلهجة الناصح: «إن الله أعطانا العقل لكي نميز به الأشياء! القمر فوق ونحن تحت!». ثم جاء بمثل واقعي هو المؤذن الذي يصعد إلى المئذنة، فهو عند صعوده إلى المئذنة يرانا تحته ونحن نراه فوقنا. فالفوق فوق والتحت تحت.. ماذا تقول؟! إن الله أعطانا العقل لنفكر به!!».

ولم أجد تجاه هذه الأدلة القاطعة التي أوردها سوى الإذعان، واعتذرت لهم عن تصديقي بذلك الخبر الذي لا يقبله العقل، وشكرت تنبيههم لي[1].

إن هذه المجادلة التي ذكرتها آنفاً لا تختلف في فحواها المنطقي عن أية مجادلة تنشب بين الناس اعتماداً على الكلّيات العقلية العامة، أو الحقائق المطلقة. ولا فرق في ذلك بين المتعلمين والأميين.

فإن أولئك الأميين الإسكندرانيين اعتمدوا في جدلهم على حقيقتين هما من الحقائق المطلقة التي لا شك فيها في نظرهم: الأولى هي أن التراب الموضوع على سطح معين لابدّ أن يسقط إلى الأسفل إذا انقلب هذا السطح. أما الثانية فهي أن الذي يرتفع عالياً في الجوّ يرانا تحته ونحن نراه فوقنا.

ويجب أن نعترف أن هاتين الحقيقتين لا يمكن الشك في صحتهما في نظر من لا يعرف قانون الجاذبية، ومعنى هذا أن الأميين الإسكندرانيين كانوا محقين في جدلهم ونحن الذين نعرف قانون الجاذبية قد نصبح مثلهم تجاه من يعرف قانوناً آخر من قوانين الكون لا نعرفه.

إن قوانين الكون وأسراره لا تحصى، والعلم يكتشف في كلّ يوم شيئاً جديداً منها، وهو لا يزال في أول الطريق من ذلك وإن كثيراً من الحقائق التي نثق بصحتها في أيامنا قد تصبح مغلوطة في أيام قادمة. وفي ذلك مصداق

(1) لا حاجة إلى القول إن الوردي يسخر في هذه السطور من أولئك الأميين وأنصاف المتعلمين الذين التقاهم في الإسكندرية.

قوله تعالى: ﴿... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1]، ﴿... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2].

خلاصة ما نريد قوله في هذا الصدد هي أن الحقائق المطلقة التي كان المفكرون القدامى يستندون عليها في مجادلاتهم ليست مطلقة، بل هي نسبية، ولهذا نجد العلم الحديث حين يريد دراسة ظاهرة من ظواهر الكون أو النفس أو المجتمع لا يلجأ إلى المجادلة كما كان القدامى يفعلون، بل هو يبحث في الظاهرة نفسها حيث يحاول إخضاعها للتجريب أو الدراسة الموضوعية بغض النظر عما إذا كانت مطابقة للحقائق المألوفة أو مخالفة لها.

أودّ أن أقصّ للقراء قصّة واقعية أخرى تشبه تلك التي حدثت لي في الإسكندرية، وهذه القصة حدثت للمرحوم جدّي ولكنه كان الغالب فيها بينما كنت في الإسكندرية أنا المغلوب.

ففي عام 1910 ذكرت جريدة كانت تصدر في بغداد خبراً مفاده أن (الأورباويين) اخترعوا عربة تطير في الهواء، وهي التي سميت فيما بعد (طيارة)، وفي تلك الأيام جاء إلى جدّي جماعة من أصحابه يذكرون له هذا الخبر العجيب عن العربة التي تطير في الهواء، فوجّه جدّي اللوم إليهم لتصديقهم بهذا الخبر الذي لا يقبله العقل وأخذ يشرح لهم الدليل الذي يجعل طيران العربة في الهواء مستحيلاً. وسألهم قائلاً: «من أيّ شيء صنعت هذه العربة التي تطير في الهواء كما تقولون! أليست مصنوعة من الخشب والحديد كغيرها من العربات؟!» ثم أشار جدّي إلى مطرقة كانت مطروحة إلى جانبه وقال لهم: «هذه المطرقة المصنوعة من الخشب والحديد هل في مقدورها أن تطير في الهواء؟». فوافقوا على صحّة رأيه، واعتبروا خبر الطيّارة مستحيلاً. غير أنهم لم تمض عليهم سوى خمس سنوات حتى شاهدوا بأم أعينهم طيّارة محلقة في الجو وتقذفهم بالقنابل.

إن جدّي لا لوم عليه فيما قال، فهو قد جرى في تفكيره على نفس المنطق

---

(1) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

(2) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

الاستنتاجي الذي جرى عليه المفكرون قبله، وهو قد عاش في عهد لم يكن المنطق الاستقرائي الحديث معروفاً فيه. إن اللوم في الواقع لا يقع إلا على هؤلاء الذين يسمون أنفسهم مثقفين في أيامنا، وقد حصلوا على الشهادات العالية، غير أنهم ما زالوا يجادلون على منوال ما كان القدماء يفعلون. وأرجو من القارئ الذي لا يصدق بقولي هذا أن يذهب إلى بعض مجالس المثقفين[1] عندنا ويشهد المجادلات التي تنشب فيها.

وإني أرجو هنا أن لا يذهب القارئ إلى الظن في أن جميع مجالسنا هي من هذا النوع، فالواقع أن بعض مجالسنا لا تقلّ من حيث نضوجها الثقافي عن مجالس المجتمعات المتقدمة، وإني أشهد أني حين أحضر هذه المجالس أحصل منها على فوائد تاريخية واجتماعية غير قليلة.

---

(1) كان الوردي يواظب على حضور المجالس البغدادية مثل مجلس الشعرباف، الذي يعقد مساء كلّ خميس، ومجلس الخاقاني الذي يعقد مساء كلّ اثنين، ومجلس عبد الرزاق الهلالي الذي يعقد صباح كل جمعة، ومجلس الدكتور عبد الرزاق محي الدين الذي يعقد مساء كل ثلاثاء، ومجلس الشاعر محمد جواد الغبّان الذي يعقد مساء كلّ أحد.. وغيرها الكثير.

التراثية

أقصد بالتراثية[1] ما يسمى في الاصطلاح العلمي (Culture)، ومعناه مجموعة المعتقدات والقيم والتقاليد والعادات والمألوفات التي يتميز بها مجتمع عن آخر، والتي ينشأ عليها الإنسان منذ طفولته.

إنّ الإنسان حين ينشأ في تراثية معينة يصبح كالذي يقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي، فهو يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة المعتقدات والقيم التي نشأ عليها حتى لو كانت هي في حد ذاتها سخيفة أو مضرّة أو غير معقولة. وبعبارة أخرى: إن الإنسان تحت تأثير التراثية التي ينشأ فيها يخضع لتنويم يمكن أن نسميه (التنويم الاجتماعي)[2]. ومعنى ذلك أن عقل الفرد الذي ينشأ في تراثية معينة يصبح مشلولاً لا يفهم الدنيا إلا من خلال القوالب الفكرية التي أوحى بها إليه مجتمعه المحلي منذ طفولته.

إنّ التنويم الاجتماعي يظل مسيطراً على عقل الفرد ما دام الفرد قابعاً في

---

(1) التراثية هي ما يسمى في علم الاجتماع (culture)، أي مجموعة المعتقدات والأعراف والتقاليد والقيم السائدة في مجتمع ما. فالإنسان تحت تأثير التنويم الاجتماعي ينظر في الأمور من خلال التراثية التي نشأ فيها ويعدّها معيار المعتقدات الصحيحة والأخلاق الفاضلة. وهو تصيبه الدهشة الشديدة حين يسمع عن أخلاق ومعتقدات أو أخلاق مختلفة في تراثية أخرى، فهو لا يدري، كما كان الوردي يكرر، أنه لو كان قد نشأ في تلك التراثية الأخرى لصار مثل غيره من الناس الذين نشأوا فيها.

(2) التنويم الاجتماعي يجمد قدرات العقل ويعمي الذهن عن ملاحظة المفارقات أو اكتشاف السوءات ويستبعد الشك ويحول دون المراجعة ويديم التعلق والغبطة والاستسلام وكما يقول الوردي: (وهنا يجب أن لا ننسى أن الإنسان في تعصبه التقليدي لا يخضع لتفكيره المنطقي الواعي بل هو يخضع لدافع لاشعوري لا إرادة فيه ولا اختيار وقد يصح القول إن الإنسان في حياته الاجتماعية يخضع لتنويم شبه مغناطيسي من بعض الوجود وهو الذي يمكن تسميته التنويم الاجتماعي فالإنسان يظل خاضعاً لهذا التنويم ما دام قابعاً في بيئته الاجتماعية التي نشأ فيها). إن المجتمع يبقى محكوماً بالتناسل الثقافي جيلاً بعد جيل. أما الأفراد فهم محكومون بالواقع الاجتماعي الذي صاغ عقولهم وشكل عواطفهم وحدد أسلوب حياتهم ونقلهم من القابليات المطواعة المفتوحة إلى ماهيات مصوغة ومحددة ومغلقة.

مجتمعه المحلي لا يفارقه، وهو لا يكاد يتصل بمجتمعات أخرى عن طريق السفر أو القراءة أو الاختلاط حتى يبدأ التنويم بالانقشاع عنه قليلاً أو كثيراً وكلّما كان الفرد أكثر اطلاعاً وأكثر ذكاء كان انقشاع التنويم الاجتماعي عنه أكثر.

خذ على سبيل المثال فرداً يعيش في قرية بدائية منعزلة، فإن التنويم الاجتماعي فيه يكون على أشده ومن المستحيل أن تقنعه بصحة رأي أو عقيدة مخالفة للتراثية التي نشأ فيها مهما كان الدليل العقلي الذي تقدمه إليه واضحاً[1]، وهذا الفرد لو أخذ من قريته فجأة وجيء به إلى مدينة كبرى من مدن العالم المتحضّر لأصيب بصدمة نفسية هي التي تسمى علمياً «الصدمة التراثية» «Culturalsnock».

من الظواهر الاجتماعية التي تدل على تأثير التنويم الاجتماعي في عقل الإنسان هي مقاومة الناس للأنبياء والمصلحين، وهذه ظاهرة تلاحظ في كلّ زمان ومكان ولا يمكن أن يخلو منها أي مجتمع من المجتمعات البشرية.

إن كلّ نبي أو مصلح لا بد أن يقاومه أكثر الناس، ولا يؤيده في بداية دعوته إلا قليل جداً من الناس، وقد أشار القرآن إلى هذه الظاهرة في عدد من آياته حيث وصف الناس عند مقاومتهم للأنبياء بأنهم يتبعون المبدأ القائل:

---

(1) يصف وليم جيمس العقل البشري بأنه متحيز بينما يصفه الوردي بأنه عاجز أو مشلول، وقد اعترف الوردي مرة أن وصف وليم جيمس للعقل البشري أكثر دقة من وصفه هو له، فالعقل يتحيّز في نظرته إلى الأمور، وهو في بحث دائم عمّا ينفع صاحبه وعما يدرأ الضرر عنه. ولكن الوردي أضاف نقطة غفل عنها وليم جيمس، فالإنسان ليس كالحيوان المفرد الذي ينازع غيره من أجل البقاء، بل هو عضو في مجتمع وينشأ في تراثية اجتماعية تجعله يعتقد بصحتها اعتقاداً جازماً. ولهذا نجد عقل الإنسان متحيزاً نحو التراثية التي نشأ فيها، وهو يبحث عما يؤيدها وعما ينقض التراثية المخالفة لها. ويفسر الوردي ذلك بأن الإنسان لا تهمّه مصلحته الخاصة وحدها، بل تهمّه مصلحة الجماعة التي ينتمي إليها. إن تنازع البقاء في الإنسان يختلف عن تنازع البقاء في الحيوان، فالحيوان له صفة واحدة هي أنه فرد يريد أن يعيش، بينما الإنسان له صفتان إذ هو فرد بالإضافة إلى كونه عضواً في مجتمع فهو من جهة يتعصب لنفسه تجاه خصومه في داخل مجتمعه، وهو من الجهة الأخرى يتعصب لمجتمعه تجاه المجتمعات الأخرى، وفي أحد حواراتي معه قال: إن الدليل العقلي لا يؤثر في إقناع الانسان إلا إذا كان منسجماً مع العوامل اللاشعورية فيه كلها أو بعضها. وكلما كان انسجام الدليل مع تلك العوامل كان تأثيره في الإقناع أقوى. ولا يمكن أن يكون هناك دليل قوي واضح، أو على درجة واحدة من الوضوح، في نظر الناس جميعا.

﴿... وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[1].

ذكر المؤرخون أن النبي محمداً (ص) ظل يدعو قومه إلى عبادة الله في بداية الدعوة طيلة تسع سنوات، فلم يؤمن بدعوته سوى أربعين شخصاً. أما الباقون من أفراد المجتمع فقد ظلوا متمسكين بالعقائد التي نشأوا عليها منذ طفولتهم، أي بالعقائد التي وجدوا عليها آباءهم كما وصفهم القرآن، وصاروا يعتدون على النبي وأصحابه ويضطهدونهم[2].

والملاحظ أن الناس بعد أن يقاوموا الدعوة الجديدة ويضطهدوها في بداية أمرها يدخلون فيها أخيراً حيث تصبح جزءاً من تراثيتهم.

وعند هذا قد يظهر في الناس مصلح يريد تنقية الدعوة من التحريف الذي طرأ عليها، وهذا المصلح سيجابه من الناس مقاومة تشبه تلك التي جابهها النبي من قبل.. وهكذا يسير التاريخ مرّة بعد مرّة.

إنّ الناس لا يقاومون الدعوة الدينية أو الإصلاحية فقط، بل هم يقاومون كذلك كلّ نظرية علمية جديدة تخالف التراثية، التي نشأوا عليها. إنّ ما فعله الناس تجاه غاليلو[3] وبرونو[4]..

---

(1) ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 23].

(2) تحضرني هنا طريفة للوردي يوم كان يلقي محاضرة في قاعة نادي المعلمين في النجف الأشرف عام 1989 وأثناء تحدثه بهذه المعلومة قام شيخ كبير على رأسه طربوش ملفوف عليه قماش أخضر وتقدم من الوردي ليستأذن بالخروج بأدب وهدوء، فما كان من الوردي، وقد حضرته النكتة إلا أن يقول للشيخ الكبير: ها!.. أنت من هؤلاء الأربعين الذين آمنوا بالنبي خلال السنوات التسع.. وغصت القاعة بالضحك.

(3) جاليليو جاليلي، (15 فبراير 1564–8 يناير 1642)، (Galileo Galilei) عالِم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فأثبت أولاً خطأ نظرية أرسطو حول الحركة. أسس منهجه العلمي على أساس الملاحظة والتجربة.

(4) جوردانو برونو المعروف أيضاً بـ«نولانو» أو برونو دي نولا (1548 في نولا – 17 فبراير 1600 في روما) كان دارساً دينياً وفيلسوفاً إيطالياً حكم علية بالهرطقة من الكنيسة الكاثوليكية. وهو فيلسوف إيطالي شهير. كان راهباً أيضا في البداية ولكنه انتقل من الدراسات اللاهوتية إلى الفلسفة فيما بعد. اعتنق نظرية كوبرنيكوس عن دوران الأرض على الرغم من أن رجال الدين آنذاك حرموها وذهب إلى أبعد منها، آنذاك، بوضعه فرضية أن النظام الشمسي هو واحد من مجموعة نظم تغطى الكون في صورة نجوم وألوهية ولانهائية الكون. كما افترضت نظريته أن كل من النظم النجمية الأخرى تشتمل

وداروين[1] وغيرهم أمر معروف لا حاجة بنا إلى ذكره.

وإني أذكر ما جرى في العشرينيات عندنا من صراع عنيف بين المحافظين والمجددين في قضايا كثيرة، وقد صدر في تلك الآونة كتاب عنوانه: «السيف البتار على الكفار الذين يقولون المطر من البخار»[2]. وشهدت أنا شخصاً يعتدي على آخر بالضرب والإهانة لأنه قال بأن المطر من البخار.

يقال عن قبائل الاسكيمو، التي تسكن في شمال أمريكا بالقرب من القطب الشمالي أن لديهم عادة هي أن الضيف الذي ينزل في بيت أحدهم يجب أن ينام مع زوجة صاحب البيت، وقد يغضب صاحب البيت إذا وجد الضيف يمتنع عن النوم مع زوجته، ويعتبر ذلك إهانة له[3].

على كواكب ومخلوقات عاقلة أخرى، ولذلك تم نفيه ولكنه عاود بعد وفاة البابا سيكاستاس الخامس وبدأ في تنظيم المحاضرات فلاحقوه وقبضوا عليه ثم سجنوه لمدة ثماني سنوات. وبعدئذ قطعوا لسانه وأحرقوه بتهمة الكفر. ولكن بعد وفاته شعر الباحثون بقيمة علومه وأبحاثه واعتبروه شهيداً للعلم، وتعبيرا من الكنيسة عن الندم نحتوا له تمثالاً وهو يقف بعزة وشموخ. «الموسوعة الحرة – ويكيبيديا».

(1) تشارلز روبرت داروين (12) (Charles Robert Darwin فبراير 1809–19 أبريل 1882) عالم حيوان، إنجليزي الجنسية، اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان، واجه داروين بعض ردود الفعل المناوئة لنظريته المخالفة لعقيدة الديانات السماوية والقائلة إن الكائنات الحية أبدعها اله حي عاقل..

(2) كان الوردي كثيراً ما يردد اسم هذا الكتاب، وشرح لي مرة أن فقيهاً كبيراً من فقهاء جيل ماضٍ أصدر كتاباً عنوانه بهذا العنوان «السيف البتار في الرد على الكفار». وكان موضوع الكتاب يدور حول الفكرة القائلة بأن المطر من البخار، وقد كانت هذه الفكرة جديدة في ذلك الحين، وأراد الفقيه تفنيدها بالدليل العقلي، إذ هي في نظره قد جاء بها الكفار ليفسدوا بها عقائد المسلمين. ظن الفقيه أن المطر ينزل من بحر القدرة الموجود في السماء، وأن هناك حميرا من الملائكة يحملون قِرَبَ الماء منه ويرشّون على الناس رشّاً، وما البرق إلا لمعان السوط الذي يضرب ميكائيل به ظهور الحمير. أما الرعد فهو صوت ميكائيل. يبدو أن الفقيه نظر إلى السقائين الذين يرشون الماء في الطرقات أثناء الصيف، فخيل إليه أن الملائكة تفعل فعلهم عند نزول المطر. أما نزول المطر من البخار فهو غير معقول. وإذا كان المطر ينزل من البخار فلماذا لا نراه ينزل عند صعود البخار من قدور الطبيخ؟! وظنّ الفقيه الأدلة العقلية التي جاء بها مقنعة كل الإقناع، وقد كان واثقا كلّ الثقة بأنها ستفحم الكفار وستلقمهم حجراً، وتجعلهم يشعرون بسخافة رأيهم حالما يطلعون عليها. لكن بعد سنوات استطاع (الكفار) الصعود إلى السحاب فعلا فيلمسوه بأيديهم. وجاء بعد ذلك يوم تمكنوا فيه من إنزال المطر كما يشاءون، وذهبت أدلة الفقيه سدى.

(3) عندما زرت المغرب عام 1990 سمعت أن إحدى المدن المغربية فيها مثل هذه العادة، وقد أخبرت الوردي بذلك، فاهتم بالخبر وسجل ملاحظات على قصاصة ورق.

إننا حين نسمع هذا الخبر عن الاسكيمو نعتبره غير معقول ولا يمكن أن يحصل في أي مجتمع من المجتمعات البشرية، ولكننا لا ندري أننا لو كنا نشأنا في نفس التراثية التي نشأ فيها الاسكيمو لصرنا مثلهم. وفي هذا يظهر بوضوح مبلغ العجز أو الشلل الذي يصاب به العقل من جراء تأثره بالتنويم الاجتماعي.

إننا نستطيع أن نأتي بأمثلة واقعية كثيرة في هذا الشأن، فنحن حين نسمع عن بعض المعتقدات الموجودة لدى بعض الشعوب، والتي هي سخيفة جدّاً في نظرنا، كعبادة البقر عند الهندوس، أو عبادة الحجر عند الوثنيين، نتعجب منها ونتساءل كيف جاز لهؤلاء أن يتمسكوا بمثل هذه المعتقدات؟.. أليس لديهم عقول يفكرون بها؟.

نحن لا ندري أننا لو كنا نشأنا في مثل تراثية هؤلاء ولم نعرف غيرها لصرنا مثلهم تماماً. إنّ عقلنا الآن يعتبر هذه المعتقدات سخيفة لأننا نشأنا في تراثية تستنكرها، ولو كنا قد نشأنا في بيئتهم لكان عقلنا يفكر على نمط آخر.

ذكرت – آنفاً – أن الإنسان إذ ينشأ في تراثية اجتماعية معينة يخضع لنوع من التنويم نسميه «التنويم الاجتماعي». فهو ينظر في الأمور من خلال المفاهيم والمعتقدات والقيم التي نشأ عليها، وكلّما كان المجتمع الذي يعيش فيه أكثر انغلاقاً وانعزالاً كان التنويم الاجتماعي أقوى فيه تأثيراً.

إن تعصّب الإنسان للمجتمع الذي ينشأ فيه ناشئ عن هذا التنويم الاجتماعي، فالإنسان المتعصّب يتصوّر أنه متعصّب للحق وحده، وهو لا يدري أنه واقع تحت تأثير التنويم الاجتماعي.

حين نقرأ المؤلفات التي تدور حول الجدال الطائفي في الإسلام أو غيره من الأديان الأخرى نرى فيها صورة واضحة لهذا التعصّب اللاشعوري.

إني أملك في مكتبتي عدداً وفيراً من المؤلفات الطائفية، وإني أعتبرها مختبراً للدراسة الاجتماعية في طبيعة العقل، ويحلو لي في بعض الأحيان أن أستخرج مجموعة من تلك الكتب وأطالع فيها، ولا أكتم عن القارئ أني حين أقرأ في مثل هذه المؤلفات أشعر كأني أتفرج على مسرحية أو فيلم سينمائي.

إنّ كلّ مؤلف في هذه المؤلفات يحاول أن يأتي بأكبر عدد من الأدلة

العقليـة والنقليـة لكـي يبرهـن بها على صحة معتقداتـه الطائفية كما يبرهن على فسـاد معتقدات الخصوم، وأنا واثق أنه لو كان قد نشـأ في طائفة أخرى لكانت أدلته في الاتجاه المعاكس.

يجب أن لا ننسى أنّ التعصّب اللاشعوري لا ينحصر في مجال المعتقدات الطائفية فقط، بل هو يشـمل كذلك المجالات التراثوية الأخرى، فالرجل الذي ينشأ في مجتمع يلتزم بعادة غسل العار[1] مثلًا يسرع إلى قتل أخته أو ابنته أو أمه بمجرد أن يسـمع عنها ما يشـين سـمعتها.. ولا لوم عليه في ذلك إذ هو كالنائم مغناطيسياً، يفعل ما يراد منه أن يفعل وليس ما يريد هو أن يفعل.

إن هذه هي طبيعة العقل البشري، أو هي بالأحرى طبيعة الإنسان في كلّ زمان ومكان، ونحن حين نتعجب منها يجب أن نعلم أننا جميعاً خاضعون لها من حيث لا ندري.

---

(1) المؤسف أن هذه العادة أطلت مجدداً بوجهها القبيح بعد احتلال العراق سنة 2003 وتقتل الفتاة بمجرد جهرها بعاطفتها نحو رجل غريب أو الاشتباه بسلوكها أو عند انتشار إشاعة سيئة عنها.

بين الجهل والعلم(1)

إنّ الجهـل فـي تأثيـره على العقل يشـبه التراثية من جهة ويختلف عنها من الجهـة الأخـرى، فالنـاس حيـن يختلفـون فـي تراثيتهم قد يؤدي ذلـك بهم إلى التنازع والاقتتال، ولاسـيما إذا كان الاختلاف في المعتقدات الدينية، على نحو ما حصل في المعارك الطائفية التي امتلأ بها التاريخ البشري. ولكن الناس حين يختلفـون فـي درجـة جهلهم للأمور فإن ذلك لا يؤدي إلى التنازع والاقتتال في أكثر الأحيان، بل يؤدي إلى الاستغراب أو التكذيب فقط.

ويجب أن لا ننسى أن التراثية والجهل كثيراً ما يختلطان في الإنسان ويكونان دافعاً واحداً، خذ على سبيل المثال قصة غاليلو الإيطالي[1] الذي قدم إلى محكمة التفتيش[2] في عام 1642 بتهمة قوله إن الشمس واقفة وأن الأرض هي التي تدور حولها. فهذا الرجل عندما مثل أمام المحكمة اعترف بخطئه وطلب المعذرة، وقد ساعده هذا الاعتراف على تخفيف الحكم عنه حيث حكمت المحكمة عليه بأن يحجر في بيته ويعتزل الناس. وقد ظل غاليلو محجوراً في بيته طيلة عشر سنوات إلى أن مات وهو في الثامنة والسبعين من عمره.

إن هـذه القصّـة تـدل علـى أن الجهـل والتراثية يختلطان فـي بعض الناس ويكونـان دافعـاً واحـداً، فقضـاة محكمة التفتيش كان يدفعهـم إلى معاقبة غاليلو سببان، أحدهما التراثية التي نشأوا عليها وهي التي تعتبر القول بدوران الأرض حولِ الشمس نوعاً من الهرطقة[3]، أي الزندقة. أما السبب الثاني فهو قد نشأ عن

---

(1) جاليليو جاليلي، (15 فبراير 1564–8 يناير 1642)، عالِم فلكي وفيلسوف وفيزيائي إيطالي، ولد في بيزا في إيطاليا. نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة على أسس فيزيائية، فأثبت أولاً خطأ نظرية أرسطو حول الحركة عن طريق الملاحظة والتجربة.

(2) محاكم التفتيش Inquisition، ديوان أو محكمة كاثوليكية نشطت خاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كانت مهمتها الأساس اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم بأقسى وأبشع العقوبات.

(3) الهرطقة ويطلق عليها أيضا الزندقة (heretic) هي تغير في عقيدة أو منظومة معتقدات مستقرة، وخاصة الدين، بإدخال معتقدات جديدة عليها أو إنكار أجزاء أساس منها بما يجعلها بعد التغير غير متوافقة مع المعتقد المبدئي الذي نشأت فيه.

الجهل، فالقضاة لو كانوا قد عاشوا في عصرنا ودرسوا في المدارس الحديثة عن دوران الأرض حول الشمس لما استنكروا قول غاليلو ولما عاقبوه.

إن الجهـل والعلـم أمـران نسبيان، فليس هناك جهـل مطلق أو علم مطلق. ويصـح القـول إنّ كلّ واحـد منـا هو جاهل وعالم في الوقت نفسـه، فهو يعرف بعض الأمور بينما هو يجهل أموراً أخرى. ولم يظهر في هذه الدنيا إنسان يعرف أسرار الكون أو أسرار الحياة كلّها، وفي هذا مصداق لما ورد في القرآن الكريم: ﴿... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1].

في سنة 1862 جاء أحد التجّار من كربلاء إلى بغداد بغية إنجاز عمل تجاريّ له، وكانت بغداد في تلك السـنة قد وصلت إليها أسـلاك التلغراف التي تربطها باسـطنبول، وسـمع التاجر الناس يتحدثون عن هذا الاختراع العجيب وكيف أن الإنسـان يدق على حديدة في بغداد فيسـمعها إنسـان آخر في اسـطنبول، وهو قـد اسـتنكر الخبـر فـي بدايـة الأمر وكذبه، ولكـن أصحابه التجـار ذهبوا به إلى دائرة التلغراف ليشـاهد بعينه الحديدة التي يدقها الإنسـان فتسـمع في اسطنبول، ولمـا عـاد التاجـر إلى كربلاء صار يتحدث إلى الناس عن الحديدة العجيبة التي شاهدها بعينه، فأخذ الناس يشككون في سلامة عقله، وفسروا حديثه بأنه ناتج عن شربه للخمر الذي تعلم عليه في بغداد.

إن قصة هذا التاجر ليسـت شـاذة أو نادرة، وقد شـهدت أنا من أمثالها في حياتـي كثيـراً، فالنـاس إذا سـمعوا عـن أمر مخالـف لمألوفاتهم العقلية السـابقة أسـرعوا إلـى تكذيبـه حـالاً واعتبـروه غيـر معقول وقالوا إن العقـل لا يمكن أن يقبل به[2]، ولكنهم سوف يعتبرونه معقولًا بعدما يعتادون عليه.

---

(1) ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

(2) وكذلك فعلوا عندما أعلن خبر صعود الإنسان إلى القمر.. على الرغم من الصور التلفزيونية التي عرضت على الشاشة الصغيرة، ولم يعقلوا كيف أن في القمر صخور، بينما هم كانوا يسمعون ويقرأون عن تشبيه الحبيب لحبيبته بالقمر. لكن من العجيب أن أحد كبار السن من أقاربنا وهو الحاج محمد صالح الطائي ذهبنا إليه، أنا وأحد أقاربي عبد الرسول عبد الحسين الغريري وكنا صغاراً إلى محله الذي يبيع فيه المخللات في مدينة الكاظمية، وأخبرناه بصعود الإنسان إلى القمر فلم يستغرب وقال: ما العجب إن ابني نوري يفكك المروحة قطعة قطعة ثم يعيد تركيبها!.. إنه معجب بولده بحيث أنه عد أن ما فعله إنجازاً يفوق نجاح الإنسان في الصعود إلى القمر..

ولا يقتصر هذا على العوام فقط، بل هو يشمل العلماء أيضاً ولكن بدرجة أقلّ، فالمعروف عن بعض العلماء في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن[1] أنهم أسرعوا إلى تكذيب المخترعات التي ظهرت في أيامهم واعتبروها مستحيلة، ثم تبيّن لهم أخيراً أنهم كانوا مخطئين.

خلاصة ما أريد قوله في هذا الصدد أن الإنسان بوجه عام حين ينظر في الأمور لا بد أن تكون نظرته محدودة في إطار مفاهيمه ومألوفاته العقلية السابقة، فالعقل البشري ليس كما كان المفكرون العقلانيون يتصوّرونه قديماً من أنه قادر على فهم الحقيقة الخارجية فهماً كاملاً، فالواقع أن الحقيقة لا يمكن فهمها بشكلها النهائي الكامل أبداً، فالكون مملوء بالأسرار التي لا نعرف عنها إلا قليلاً، وكلّما اكتشف العلم منها شيئاً ظهرت أمامه أسرار أخرى. إن أعظم العلماء في عصر يبدو جاهلاً تجاه عالم في عصر قادم.

كان القرن الماضي يسمى قرن الغرور العلمي، فقد كانت الحقائق العلمية التي اكتشفها العلماء في ذلك القرن وما قبله بعثت فيهم الغرور وظنوا أنهم توصّلوا إلى فهم الأسرار الكلّية في الكون، ولم يبق عليهم سوى التوصّل إلى فهم الجزئيات والتفاصيل. ومن هنا جاء قول بوخنر في منتصف القرن الماضي وهو: «إن الكون ليس فيه سوى المادة والحركة فقط لا غير». وقد صارت هذه المقولة مسيطرة على أذهان العلماء حتى أواخر القرن فقد ظهرت حينذاك اكتشافات جديدة مذهلة في مجال الذرة والإشعاع والكون وطبيعة المادة والفضاء. وعند هذا أدرك العلماء أنهم كانوا قبلئذ واهمين مغرورين وأن الكون مملوء بالأسرار التي يعجز العقل البشري عن إدراك كنهها.

إنّ العقل البشري بطبيعته محدود جدّاً، فهو كما أشرت إليه آنفاً لا يستطيع أن يفهم شيئاً جديداً إلا من خلال مفاهيمه ومألوفاته السابقة، وإذا كان الشيء غير ملائم لتلك المفاهيم والمألوفات فإن العقل يعجز عن فهمه.

خذ مثلاً الكهرباء الذي نستعمله في معظم شؤوننا اليومية، في الإنارة والتكييف والإذاعة والتلفزة ووسائل النقل والمواصلات، ولكننا على كثرة

---

(1) المقصود أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

استعمالاتنا لها لا نعرف عن ماهيته شيئاً[1].

ويمكن أن نقول مثل هذا عن أسرار الحجيرة الحية، أو أسرار المخ، أو أسرار الفلك الواسع. فكلّما تغلغل الباحثون في دراسة هذه الأسرار شعروا بالعجز المطبق، لهذا يمكن اعتبار القرن العشرين بأنه قرن التواضع العلمي، وذلك مقارنة بالقرن الماضي الذي كان يسمى قرن الغرور العلمي كما أسلفنا.

نستنتج مما ذكرناه أن الناس كلّهم جهلاء غير أنهم يتفاوتون في درجة الجهل فيهم، وهذا هو الذي جعل المنطق الاستنتاجي مغلوطاً، وجعل المنطق الاستقرائي أقرب إلى الصواب منه.

إن المنطق الاستنتاجي يعتمد في التفكير على كلّيات عقلية عامة، ويعتبرها حقائق مطلقة، ثم يستنتج منها الآراء التي يرغب فيها، فقد اتضح الآن علمياً أن ليس في هذه الدنيا حقائق مطلقة، فما نعتبره اليوم من الحقائق المطلقة قد نعتبره غداً مغلوطاً، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ العلم الحديث كما هو معروف.

إن المنطق الاستقرائي هو على النقيض من المنطق الاستنتاجي في ذلك، إذ هو لا يعتمد على الكلّيات العقلية العامة أو الحقائق المطلقة، بل هو يعتمد على البحث الموضوعي والتجريبي ولا يبالي بغيرهما.

إن العلماء اليوم حين يجدون ظاهرة جديدة غير مألوفة لديهم لا يسرعون إلى تكذيبها على نحو ما كان أسلافهم يفعلون قديماً، بل هم يضعونها على

---

(1) ذكرت في كتاب «خفايا من حياة الوردي» أن من طريف ما حدّثني به الدكتور عبد الأمير الورد أنّه وقريبه الشاب علاء كاظم الخطيب كانا يزوران الوردي زيارات متتالية شبه شهرية، وعندما اجتاز علاء الخطيب مرحلة الدراسة الإعدادية بتفوق فكان الثالث على المتخرجين في العراق في الفرع العلمي، سأله علي الوردي: ستقدم للبعثة؟ أليس كذلك؟.. فأجاب علاء: بلى يا دكتور، وجئت أستشيرك في الفرع الذي تفضل تقديمي إليه. بعد قليل قال علي الوردي: البلد مقدم على نهضة في الجوانب كلها والنهضة لا تقوم إلا على الكهرباء فقدّم إلى دراسة الكهرباء.. في الزيارة التي بعدها سأله: علاء.. إلى أي فرع قدمت في البعثة؟.. إلى الكهرباء يا دكتور.. إلى الهندسة الكهربائية.. انفجر علي الوردي: أي كلب ابن كلب نصح لك بذلك؟ الكهرباء تنتل (تصعق).. قدّم إلى غيرها. قال الورد: لا أستطيع أن أصف حالي وحال علاء في تلك اللحظة.. بقيت الضحكة المجلجلة محبوسة في نفوسنا نغالبها طيلة الجلسة، وعندما خرجنا وابتعدنا بما فيه الكفاية عن الدار انفجرنا بضحكة مدوية، وغيَّر علاء حقاً تقديمه فاتجه إلى الهندسة الكيماوية. وعندما سافر علاء الخطيب انقطعت سلسلة الزيارات.

بساط البحث، وإذا توصّلوا إلى نتيجة معينة في بحثهم فإنهم لا يجزمون بصحتها بصورة مطلقة، بل يقولون إن صحة النتيجة محدودة بحدود الوقائع التي وضعت تحت البحث، وربما جاء بعدهم باحثون آخرون يدرسون وقائع أخرى ويتوصّلون إلى نتيجة تختلف عن النتيجة الأولى قليلاً أو كثيراً.

العاطفة والتفكير(1)

إنّ تأثير العاطفة على العقل البشري أدركه البشر ببديهيتهم منذ قديم الزمان وقد وردت فيه أمثال متنوعة في جميع الشعوب، ولدينا في اللغة العربية أمثال من هذا النوع غير قليلة في العامية والفصحى.

إن العوام في العراق يقولون في أحد أمثالهم الدارجة: «حب واحكي واكره واحكي».. وفي مصر مثل عامي يشبه المثال العراقي هو: «حبيبك يبلع لك الزلط وعدوك يلقي لك الغلط». ومن الجدير بالذكر هنا أن أشهر مثل ورد في اللغة العربية الفصحى في هذا المعنى ما قاله الإمام الشافعي في بيت له من الشعر:

وعينُ الرضا عن كلّ عيب كليلة　　　كما أن عين السخط تبدي المساويا

فهذا البيت كان الأدباء في الجيل الماضي يرددونه فيما بينهم دائماً وما زال بعض منهم[1] يفعل ذلك حتى الآن.

أذكر فيما يلي مجموعة من الأمثال العربية القديمة التي تشير إلى مثل هذا المعنى وهي:

1. حسن في كلّ عين ما تود.
2. عين الهوى لا تصدق.
3. الحب أعمى.
4. حبّك للشيء يعمي ويصم.
5. إن الهوى شريك العمى.
6. كلّ فتاة بأبيها معجبة.
7. من أحب شيئاً أكثر من ذكره.
8. القرد في عين أمه غزال.

إن العاطفة تشبه الغربال للعقل فأنت إذا أحببت شيئاً أخذ عقلك يركّز نظره

(1) في الأصل: البعض منهم.

على محاسن ذلك الشيء ويغضّ نظره عن مساوئه.

وعندما تتحول من الحب إلى البغض نحو ذلك الشيء تنقلب محاسنه إلى مساوئ طبعاً.

إنـي أتذكـر مـا فعـل بعض الناس في العراق مـن تعاطف مع النازية خلال الحـرب العالميـة الثانيـة ثـم تحولـوا بعدئذ إلى التعاطف مع الشـيوعية. فالنازية والشـيوعية متناقضتـان فـي مبادئهمـا وأهدافهمـا ولكـن الناس لـم يكترثوا بهذا التناقـض الواضـح إذ كانـوا يلهجـون بمحاسـن النازية فـي أول الأمر ثم صاروا يلهجون بمحاسـن الشـيوعية أخيراً.. ولا لوم عليهم في ذلك فهم بشـر كغيرهم من الناس يفكرون بعواطفهم أكثر مما يفكرون بعقولهم المنطقية الواعية، وبعبارة أخرى: إنهم كانوا متذمّرين وهم يتعاطفون مع كلّ دعوة تدغدغ تذمّرهم.

إذا كان من طبيعة البشر أنهم يفكرون بعواطفهم أكثر مما يفكرون بعقولهم كما نقول فكيف يمكن أن يظهر من بينهم القاضي العادل الذي يحكم بين الناس بعيـن العـدل والحيـاد، أو الباحـث العلمي الذي يدرس الظواهـر الاجتماعية أو التاريخية أو السياسية بأسلوب موضوعي لا تحيز فيه؟.

إنّ تجرد الإنسـان من العواطف تجرداً تاماً أمر مسـتحيل ولكننا مع ذلك نسـتطيع أن نقـول إن الأفـراد يختلفـون فـي درجـة تأثرهـم بالعواطـف، فمنهـم الموضوعـي الـذي ينظـر في الأمور نظـرة واقعية إلى درجة كبيرة، ومنهم الذاتي الذي تلعب به العواطف كما تشاء. وبين هذا وذاك درجات متفاوتة.

المفـروض فـي الشـخص الـذي تختـاره الحكومـة قاضياً أن يكـون عادلاً ومحايـداً بقـدر الإمـكان، وإذا تبين بعدئذ أنه ليس كذلك وجب عزله. والقاضي بالإضافة إلى ذلك تقف تجاهه وسيلتان لتنبيهه وتحذيره هي:

1. أن الـذي لـه قضيـة أمـام أحد القضاة يسـتطيع أن يطلب تحويل قضيته إلى قاضٍ آخر إذا ثبت لديه أن القاضي الأول منحاز في عاطفته نحو خصمه.
2. أن صاحب القضية إذا وجد في حكم القاضي حيفاً عليه فهو يسـتطيع أن يطلـب عـرض قضيتـه مـرّة ثانية أو ثالثة على قضـاة أرفع رتبة من القاضي الأول.

معنى هذا أن الذين وضعوا النظام القضائي يدركون مقدماً أن القاضي ليس معصوماً وهو قد ينحرف مع عاطفته قليلاً أو كثيراً ولهذا وضعوا تجاهه ما يردعه عن ذلك بقدر الإمكان.

خلاصة ما أريد قوله هنا إن القاضي الذي هو عادل كلّ العدل لم يخلقه الله بعد، فما دام القاضي بشراً فهو لا بد أن يندفع بعاطفته قليلاً أو كثيراً، وكلّما كان اندفاعه مع العاطفة أقلّ كان أقرب إلى العدالة، ومعنى هذا أن المسألة نسبية وليست مطلقة.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن النظام القضائي مهما كان سيئاً أو متحيزاً فإن وجوده أفضل للناس من عدم وجوده فلو ألغينا النظام القضائي بين الناس لعمت الفوضى[1] فيهم وهلكوا، إن الناس عند غياب الرادع سوف يندفعون مع عواطفهم بلا حدود وعند هذا يأكل القوي الضعيف[2].

وحين نأتي إلى الباحث العلمي نستطيع أن نقول عنه مثلما قلنا عن القاضي، فليس في هذه الدنيا باحث قادر على التجرد من عواطفه تجرداً تاماً، وكلّما كان الباحث أقلّ اندفاعاً مع عواطفه كان أقرب إلى الموضوعية في بحثه.

يقول أحد علماء الاجتماع إن الحقيقة هي بالنسبة للإنسان كالهرم ذي الجوانب المتعددة، فالإنسان تحت تأثير عواطفه يصعب عليه أن ينظر إلى الحقيقة من جميع جوانبها، بل هو يركز نظره على جانب واحد منها ويغض النظر عن الجوانب الأخرى.. وهذا ما حدث فعلاً لدى المفكرين العقلانيين أصحاب المنطق الاستنتاجي، فكلّ فريق منهم يلتقط الكلّيات العقلية التي تلائم

---

(1) كان الوردي يردد دائماً مقولة تنسب إلى الإمام علي (ع) وهي: «ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم». أي حتى لو كان الحاكم أو القاضي ظالماً غشوماً جائراً فإن وجوده خير من الفتنة والفوضى تعم الناس وتدوم في حالة عدم وجوده.

(2) كنت مرة أتجول مع الوردي في أحد أسواق بغداد وأقبل أحد الأشخاص يلقي التحية على الوردي بشكل مبالغ فيه كثيراً والوردي يرد على تحيته بإشارات من يده مبالغ فيها كثيراً هي الأخرى، وعندما انصرف ذلك الشخص قال لي الوردي أتدري إن هذا الشخص الذي حياني بهذه الطريقة (الثخينة) ربما يكون هو أول من يتقدم لقتلي عند حدوث شغب أو فتنة.. ولكن وجود الرادع الآن هو الذي يمنعه من ذلك ويجعله يحييني بهذه الطريقة.. ولكن إذا رفع هذا الرادع عنه انطلقت عاطفته وأصبح عندئذ مثل الحيوان المتوحش لا يردعه رادع عن القتل وسواه.

مقصده ثم يستنتج منها الآراء التي يشتهيها، وكذلك يفعل خصمه. ولذا فإن المجادلات التي حدثت بينهم وما زالت تحدث لا نهاية لها وكلّ فريق منهم يعتقد أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه.

عثرت في أحد رفوف مكتبتي مؤخراً على كتاب قديم كنت قد قرأته في عهد الشباب ونسيته، وأتيح لي الآن أن أقرأه مرّة ثانية فوجدت فيه صورة واضحة للعقل البشري على نحو ما ذكرته آنفاً.

إنه كتاب يستعرض مؤلفه فيه المجادلات التي كانت تنشب في بغداد في القرن الرابع الهجري، وهي مجادلات طائفية وكلّ فريق فيها يأتي بالنصوص الدينية أو الكلّيات العقلية التي تلائم مقصده بينما هو يهمل الباقي منها. وأعترف للقارئ أني عندما أقرأ الآن هذا الكتاب وأمثاله أضحك على نفسي وعلى غيري من البشر، فإني عندما كنت أقرأه في عهد الشباب كنت أرى الحق واضحاً في جانب من تلك المجادلات كما أرى الباطل واضحاً في الجانب الآخر.. والآن بعد أن درست النظريات العلمية الحديثة في العقل البشري أدركت أني كنت أعيش في الأوهام من حيث لا أدري – مع الأسف الشديد–.

الأنوية والتفكير(1)

إن الأنوية هي كالأنانية نسبة إلى الأنا، ولكن بينهما فرقاً كبيراً في المعنى، فالمعنى المتداول بين الناس عن الأنانية هو أنها التي تجعل الإنسان يهتم بمصلحته الخاصة ولا يهتم بمصلحة الآخرين، أما الأنوية فلها معنى آخر، إذ هي تعني شعور الإنسان بذاته، أي بالأنا - تجاه الآخرين، وهذا الشعور يجعل الإنسان في دأب متواصل نحو رفع مكانته في نظر الآخرين.

يمكن القول بوجه عام إن الإنسان أنوي وليس أنانياً، ونحن لا ننكر وجود أفراد غير أسوياء تسيطر عليهم الأنانية، يهتمون بمصلحتهم فقط ولكن هؤلاء قليلون بالنسبة إلى غيرهم من الناس، فالإنسان السوي يميل عادة إلى خدمة الناس، وإلى التضحية بمصلحته الخاصة من أجلهم أحياناً، بغية كسب تقديرهم ونيل المكانة العالية بينهم.

وبعبارة أخرى: إن الإنسان السوي يجد من مصلحته في أكثر الأحيان أن يخدم مصلحة الآخرين فهو فرد في مجتمع وهو يسعى نحو رفع مكانته في نظر الآخرين من أفراد المجتمع، وهو يشعر بالارتياح والغبطة في ذلك، وكلّما ازداد ارتفاع مكانته ازدادت بذلك غبطته.

إن النظرية الحديثة في طبيعة الإنسان هي أن الأنا محور الشخصية البشرية، فالإنسان يركز معظم تفكيره حول الأنا وكيف يرفع من شأنها في نظر الآخرين، وقد يصح القول إن معظم نشاط الإنسان في حياته يدور حول هذه النقطة، فالإنسان يناضل دائماً من أجل أن يكون موضع فخار لا موضع عار عند الناس.

يقول المثل البدوي: «النار ولا العار». ومعناه أن الفرد البدوي يفضل دخول النار في الآخرة على نيل العار في الدنيا. فالعار لا يمكن أن يحتمله الفرد البدوي في حياته على أي حال، والواقع أن هذا لا ينحصر في البدو فقط، بل هو يشمل الناس جميعاً على درجات متفاوتة.

إن الأنوية تظهر في الإنسان منذ طفولته الباكرة، ومن علامات ظهورها في الطفل أنه ينشرح ويبدو عليه الزهو حين نمدحه، كما يبدو عليه الامتعاض حين نذمه، ونحن نستطيع أن نجعل الطفل يقوم بأي عمل نطلبه منه بمجرد أن نمدحه إذا قام به ونشجعه عليه.

والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه أقرانه من الأطفال، فنحن لا نكاد نمدح طفلاً آخر بحضوره، أو نحمل ذلك الطفل ونتضاحك له، حتى يشعر هو بالغيرة الشديدة منه.

وقد يبكي الطفل ويصرخ دون أن نعرف السبب الذي دفعه إلى ذلك، إن تجاهلنا للأنوية في الطفل كثيراً ما يؤدي إلى تكوين العقدة النفسية فيه.

وهنا يجب أن لا ننسى أن الطفل البالغ لا يختلف عن الطفل في ذلك، فالإنسان – كما قال أحد علماء النفس – طفل كبير، ولكن الإنسان البالغ اعتاد أن يكتم عواطفه التي يشعر بها في أعماق نفسه ويتظاهر بخلافها إنما هو في الواقع لا يختلف عن الطفل من حيث اغتباطه بالمدح والتقدير وانزعاجه من الاحتقار والذم.

إن الطفل ساذج لم يتعود بعد على الرياء والمدعيات المصطنعة، وهو لذلك يكشف عن نفسه بلا غطاء، أما الإنسان البالغ فهو لا يستطيع أن يعيش مع الناس إلا إذا تعلم كيف يداريهم ويتملق لهم وينافق.

أذكر فيما يلي بعض الظواهر الاجتماعية التي تدخل فيها الأنوية وتؤثر فيها:

1. أنك إذا أقمت وليمة في مناسبة من المناسبات يجب أن تعلم أنك إذا دعوت إلى الوليمة عشرة أشخاص فسوف يغضب عليك مئة، فكلّ واحد من هؤلاء الغاضبين سوف يقدح فيك ويبغضك لأنك دعوت غيره ولم تدعه هو، وهو يعتقد أنه أفضل من الذين دعوتهم.[1]
2. أنك إذا ساعدك الله ورفع مكانتك بين الناس فيجب أن تتوقع كثرة الخصوم

---

(1) كان الوردي يرفض أن يُصنع له تمثال ويوضع في ساحة من ساحات بغداد، وقال لي إن هذا التمثال سيكون مدعاةً لشتمه كلّما رآه أحد من الناس الذين لا يرون أن الوردي يستحقّ أن يُصنع له تمثال ويوضع في ساحة من الساحات.

لك من غير سبب ظاهر. وهذا أمر عرفه الناس منذ قديم الزمان، وهو الذي أطلقوا عليه اسم «الحسد» أو «الغيرة». إن الحسد موجود في جميع الناس وهو يكاد لا يخلو أحد منه، غير أنه يختلف شدة وضعفاً في الأفراد تبعاً لظروفهم وتكوين شخصياتهم.

3. أنك إذا أردت مدح أحد من الناس، أو تقديم هدية له، فمن الأفضل أن تفعل ذلك على انفراد حيث لا يراك آخرون، فإن الناس حين يرون أحداً منهم قد انفرد بمدح أو هوية قد يخالج بعضاً منهم[1] شعور بالنقمة، إذ هم يقولون في أنفسهم: «لماذا اختص هذا الشخص بالمدح أو الهدية دوننا؟.. وبأي شيء هو أفضل منا؟!..».

4. أنك إذا أردت أن تكسب ود أحد الناس، فحاول أن تدغدغ الأنوية فيه، كأن تمدحه أو تحترمه أو تذكر حادثة حسنة قام بها في الماضي أو ما أشبه، وعلى العكس من ذلك إذا أردت أن تنال سخطه أو نقمته فليس عليك سوى ذمه أو الانتقاص من شأنه على وجه من الوجوه.

5. إذا تجادل اثنان في موضوع من المواضيع فإن الجدل بينهما لا ينتهي إلى وفاق في أكثر الأحيان، فكلّ منهما يريد أن يكون هو الغالب في الجدل، وهو يشعر بأن مغلوبيته في الجدل تؤدي إلى هبوط مكانته في نظر الحاضرين، وهو لذلك يظل يجادل ويجادل بمقدار جهده[2].

وإذا رأى خصمه على وشك أن يغلبه أسرع هو إلى تحويل موضوع الجدل إلى موضوع شخصي وأخذ يكيل التهم لخصمه أو يذكره بماضيه بغية التخلص من مغبة المغلوبية على أي حال.

---

(1) في الأصل: البعض منهم.

(2) كان الوردي يتمسك بمقولة يرددها على الدوام ويطبقها وهي «اكسب الجدل بأن تتجنبه» وقد روى الأستاذ الدكتور حسام الآلوسي في كلمة ألقاها في ملتقى الرواد عند الاحتفال بالذكرى السنوية لرحيل الوردي حادثة شاهدها بنفسه في أواسط الخمسينيات، وهي أن الوردي كان يستقل سيارة وعرفه أحد الركاب وتحدث معه هادفاً إلى جرّه إلى جدل حول أحد آرائه، فما كان من الوردي إلا أن يطلب من السائق التوقف ونزل من السيارة في غير المنطقة التي كان يريد أن يقصدها، تخلصاً من ذلك الجدل.

خلاصة القول إن الأنوية لها أثرها الكبير في تفكير الإنسان وسلوكه، فإذا توجهت أنوية الإنسان نحو أمر من الأمور أصبح عقله الواعي شبه مشلول اتجاه ذلك الأمر، إذ هو لا يفهمه كما هو في الواقع، بل يفهمه بمقدار ما ينسجم مع أنويته.

لعل من المناسب هنا أن أنقل ما قاله ديل كارينجي[1] عن الأنوية من حيث تأثيرها في الجدل الذي يقع بين اثنين، فهو يقول: «إن حب الظهور في معظم الأحيان هو الدافع الأول في المجادلة. فأنت تود أن تعرض سعة اطلاعك وحسن تنقيبك في الموضوع المطروح للجدل، وبمثل هذا يحس الرجل الآخر الذي تجادله فإذا قهرته بمنطقك السليم وفزت عليه فإنه لن يعتبر ذلك إلا إهانة منك وجرحاً لكرامته، وهو قلّما يغفر لك ذلك وبهذا تكون قد اشتريت خصومته دون نفع يصيبك من الشراء».

ينبغي أن نضيف شيئاً إلى ما قاله كارينجي لكي تتم الصورة لدينا، فالأنوية لا يقتصر تأثيرها على الجدل فقط، بل هي تشمل بتأثيرها أيضاً مختلف نشاطات الإنسان في حياته الاجتماعية، وصار من الواجب على من يريد التعامل مع الناس، وينجح في تعامله أن لا ينسى ذلك.

إن الإنسان حين تكون له مصلحة في شيء معين فإنه يركز تفكيره كلّه على ابتكار الوسائل التي تمكّنه من الحصول على ذلك الشيء، والواقع أن هذا أمر بديهي أدركه الناس منذ قديم الزمان، ووردت فيه أمثال كثيرة لدى مختلف الشعوب وقد يكفي أن نذكر هنا بضعة أمثال من تراثنا العربي القديم وهي:

1. كلّ يجرّ النار لقرصه.
2. صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاها.
3. أجع كلبك يتبعك.
4. كلّكم طالب صيد.
5. من جعل نفسه عظماً أكلته الكلاب.

وفي الوقت الذي نرى فيه الناس قد أدركوا هذا الأمر ببديهيتهم، نرى المفكرين الطوبائيين غافلين عنه أو هم لا يعترفون به، فهم إذا وضعوا خطة لإصلاح البشر غضوا النظر عن تأثير المصلحة الخاصة في عقل الإنسان وأخذوا يعظونه بأن يكون ملاكاً يطلب المصلحة العامة بدلاً من مصلحته الخاصة.

إن الإنسان مهما وعظته بأن ينسى مصلحته الخاصة وأن يسعى وراء المصلحة العامة، فإن موعظتك لا تؤثر فيه، إن المواعظ إذا كانت غير منسجمة مع طبيعة الإنسان فإنها قد تؤدي إلى نشوء ازدواج الشخصية فيه، وهو عندئذ سوف يبقى راكضاً وراء مصلحته الخاصة في سلوكه الفعلي، بينما هو في أقواله يتحذلق بالأفكار العالية التي سمعها من الواعظين.

المصلحة وكفاءة الإنتاج:

من الظواهر الاقتصادية التي لفتت الأنظار في القرن العشرين هي الفرق الكبير في كفاءة الإنتاج بين المصنع الرأسمالي والمصنع الشيوعي، فالمصنع الرأسمالي بوجه عام هو أكثر كفاءة في الإنتاج من المصنع الشيوعي، والسبب

في ذلك يعود إلى أن صاحب المصنع الرأسمالي أو مديره له مصلحة في نجاح مصنعه، وتراه يسهر الليالي ويبذل أقصى جهده في سبيل إنجاح مصنعه. إنه يعلم أن ربح المصنع هو ربح له. أما مدير المصنع الشيوعي فهو موظف، وهناك فرق كبير بين صاحب المصنع والموظف فيه كما لا يخفى.

وحين نأتي إلى العامل في المصنع الرأسمالي نجده كذلك أكثر اهتماماً في عمله من العامل في المصنع الشيوعي فهو كلّما أبدى حذقاً ودأباً في عمله ازدادت مكافآته من صاحب المصنع، وهو في الوقت نفسه معرض للطرد الفوري إذا تكاسل أو أخطأ في عمله.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الحوانيت أو مخازن البيع في البلاد الرأسمالية، فكلّ عامل في الحانوت الكبير هناك هو مراقب من قبل صاحب الحانوت، وهو ينال المكافأة على اهتمامه في عمله، أو ينال الطرد إذا أهمل. أما في الحوانيت الشيوعية فالعامل قد يقبل الرشوة من الزبائن طمعاً في زيادة دخله، فهو لا يجد مراقبة شديدة من مدير الحانوت، وهو قد يشارك المدير في رشواته.

إن المفكرين الشيوعيين لم يكونوا في بداية أمرهم قد فطنوا إلى هذه الحقيقة، وكان معظم اهتمامهم منصبّاً على الصراع الطبقي وكان رأيهم أن الإنسان صالح بطبيعته وأن الاستغلال الطبقي والظروف السيئة هي التي أفسدته، فإذا زال الاستغلال الطبقي وصلحت الظروف صلحت طبيعة الإنسان تبعاً لذلك.

تبين الآن خطأ هذا الرأي فالإنسان مهما أصلحنا ظروفه ورفعنا عنه الاستغلال الطبقي فإنه يظل بشراً كما كان يركض وراء مصلحته الخاصة بينما هو يتظاهر أنه يسعى وراء المصلحة العامة. إن الإنسان كثيراً ما يخدع نفسه قبل أن يحاول خداع الآخرين..

يجب أن لا ننسى أن المصلحة الخاصة التي يسعى نحوها الإنسان في حياته لا تقتصر على المصلحة المادية وحدها بل هي تشمل المصلحة المعنوية كذلك. وكثيراً ما تكون المصلحة المعنوية أكبر تأثيراً في الإنسان من المصلحة المادية.

إن الحيوان تنحصر حاجاته في الناحية المادية فقط، فهو إذا شبع من الطعام مثلاً اضطجع مطمئناً ولا يبالي بأي شيء آخر، أما الإنسان فهو يختلف كلّ الاختلاف عن الحيوان في ذلك، إنه يملك الأنوية التي لا يملكها الحيوان، فهو إذا أشبع حاجاته المادية ظل راكضاً لاهثاً يطلب رفعة «الأنا» التي لا يمكن إشباعها.

يقول النبي محمد (ص): «إذا كان لابن آدم واد من ذهب وواد من فضة، فهو يبتغي الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب». والواقع أن هذا الحديث يصور لنا طبيعة الإنسان تصويراً رائعاً، فالإنسان حين يتكالب على اكتناز الأموال لا يقصد بذلك إشباع حاجاته المادية، بل هو يقصد به التباهي على الأقران. إنه عندما يشيد قصراً باذخاً أو يقتني سيارة فارهة يريد بهما رفعة «الأنا» على وجه من الوجوه. وهو لا يقف عند حد في ذلك وكلّما نال مكانة رفيعة طمح إلى مكانة أرفع منها، وهو يظل كذلك طيلة حياته حتى يدركه الموت فيريح ويستريح – على نحو ما ذكرناه سابقاً.

أورد الشيخ جلال الحنفي في أحد كتبه بضعة أمثال شعبية عربية فيها ذكر للكلب ولها صلة بموضوعنا الحالي، وهذه الأمثال تختلف في ألفاظها من بلد لآخر، غير أنها متشابهة في معناها وهي كما يلي:

1. في مصر: «إذا كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي».
2. في بغداد: «إذا حاجتك يم الكلب سميه حاج كليب».

3. في بغداد أيضاً: «إذا حاجتك يم الكلب سميه عوعو آغا».
4. في البصرة: «إذا حاجتك يم الكلب سميه عمي كليبان».
5. في لبنان: «اللي يعوز الكلب يسميه الحاج كلبون».

إن هذه الأمثال تصوّر لنا كيف أن الإنسان إذا أراد شيئاً استخدم أساليب المديح والتزلف تجاه مالك الشيء لكي يحصل عليه منه، ومعنى هذا أن المنفعة تكون متبادلة بين طالب الشيء ومالكه، فالمالك يقدم الشيء إلى طالبه ويأخذ منه مكافأة معنوية في صورة المديح الذي ترتفع به مكانة «الأنا» في نظر الآخرين.

ومن الجدير بالذكر هنا أن الكلب ليس لديه أنوية تجعله يبتهج بالمديح والتزلف، ولكن الذين وضعوا تلك الأمثال كانوا يقصدون بها الإنسان، إذ هم عكسوا طبيعتهم على الكلب كما لا يخفى.

اختلاف التأثير

ورب سائل يسأل الآن: هل أن التراثية والجهل والعاطفة والأنوية والمصلحة، على درجة واحدة من حيث تأثيرها في العقل البشري أم هي مختلفة في التأثير؟!.

إن المجتمعات تختلف في درجة تأثرها بهذه العوامل وكذلك الأفراد في كلّ مجتمع.

لنأخذ من أجل التوضيح ثلاثة مجتمعات نموذجية هي المجتمع البدائي والمجتمع البدوي والمجتمع الحضري، فكلّ واحد من هذه المجتمعات الثلاثة يختلف عن الآخر من حيث تركيز اهتمامه على عامل معين من تلك العوامل الخمسة دون غيره.

إن المجتمع البدائي المنعزل تكون التراثية قوية التأثير في أفراده إلى الدرجة القصوى وكلّما كان هذا المجتمع أكثر انعزالاً، أي أقلّ اتصالاً بالمجتمعات الأخرى، كانت التراثية أقوى تأثيراً فيه. وهو لا يكاد يتصل بالمجتمعات الأخرى حتى يبدأ تأثير التراثية بالتضاؤل فيه، ولكن هذا التأثير تتفاوت درجته في الأفراد تبعاً لمستوى ذكاء كلّ واحد منهم ومبلغ انفتاحه الاجتماعي واطلاعه الفكري.

وحين نأتي إلى المجتمع البدوي نجد التراثية فيه ليست بتلك القوة التي وجدناها في المجتمع البدائي، وهذا أمر لاحظناه بشكل خاص في المعتقدات الدينية لدى البدو، ولكن المجتمع البدوي من الجهة الأخرى يولي اهتماماً كبيراً جداً للأنوية، فالفرد البدوي يركز معظم اهتمامه في حياته على كسب الذكر الحسن والمكانة الاجتماعية العالية، فهو مستعد أن يرمي بنفسه إلى الموت عند النخوة، وهو يفضل الموت المصحوب بالفخار على الحياة المصحوبة بالعار، وترى الفرد البدوي يقاتلك من أجل درهم واحد تأخذه منه غصباً بينما هو يذبح لك بعيراً أو عدة أباعر إذا جئت إليه ضيفاً. وفي الوقت نفسه نجد الأفراد في

المجتمع البدوي ليسوا على درجة واحدة في هذا الانهماك الأنوي، وقد تجد بينهم الجبان أو البخيل، وذلك تبعاً لتكوين الشخصية في كلّ واحد منهم ولكن هؤلاء قليلون بالنسبة إلى الآخرين في المجتمع.

أما المجتمع الحضري فإنه يتميز عن ا لمجتمع البدوي أو البدائي بكثرة تنوّع الأفراد فيه، حيث نجد فيه الأنوي جدّاً، والتراثوي جداً، وكذلك نجد فيه اللاهث المتكالب على جمع المال، والعاطفي الهائم، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن المجتمع الحضري تسيطر فيه المصلحة المادية أكثر مما تسيطر في المجتمع البدوي والبدائي. ففي المجتمع الحضري، ولا سيما المتقدم في حضارته، تكثر الحاجات المادية وتتنوع، وتنتشر وسائل الترف، وكثيراً ما تقاس قيمة الفرد فيه بمقدار ما لديه من الملايين، وما لديه من قناطير الذهب والفضة حسب التعبير القديم.

إن هذا على كلّ حال موضوع طويل معقد لا يتسع المجال هنا للإسهاب فيه.

التناشز

التناشز الاجتماعي(1)

(إن مصطلح «التناشـز الاجتماعي» ورد في بعض مؤلفاتي ومقالاتي، كما أني تطرقت إلى هذا المصطلح في كلمتي التي ألقيتها في اتحاد المؤرخين العرب في مساء 17/ 5/ 1989)..

إني اقتبست هذا المصطلح من العالم الاجتماعي المعروف أوغبرن، وليس لي من فضل فيه سوى ترجمته إلى اللغة العربية، فهو في أصله الإنكليزي يعبر عنـه بــ «Lagcultural» وقـد اختلف الكتاب العرب في ترجمته، ولكني وجدت أن تعبير (التناشز الاجتماعي) أكثر دقة من غيره وإني سوف أبقى أستعمله إلى أن تظهـر ترجمـة أخـرى أفضل منه. والـذي أرجوه من المجمع العلمي العراقي أن يبدي رأيه في ذلك إذ هو المسؤول بالدرجة الأولى عن ترجمة المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية[1].

وعلـى كلّ حـال فـإن التناشـز الاجتماعـي ظاهـرة اجتماعية تظهـر في كلّ مجتمع يمرّ بمرحلة تغيّر، فإن بعض الجوانب من المجتمع تتغيّر بسـرعة بينما الجوانب الأخرى تتغيّر ببطء، وهذا الفرق في سـرعة التغيّر يؤدي إلى مشـاكل مختلفة يعاني منها المجتمع قليلاً أو كثيراً.

إننا حين نطبق هذه النظرية على المجتمع العراقي نجد أنه مرّ بمرحلة تغيّر كبرى عقب الحرب العالمية الأولى. ففي هذه المرحلة جاءت الحضارة الحديثة إلى العراق بزخم شـديد، وهي تحمل معها مخترعات ونظماً ومبادئ وقيماً لم يكن العراقيون يعرفون عنها من قبل إلا قليلاً، وقد أدى ذلك إلى ظهور تناشزات متنوعة في هذا المجتمع.

إنّي عاصرت هذا التغيّر الكبير في المجتمع العراقي وعانيت منه شخصياً،

---

(1) قدّم الوردي مجموعة من المصطلحات العلمية التي ترجمها والتي انفرد باستعمالها ثمّ تابعه في ذلك آخرون إلى المجمع العلمي العراقي، ولم يبد المجمع رأيه فيها حتى وفاة الوردي في 13 تموز 1995.

وقد كتبت ذات مرّة في إحدى الصحف مقالاً بعنوان (من على ظهور الحمير إلى الجمبو)[1] حيث ذكرت فيه كيف أني في طفولتي سافرت من بلدة إلى أخرى على ظهور الحمير ثم أتيح لي مؤخراً أن أركب طائرة (الجمبو) الضخمة.

والواقع أن هذه الفترة التي مرّت بي كانت من أعجب الفترات في تاريخ العراق إذ انتقل العراق فيها خلال مدة قصيرة لا تزيد على السبعين سنة من وضع القرون الوسطى إلى وضع العصر الحديث، ففي تلك الفترة تغيّر العراقيون في كثير من مظاهر حياتهم الحضارية إلى الدرجة القصوى، بينما هم في قيمهم ومعتقداتهم وعاداتهم الاجتماعية لم يتغيّروا بمثل تلك الدرجة، وهنا منبع المشكلة[2].

تحدثت في كلمتي التي ألقيتها في اتحاد المؤرخين العرب عن بعض معالم التناشز الاجتماعي في العراق كما تحدثت بالإضافة إلى ذلك عن موضوعين آخرين من مواضيع التغيّر الاجتماعي الكبير الذي حصل في العراق عقب الحرب العالمية الأولى هما: الانفتاح الطبقي والصراع بين المحافظين والمجددين.

(سألني أحدهم ذات مرّة قائلاً: إنك تقول إن التناشز الاجتماعي لا يظهر إلا في المجتمع الذي يمرّ بمرحلة تغيّر، ولكنّنا قرأنا في كتابك الذي صدر في عام 1965 وهو «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي» أن المجتمع العراقي كان في العهد العثماني يعاني الشيء الكثير من التناشز الاجتماعي، هذا مع العلم أن المجتمع العراقي كان في ذلك العهد راكداً ليس فيه تغيّر، فكيف نوفق بين قولك الأول وقولك الأخير؟!).

يجب أن لا ننسى أن المجتمع العراقي في العهد العثماني وإن كان راكداً منعزلاً غير أنه كان من بعض النواحي يعاني شيئاً من التغيّر، وهو بذلك يختلف عن غيره من المجتمعات الراكدة المنعزلة.

كان المجتمع العراقي في ذلك العهد مفتوحاً تجاه القبائل البدوية القادمة من الصحراء المجاورة.

---

(1) الطائرات الكبيرة والبوينغ 747 هي أول طائرة سميت بهذا الاسم لضخامتها.

(2) الواقع أنّ منبع المشكلة هو أنّ دخول المظاهر الحضارية إلى الحياة العراقية لم ترافقه تنمية اجتماعية.

فقد كانت القبائل تنتهز ضعف السلطة الحكومية القائمة في العراق فتتسلل إليه لتنتفع من كثرة المراعي والمياه فيه، وهي كانت في بداية مجيئها تبقى بدوية مترحّلة، ثم تبدأ باحتراف الزراعة والاستقرار في الأرض تدريجياً بمرور الزمن، وعند هذا يظهر التناشز الاجتماعي فيها قليلاً أو كثيراً.

من الجدير بالذكر أن القيم البدوية السائدة في الصحراء تلائم حياة البداوة والترحّل غير أنها لا تلائم حياة الزراعة والاستقرار. ومشكلة القبائل البدوية أنها بعد احترافها الزارعة في العراق تظل محافظة على قيمها البدوية القديمة بالرغم من تغيّر ظروفها، وهذا هو سبب ظهور التناشز الاجتماعي فيها.

إنّ هذا موضوع متشعب، ولتوضيحه أشرح جانباً واحداً منه هو فيما يخص عادة (غسل العار) المعروفة في العراق.

إنّ عادة غسل العار موجودة لدى البدو منذ قديم الزمن إذ هم اعتادوا أن يقتلوا المرأة عند الاشتباه بسلوكها أو عند انتشار إشاعة سيئة عنها، ولكن هذه العادة لا يلجأ إليها البدو في الصحراء إلا في حالات استثنائية نادرة، ذلك لأن ظروف الحياة البدوية تساعد المرأة على المحافظة على عفتها وحسن سلوكها.

فالرجل البدوي عفيف في الغالب وهو لا يحاول إغراء المرأة أو التحرّش بها إلا نادراً، والمرأة البدوية من الجهة الأخرى تعيش بين أبناء قبيلتها وهي قلّما تحتك بغيرهم.

إن مشكلة المرأة البدوية لا تبدأ بالظهور إلا عندما ينتقل البدو إلى الريف ويحترفون الزراعة، فالمرأة عندئذ سوف يستغلها الرجل في بعض أعمال الزراعة، كما يستغلّها في بيع المنتجات الريفية في أسواق البلدة المجاورة، وهي بهذا تتعرض للإغراء والتحرّش هنا وهناك من قبل الغرباء وأبناء البلدة.[1]

من الظواهر الاجتماعية التي كانت كثيرة الانتشار في البلدات العراقية في العهد العثماني، وما زالت بقاياها موجودة حتى اليوم، هي تخصيص مواضع معينة في أسواق كلّ بلدة للنساء الريفيات يبعن فيها بعض المنتجات الريفية

(1) شاهدنا ذلك في مدننا وكيف كان أبناء المدينة يغوون بعض الريفيات الجميلات اللواتي كنّ يأتين إلى المدينة لبيع البيض والدجاج أو اللبن والقيمر.

كاللبن والزبدة والبيض والدجاج والشـوك، فهؤلاء النسـاء يأتين بهذه المنتجات إلـى الأسـواق منـذ الصبـاح الباكر لكـي يعرضنها على المشـترين، ثم يعدن إلى بيوتهن في الريف بعد الانتهاء من البيع ليقدّمن إلى رجالهن ما كسبن من حصيلة ذلك اليوم.

معنـى هـذا أن المـرأة الريفيـة أصبحت ذات حرفة تـدرّ الرزق، وهي بذلك تختلـف عـن المـرأة البدويـة التـي كانت لا تعـرف من دنياها غيـر أعمال البيت والعنايـة بالأطفـال. وبعبـارة أخرى: إن المرأة الريفيـة أصبحت عرضة للانزلاق بمعدل أكبر جدّاً من تعرّض المرأة البدوية له، ولكن سـيف غسـل العار واقف لها بالمرصاد فالرجل يسرع إلى قتلها حالما يسمع شيئاً سيئاً عنها غير مكترث لما حدث من تغيّر كبير في ظروفها.

لقـد سـرت عدوى غسـل العـار من الريف إلى بعـض المحلات الحضرية في العراق، وأصبح العراق في العهد العثماني أكثر مجتمعات العالم من حيث انتشار عادة غسل العار فيه.

إنـي أتذكـر عـدداً غير قليل من حوادث غسـل العار كنت سـمعت عنها أو شهدتها، ولعل من المناسب هنا أن أتحدث عن بعض منها[1] لما فيها من دروس اجتماعية.[2]

أعـرف فتـاة أخطـأت وهربت من أهلها خشـية القتـل، وصار أهلها يبحثون عنها مدة طويلة وشـاءت الصدفة أن يراها أخوها وهي تمشـي في أحد أسـواق بغداد، فأهوى عليها بالخنجر يطعنها به وهو يصرخ قائلاً: (مو حقي؟!)[3] وكان المشـاهدون مـن أصحـاب الدكاكين وغيرهم يتجاوبـون معه صارخين: (حقك!!

(1) في الأصل: البعض منها.

(2) الواقع أنّ هذه العادة ما زالت قائمة في المجتمع العراقي، وإن كانت تُمارس اليوم بنحو أقلّ وقد لاحظت تناقص هذه العادة على مدى سنوات، ولعلّ ما كان يشجّعها في السابق هو أن القانون كان يخفف العقاب على من يقتل المرأة غسلاً للعار، ويعني هذا أن القانون كان يعطي للرجل الذي يشك أن المرأة ارتكبت خطأ صلاحية القاضي، ولكنّ هذه المادة ألغيت فتضاءل القتل لهذا السبب ولكنه لم ينته، ولعلّه سيزداد، بل ازداد، الآن بعد أن دخل العراق النفق المظلم للاحتلال وتسيّد أحزاب متخلفة ورجعية على مقاليد الأمور في العراق.

(3) أليس من حقي أن أفعل هذا؟!..

حقك!!).

إن هذه الحادثة التي حدثت قبل نصف قرن تقريباً تشبه حادثة جرت في شارع الرشيد قبل اشهر معدودة، وخلاصتها أن فتاة تزوجت رجلاً غريباً من غير إذن أهلها وهربت معه، وصار أبوها يبحث عنها حتى وجدها أخيراً تمشي في شارع الرشيد، وانهال عليها بالخنجر يطعنها به، وهي تستغيث صارخة أنها تزوجت على سنة الله ورسوله، ولكن الأب لم يلق بالاً لسنة الله ورسوله، بل كان اهتمامه منصبّاً على سمعته بين الناس والعار الذي لحقه منها، وهو مضطر إذن أن يغسل العار بالدم سواء أراد ذلك أم لم يرد[1].

أرجو أن يعلم القارئ أن هذا الرجل الذي قتل ابنته لم يفعل ذلك بإرادته واختياره، بل هو مسير تحت تأثير القيم والتقاليد التي نشأ عليها في مجتمعه والتي ظلت تحيط به وتؤثر عليه، ولو كنا في مثل ظروفه لصرنا مثله[2].

اعتاد الناس في بعض مناطق العراق أن ينظروا إلى الرجل الذي لا يغسل عاره نظرة احتقار شديد فهم لا يردون عليه التحية إذا جالسهم في المضيف أو المقهى.. وقد يديرون وجوههم عنه استنكافاً، ويعتبرونه (مخنثاً) وليس (ابن أجاويد) وهو يجد نفسه مضطراً إلى القيام بما يمليه عليه مجتمعه على كلّ حال[3].

---

(1) يقول الكاتب التركي يشار كمال إن الشرف في الأعراف الشرقية مرتبط دوماً بالجزء الأنثوي في المجتمع وكل مخالفة منها للأعراف والضوابط والقيم الأخلاقية تأتي بالعار وتلحق الدنس بشرف العائلة، أما في الغرب فتأخذ الكلمة أبعاداً أخرى تخص أموراً عامة شبيهة بكلمة الإخلاص والوفاء والخيانة والافتخار في أعرافنا وتشمل أداء الموظف في عمله والجندي والشرطي ورجال الدولة والسياسة والاقتصاد في أدائهم لمسؤولياتهم بشرف، أي دون خيانة للقوانين والأعراف الوظيفية أو حتى التلاعب في مبالغ الإقرار الضريبي والتهرب من الضرائب وما إلى ذلك من أمور.

(2) وهذا ما يُطلق عليه الوردي في مواضع أخرى عبارة (التنويم الاجتماعي).

(3) بينما تؤرخ آخر حادثة من حوادث غسل العار في السويد العام 1288 عندما تركت فتاة بيتها متوجهة مع عشيقها صوب الغرب إلى دولة النرويج فقتل الأب الثائر أحد اللذين ساعدوها في تلك المهمة وانغلق ملف الحوادث من هذا الصنف. وفي التاسع والعشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني 2005 انعقد في مدينة يونشوبك السويدية مؤتمر شارك فيه أكثر من 600 مشارك ينتمون إلى المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية والتعليمية والشرطة والبلدية وذوي الاختصاص من مرشدين اجتماعيين وأطباء، وشارك فيه العراق لمناقشة هذه الظاهرة..

إن الأنا محور الشخصية البشرية كما ذكرته (مراراً) فالإنسان ليس كالحيوان يطلب القوت فقط، بل هو يطلب رفعة الأنا أيضاً، وهو في سعي دائب طيلة حياته نحو نيل المكانة العالية والسمعة الحسنة في مجتمع. إن الإنسان الذي لا يبالي بمكانته وسمعته هو غير سوي، أو هو شاذ في طبيعته البشرية.

قرأت في إحدى الصحف في الثلاثينيات أن رجلاً في قرية قريبة من بغداد قتل أخته لأنها (اتّصلت) بزوجها قبل ليلة زفافها له، فهذه الفتاة المقتولة كانت مسلمة وهي لم تفعل شيئاً يحرمه الشرع الإسلامي لأن الرجل الذي اتصلت به كان زوجها بحكم الشرع، ولكنها من الجهة الأخرى قد اقترفت عملاً يشوه سمعتها وسمعة أسرتها، أي أنها قامت بفعل يعتبر عاراً في نظر المجتمع ويجب غسله.

مشكلة الكثيرين من الناس أنهم يسيرون في حياتهم على المبدأ البدوي القائل: (النار ولا العار) فهم يفضلون دخول النار في الآخرة على نيل العار في الدنيا.. فالواحد منهم قد تراه يتحذلق بالوعظيات والخطابيات الدينية، وينصح غيره بها، ولكنه في سلوكه العملي يسير حسبما تملي عليه القيم الاجتماعية التي نشأ عليها وهو ينسى أنها تخالف الوعظيات التي اعتاد على التحذلق بها.

تبين الآن علمياً أن غشاء البكارة في الفتاة العذراء يختلف من فتاة إلى أخرى وهناك من الفتيات من يكون غشاء البكارة فيهن مطاطاً جدّاً أو رقيقاً جدّاً خالياً من الأوعية الدموية وهذا يؤدي إلى وقوعهن في الكارثة عند الزواج.

حدّثني أحد الأطباء المختصّين بالطب العدلي أن التشريح الذي أجراه على بعض جثث الفتيات المقتولات بسبب غسل العار دلّ على أنهن بريئات من كلّ فعل شائن، ولكن غشاء البكارة فيهنّ كان من النوع المطاط أو الرقيق الذي لا يسيل منه الدم في ليلة الزفاف، وقد أدّى ذلك إلى قتلهنّ ظلماً[1].

(1) أجريت مرة تحقيقاً صحفياً في مديرية الطب العدلي في باب المعظم، وبينما كنت أتحدث مع المدير جيء بفتاة صغيرة يصحبها شرطي عجوز، ولما قرأ المدير الورقة التي سلمها له الشرطي أحال الفتاة إلى الفحص، وقال لي المدير: إن هذه الفتاة دخل بها زوجها أمس وذهب إلى أهلها قائلاً لهم: «خذوا ابنتكم فهي ليست باكراً». فتنادى أبوها وإخوتها لقتلها ولكنها أفلتت منهم بمعجزة ولاذت بمركز الشرطة الذي أرسلها إلينا، وسنرى بعد قليل ما هي حقيقة الأمر.. وحدثني هذا المدير عن جثث فتيات

وليس ينحصر الظلم الاجتماعي في شأن غشاء البكارة وحده بل هو يشمل أسباباً أخرى، فإن بعض الفتيات البريئات قتلن بسبب كلمة عابرة أو إشارة غير مقصودة وجهت إلى رجل من أقربائهن فاندفع هو إلى غسل العار بلا رويّة[1].

تروى في هذا الصدد قصة جديرة بالذكر هنا، فحواها: أن رجلاً ريفياً من أبناء العشائر المعروفة كان جالساً في مضيف، وكانت على عقاله قشة، فقال له أحد الحاضرين ينبهه إلى وجود القشة على عقاله، ولكن الرجل ظن أن في هذا التنبيه إشارة إلى وجود امرأة سيئة السلوك في بيته، فأسرع إلى بيته وقتل إحدى نسائه. وتقول القصة إن الرجل عندما عاد إلى المضيف نبهه شخص آخر بوجود القشة على عقاله، فأسرع إلى بيته ليقتل امرأة أخرى من نسائه..[2].

يرجح في ظني أن هذه القصة لا تخلو من مبالغة ومن عادة الناس أنهم يبالغون في رواية القصص من هذا النوع.. ولكنها بالرغم من وجود المبالغة فيها مغزى اجتماعي إذ هي تدل على تسرع الرجل الريفي في قتل إحدى قريباته بمجرد أن يسمع عنها شيئاً يدعو إلى الريبة في سلوكها، والواقع أن كثيراً من البريئات وقعن ضحايا من جراء هذه العادة[3].

بريئات تم فحصها في مديرية الطب العدلي وعشرات الحوادث التي تشبه حادثة هذه الفتاة الصغيرة.. ودعاني المدير إلى جولة في متحف المديرية احتفظوا فيه بشواهد من هذه القضية وغيرها.. وعند عودتنا إلى غرفة المدير جاءت نتيجة فحص الفتاة وإذا هي ما زالت عذراء إلا أن غشاء بكارتها كان من النوع المطاط.. وهكذا كانت هذه الفتاة الصغيرة ستفقد حياتها ظلماً بسبب جهل زوجها وتسرع أهلها لغسل العار.. وقد نقلت ذلك بالتفصيل للمرحوم الدكتور الوردي في حينه.

(1) قرأنا عن مثل هذه الحوادث الكثير وسمعنا وشهدنا بعضها وهي كانت تتكرر بكثرة في الماضي، وإذا جمعت قصص تلك الحوادث من أفواه الناس وسجلات الشرطة لأصبحت مجلدات ضخمة تريك حجم الظلم الاجتماعي الذي كان يقع على المرأة في الماضي.

(2) تروى هذه الحادثة بأشكال متعددة وبمبالغة أكبر، وإذا كان الوردي قد أوردها على أساس أنها حدثت في مضيف إحدى العشائر وأن عدد ضحاياها امرأتان فقط، فإن هناك من يرويها على أساس أنها حدثت في مقهى من مقاهي المدينة وأن هذا الرجل الريفي الذي كان قد سكن المدينة حديثاً قضى على نساء بيته كلّهن: امرأته وبناته وأمه حتى اكتشف أن القشة كانت موجودة على عقاله فعلاً.. فندم ولات ساعة مندم.

(3) روى لي الوردي، رحمة الله عليه، حادثة وقعت في صباه أو بداية شبابه في محلة الأنباريين في الكاظمية، وهي المحلة القريبة من سكنه، قصة عن امرأة من أهل المحلة شاعت بعض الشائعات غير الحسنة عن سلوكها، ولم يكن لها من الأقرباء سوى أخ صغير، وهو غير قادر على القيام بغسل

إن عادة غسل العار ليست هي العادة الوحيدة التي ورثناها من الماضي، فهناك عادات سيئة أخرى كثيرة ما زالت تعشش[1] في ثنايا مجتمعنا، وقد أصبح من الواجب على كتّابنا ومؤلفينا أن يهبّوا لمكافحتها بمقدار جهدهم.

لا ننكر أن العادات السيئة الموروثة فينا هي في تقلّص مستمر بمرور الزمن فإن التطوّر الحضاري الذي يشهده مجتمعنا لا بد أن يقضي عليها عاجلاً أو آجلاً.. ولكن الذي أريد لفت النظر إليه هو أننا يجب أن لا نعتمد على التطوّر الحضاري وحده لمعالجة عاداتنا الموروثة، بل يجب علينا في الوقت نفسه أن نعمل من جانبنا لمساعدة هذا التطوّر بالدراسة العلمية والتوجيه الرصين.

عارها، وقد وجد وجهاء المحلة أن سلوك تلك المرأة يمسّ شرفهم ويُلحق العار بهم، فاجتمعوا في دار أحدهم وقرروا تحريض أخيها على قتلها وتدريبه على ذلك، وتمّ لهم ما أرادوا، ونال الأخ من رعايتهم الشيء الكثير عند إلقاء القبض عليه وعند إطلاق سراحه بعدئذ. وقال الوردي إنه رآه ذات يوم وهو يمشي مزهواً بنفسه ويحظى بتقدير الناس واحترامهم. وذكر الوردي هذه الحادثة في المقابلة التي أجريت معه في العدد السابع من مجلة آفاق عربية، ص 82، تموز 1992. انظر الصفحة 97–121 من كتابنا (د. علي الوردي.. مجالسه ومعاركه الفكرية) ط1 – مركز الناقد الثقافي – دمشق 2010.

(1) في الأصل: تعشعش.

التناشز الاجتماعي..
والمرأة الحديثة في العراق(1)

إن المرأة العراقية بوجه عام تعاني من التناشـز الاجتماعي أكثر مما يعاني الرجل، وذلك لأن القيم الاجتماعية التي تحيط بالمرأة هي أكثر تشدداً وصرامة من القيم المحيطة بالرجل.

إن المرأة العراقية أخذ وضعها الاجتماعي يتغيّر تدريجياً منذ بداية تشكيل الدولـة العراقيـة عقـب الحـرب العالميـة الأولـى، فهـي بدأت تدخـل المدارس وتتعلّم، واتخذت السفور الحديث، ودخلت مجال الوظيفة والعمل خارج البيت، والمشـكلة في هذا التغيّر الكبير أنه يصحبه تغيّر مماثل في القيم والتقاليد التي تخص المرأة.

إن المـرأة العراقيـة بعـد أن تعلمـت وخرجت مـن البيت صارت تطمح أن تكـون كالمـرأة الغربيـة فـي تحررها وفـي اختيار زوجها وفي اتخـاذ المهنة التي ترغب فيها، ولكن القيم الاجتماعية المتزمّتة التي كانت سـائدة في الماضي لم تختـف دفعـة واحـدة، ومـا زال الكثيرون من الناس يتمسـكون بهـا، فماذا تفعل المرأة إزاء ذلك؟!.

يمكـن القـول إن المـرأة العراقية الحديثة تقف بين تيارين متعارضين: فتيار الحضـارة الحديثـة يدفـع بهـا نحو الأمـام، بينما تيـار القيم القديمـة يجرها إلى الخلف. وما أكثر الضحايا من النسوة اللواتي وقعن من جراء الصراع بين هذين التيارين.

منـذ عهـد قريـب تحدثت إلى رجل محافظ وقلـت له: ماذا تفعل لو رأيت ابنتك في مسبح عام وهي تلبس المائي (أي المايو) وتنزل إلى الماء مع الرجال؟ فأجابني غاضباً: «أقتلها!».. فقلت له إن أختك الآن موظفة وهي سافرة في دائرتها تعامـل المراجعيـن كالرجـل، ولو كنا قد ذكرنا ذلك لأبيك المرحوم قبل أربعين

سنة لأجابنا مثل جوابك «أقتلها!»، فسكت الرجل واجماً لا يدري ما يقول.

إن التيار الحضاري الحديث تيار ساحق لا مفرّ منه، والذين يقاومونه اليوم يرضخون له غداً.

إنـي أتذكّـر الآن مـا جرى من جدل عنيف في عام 1924 بين دعاة السـفور والحجـاب فـي العـراق، فـكان دعاة الحجاب يعتبرون السـفور مروقاً عن الدين وفساداً في الأخلاق وعمالة للاستعمار وما أشبه ذلك[1]، ثم مرّت الأيام فوجدنا بنـات دعـاة الحجاب سـافرات وقد دخلن الكلّيـات المختلطة وصرن موظفات، ولم يستطع الآباء أن يقولوا لهن شيئاً.

مـن طبيعـة التغيّـر الاجتماعـي أنـه لا يحدث على وتيـرة واحدة في جميع نواحـي المجتمـع، ففـي بعض نواحـي المجتمع يكون التغيّر سـريعاً كالملابس والمساكن والمهن ووسائل التعليم والثقافة، بينما يكون التغيّر بطيئاً في النواحي الأخـرى كالعـادات والمعتقـدات والتقاليـد والقيـم، وهـذا يـؤدي إلـى التناشـز الاجتماعي.

ولا حاجة بنا إلى القول إن هذا التناشز الاجتماعي لا ينحصر في مجتمعنا وحـده، بـل هو يشـمل جميع مجتمعات العالم، وكلّمـا كان التغيّر في المجتمع

(1) نشبت معركة السفور والحجاب في عام 1924، ويقول الباحث محمد علي الكاتب إن أحد فرسان تلك المعركة هو الأديب الكبير مصطفى علي روى له ما نصه: «كانت مدرسة البارودية للبنات قد شغلت في ذلك الحين داراً تعود إلى عائلة فهمي المدرس وكان أحد مالكيها جميل المدرس مولعاً بزرع الورد (بالسنادين) في تلك الدار، وقد جاء يوماً لتفقد تلك (السنادين) وأزاهيرها والعناية بها إلا أن مديرة المدرسة رفضت الإذن له بالدخول إلى المدرسة لأن التقاليد لا تسمح بذلك، وعندها غضب وكتب مقالاً ضدّ مديرة المدرسة في عددين متتاليين بجريدة كانت تصدر آنذاك في بغداد اسمها (البدائع). كانت هذه بداية المعركة التي وجدنا فيها منطلقاً للتبشير بدعوتنا الإصلاحية من أجل سفور المرأة العراقية ورفع القيود والأصفاد التي كانت ترزح تحت وطأتها، وطفقنا أنا ورفاقي من الشباب التقدميين فكتب برباطة جأش وثبات العديد من المقالات التي تدعو إلى ذلك بأسماء صحيحة ومستعارة، وعلى إثر ذلك قامت قيامة (الحجابيين) المتزمتين، ولم تقعد فبشروا وخطبوا ضدّنا، وأحلوا دماءنا، وردوا علينا بشتائم لا توصف وطالبونا بإخراج أمهاتنا وأخواتنا سافرات، وكانت حكومة ذلك العهد قد سعت إلى غلق أبواب النشر أمامنا وإفساح المجال لخصومنا، لكننا ظللنا ننازلهم بكلّ جرأة وحزم أني وجدنا إلى ذلك سبيلاً من أجل تفتح الأذهان لخير المجتمع وتطوّره».

أسرع كان التناشز فيه أشد. وتلك سنة الله في خلقه في كلّ زمان ومكان.

التناشز في الزواج:

كان الزواج في الماضي يقوم على أساس «الخطبة» وهو في الحضارة الحديثة يقوم على أساس «الحب» وقد أصبحت الفتاة العراقية الآن في مشكلة ذات حدّين، فهي بعد أن تعلّمت تطمح أن تختار زوجها على أساس الحب، بينما يريد أهلها أن يزوِّجوها على طريقة الخطبة.

كانت المرأة في الماضي لا يجوز لها أن تبدي رأيها بصراحة في اختيار زوجها، فإن أهلها هم الذين يفاوضون في أمر زواجها ويساومون على مقدار مهرها، وليس لها إلا أن تقول «نعم» عند عقد النكاح، وإذا امتنعت عن النطق بهذه الكلمة أحاطت بها التهم ونالت العقاب الشديد من ولي أمرها[1].

ومما أتذكره من فترة العشرينيات أن فتاة امتنعت عن النطق بكلمة «نعم» في أثناء عقد النكاح، فانهال عليها أبوها بالضرب المبرح على مسمع من الحاضرين وصرخ فيها متهماً إياها بأنها «عاشقة». ولا حاجة بنا إلى القول إن تهمة «العشق» كانت أبشع تهمة توجه إلى الفتاة في تلك الأيام، وهي على النقيض مما اعتاد عليه الناس في الغرب، إذ أن الحب هو الأساس الذي يقوم عليه الزواج هناك - كما أشرنا إليه آنفاً.

اتضح الآن علمياً أن الحب لا يصلح وحده لأن يكون أساساً للزواج الناجح، فإن له عيوبه كمثل ما كان للخطبة عيوبها، ولكن المرأة الحديثة في العراق لا تعرف ذلك، بل هي تحاول تقليد المرأة الغربية في الزواج القائم على الحبّ، وتنفر من زواج الخطبة، وسوف يأتي عليها يوم قريب أو بعيد تدرك فيه أن زواج الحب هو نفسه لا يخلو من عيوب خاصة به.

إنّ الشاب العراقي الآن هو كالشابة العراقية يرغب في اختيار زوجته على أساس الحب، ولكنه في أعماق نفسه يحتقر الفتاة التي تستجيب لغرامياته ولا

---

(1) على الرغم من أن هذه الحالة قد تغيّرت، إلا أن بقاياها ما زالت موجودة في مجتمعنا لحد الآن، فالزواج القائم على أساس الخطبة ما زال قائماً، بل إن بعض من يؤمن بالحب أساساً للزواج يتزوج في النهاية على أساس الخطبة، وهؤلاء هم الذين يقول عنهم الوردي بأنهم يعانون من التناشز الاجتماعي.

يرغب أن يجعلها زوجة له وأماً لأولاده، فتراه يتحرّش بالفتيات ويحاول تبادل الغرام مع إحداهن، غير أنه لا يكاد يجدها قد استجابت له حتى يشعر بأنها امرأة غير «شريفة» وأنها لا تستحق أن تكون زوجة له «على سنة الله ورسوله»[1].

إن التناشز الاجتماعي كامن في أعماق هذا الشاب، فهو يقلّد الشاب الغربي بأفانين الغرام، ولكنه في الزواج يريد تقليد أبيه وأعمامه وأخواله.

إنه في غرامياته «دون جوان» وفي زواجه «حاج عليوي»!.

التحرّش بالنساء:

إن ظاهرة التحرّش بالنساء أصبحت واسعة الانتشار في مجتمعنا، ولها صلة بموضوع التناشز الاجتماعي.

الملاحظ أن ظاهرة التحرّش بالنساء لا وجود لها، أو هي قليلة جدّاً، في المجتمعات المتقدمة التي اعتادت على الاختلاط بين الجنسين، وهي لا توجد عادة إلا في المجتمع الذي يسوده الحجاب الشديد والفصل بين الجنسين.

إني عشت في بعض البلاد الغربية زمناً غير قصير فلم أر فيها شباناً يتحرّشون بالفتيات كما هو الحال في بلادنا، فالشاب هناك لا يجد حاجة للتحرّش بالفتيات لأنه يعيش معهن منذ صباه الباكر، فيخالطهن في المدرسة ويرافقهن في السفرات ويتعاطى الغرام معهن علناً دون أن يقول له أحد «لماذا؟» أو يوبخه على ما يفعل..

إن التحرّش بالفتيات في الواقع هو وسيلة للتفتيش عن الجوع الجنسي الذي يشعر به الرجل في المجتمع الحجابي.

قد يسأل سائل: إذا كان التحرّش لا يوجد إلا في المجتمع الحجابي كما تقول، فكيف تفسر ازدياد ظاهرة التحرّش في مجتمعنا الآن مع العلم أن المرأة فيه قد أزاحت الحجاب عنها وصارت كالمرأة الغربية تغنجاً وتبرجاً؟!.

للجواب عن هذا السؤال يجب أن نعيد ذكر ما ذكرناه سابقاً من حيث التناشز الاجتماعي الذي تعاني منه المرأة العراقية في المرحلة الراهنة، فهي قد

(1) كان الوردي يقول إن العراقي يحب مثل دون جوان ويتزوج مثل الملا عليوي، فهو يقيم علاقة حب مع فتاة ولكنه عندما يريد الزواج يذهب إلى أمه ويطلب منها أن تخطب له فتاة.

خرجت من البيت وتبرجت ولكن العادات والقيم الاجتماعية القديمة ما زالت باقيـة فـي أعمـاق الكثيريـن مـن الناس حولهـا، وبعبارة أخـرى: إن الحجاب قد اختفى ظاهراً غير أنه ما زال كامناً في أعماق النفوس.

كلمة لا بدّ منها:

قبل بضعة أشـهر عقدت مديرية الشـرطة العامة ندوة علمية للمناقشـة حول موضوع التحرّش بالنساء، وقد حضر هذه الندوة المسؤولون في وزارة الداخلية وكان السيد الوزير في مقدمتهم، وقد سرني أن أكون أحد الحاضرين فيها، وقد انتفعت منها كثيراً.

إن عقد هذه الندوة وأمثالها عمل جدير بالتقدير والتشجيع، وهو يدل على أننـا نسـير فـي معالجـة مشـاكلنا الاجتماعية فـي ضوء الدراسـة العلمية بدلاً من أسلوب الوعظيات والخطابيات التي لا نهاية لها ولا جدوى فيها!.

حول مشاكل الزواج (1)

(تطرقت آنفاً إلى زواج الحب الحديث بالمقارنة بزواج الخطبة القديم وقلت إن كلاً منهما له مساوئه الخاصة به.

الموضوع له أهمية كبيرة في المرحلة الراهنة التي نمرّ بها حيث نعاني من الصراع بين القديم والحديث في كثير من شؤوننا الاجتماعية، والسؤال الذي يواجهنا في هذا الشأن هو: إذا كان زواج الخطبة القديم له عيوبه كما أن زواج الحب الحديث له عيوبه أيضاً، فما هي الطريقة المثلى التي يمكن للجيل الجديد أن يأخذ بها لكي ينجح في زواجه؟!)..

لعل من المناسب في هذا الصدد أن أقص لك قصة فتاة أمريكية كنت أعرفها معرفة شخصية في أثناء دراستي في أمريكا في الأربعينيات، فقد كنت اسكن حينذاك مع عائلة أمريكية وكانت لهذه العائلة فتاة في مقتبل الشباب وهي كغيرها من الفتيات الأمريكيات تتعاطى الغرام علناً مع أصدقاء لها. إنها كانت بين حين وآخر تأتي إلى البيت مع صديق، فتختلي به في الحديقة تحت جنح الظلام ليلاً، أو في زوايا البيت نهاراً، وكان ذلك مثار دهشتي لأني لم أعهد مثله في مجتمعاتنا الشرقية، وأبديت دهشتي لأم الفتاة، فكان جواب الأم أن الفتاة يجب أن تتعاطى الغرام مع أصدقاء عديدين من أجل أن تختار لزواجها الأجدر والأصلح منهم[1].

وبعد فترة غير قصيرة من الزمن استقر رأي الفتاة على اختيار واحد من أصدقائها لكي يكون زوجاً لها، وقد استشارتني الأم في هذا القرار الذي اتخذته ابنتها، وكنت أعرف الشاب الذي اختارته الفتاة، وكان جوابي للأم أن هذا الشاب

(1) كان الوردي يكثر من رواية هذه الحادثة في مجالسه الخاصة، وعاشت دهشته من هذا الحدث إلى آخر أيامه، فهو كان قد انتقل من مجتمع شرقي محافظ إلى مجتمع غربي منفتح. وكشفت مجموعة رسائل أرسلها إلى قريبه الفنان النحات خليل الوردي مبلغ دهشته من تقاليد وظواهر فوجىء بها في أمريكا، وسيصدر لنا كتاب عن دار العرب للنشر والطباعة يضم جميع هذه الرسائل.

لا يصلح زوجاً لابنتها لأنه ذو مزاج انطوائي بينما هي ذات مزاج انبساطي فهي تحب معاشرة الناس وكثرة الاختلاط بهم بينما هو يحب الاعتزال عن الناس والانفراد بنفسه، وهذا التفاوت بين المزاجين يؤدي عاجلاً أو آجلاً إلى التنافر بينهما وإلى إخفاق الزواج أخيراً في أرجح الاحتمال.

يبدو أن الأم أدركت صواب ما قلته لها، وذكرت ذلك لابنتها، وصار موضع مداولة بين الفتاة وخطيبها، فقالت الفتاة إن خطيبها تعهد لها بأن يغير مزاجه من الإنطوائية إلى الانبساطية، ثم قالت الفتاة أيضاً إن خطيبها إذا لم يقدر على تغيير مزاجه كما تعهد به فهي نفسها سوف تغيّر مزاجها.

كان رأيي أن الفتاة وخطيبها غير قادرين على تغيير مزاجهما، وهما حين تعهّدا بتغيير مزاجهما كانا تحت تأثير الغرام المسيطر عليهما، وعندما تخمد فورة الغرام بعد شهر العسل عادة سوف يحلّ النفور محل الوئام بينهما أخيراً.

لقد حصل الزواج بينهما أخيراً، ولكنه سرعان ما انفصم عقده، وجاءتني الأم تندب حظّها وحظّ ابنتها وتلوم نفسها لعدم إصغائها إلى نصيحتي.

يجب أن أعترف أن النصيحة التي كنت قد قدّمتها للأم لم تكن من بُنات أفكاري، بل هي كانت خلاصة المحاضرات التي كنت أحضرها في الجامعة في موضوع العائلة، فإن الباحثين الذين درسوا موضوع العائلة في المجتمع الأمريكي توصّلوا إلى نفس النتيجة التي ذكرتها أنا للأم، وهي أن الحب وحده لا يصلح أن يكون الأساس الذي يقوم عليه الزواج، فإن الحب هو كما ورد وصفه في أحد الأمثال العربية القديمة «يعمي ويصم»[1].

المظنون أن زواج الحب سيختفي كمثل ما اختفى قبله زواج الخطبة، وأن نوعاً ثالثاً من الزواج سيكون هو السائد في المستقبل القريب أو البعيد، وهو الزواج الذي يقوم على أساس الحاسوب أي الكومبيوتر[2].

(1) مثل عربي قديم، ولكن المشهور بين أهل بغداد أن يقولوا: الحبّ أعمى.

(2) ظهر قبل الزواج الحاسوبي زواج الصحف والمجلات، حيث يكتب الشاب أو الشابة إلى هذه الصحف والمجلات مقدّما وصفاً له ووصفاً للفتاة التي يودّ الاقتران بها، وكذلك تفعل الفتاة، وقد ينشران صورتيهما مع هذا العرض، ويتمّ الزواج عن طريق الجريدة أو المجلة.

أصبح للحاسوب في بعض البلاد المتقدمة دور مهم في اختيار رفيق الزواج، فقد أنشئت هناك نواد خاصة بالزواج الحاسوبي، فالعضو في هذه النوادي يسجل في حاسوب النادي جميع الصفات التي يطلبها في شريك حياته المقبلة، وكذلك يسجل فيه جميع صفاته هو على أن يكون التسجيل صادقاً لا غشّ فيه، وهناك أطباء ومحلّلون يراقبون عملية التسجيل ويدققون في فحصه، وليس من المجدي لطالب الزواج أن يكذب في وصف نفسه، بل إن ذلك قد يضرّه في المستقبل ضرراً بليغاً لأنه يؤدّي إلى إخفاق الزواج في النهاية.

إن حاسوب النادي يسجل آلاف الطلبات من الرجال والنساء معاً، وهو يستطيع بعد إتمام التسجيل أن يعين أي رجل يصلح لأية امرأة، وحين يعرف كلّ منهما اسم الآخر وعنوانه يبدأ التعارف بينهما والمعاشرة، ولا بأس عند ذلك أن يقوم الغرام بينهما فإن الغرام في مثل هذه الحالة لا ضرر منه بل هو قد يزيد قوة رابطة الزواج التي سوف تنعقد بينهما.

إن الزواج الحاسوبي[1] أفضل من زواج الخطبة ومن زواج الحب، ففي زواج الخطبة يتزوج الإنسان دون أن يعرف شريكة حياته مسبقاً، أو يراها، وهو إذن يخضع في زواجه للحظّ والنصيب. أما زواج الحب فإن فورة الغرام كثيراً ما تؤدي إلى التسرع في الزواج ثم يتبين للزوجين بعدئذ أنهما غير منسجمين نفسياً أو جنسياً - على نحو ما ذكرناه آنفاً.

أما الزواج الحاسوبي فهو يقوم على أساس أن يتعرف كلّ منهما إلى صفات الآخر ومدى إمكانية الانسجام بينهما.

لا ننكر أن الزواج الحاسوبي قد تكون له عيوبه الخاصة به، فليس في هذه الدنيا شيء كامل لا نقص فيه، ولكن المتوقع أن يكون الزواج الحاسوبي أقلّ عيوباً من زواج الخطبة وزواج الحب، ومن يدري فربما ظهر في المستقبل نوع

---

(1) انتشر الحاسوب هذه الأيام انتشاراً كبيراً، بل أن زواجاً من نوع جديد قد ظهر هذه الأيام، وهو ما يمكن أن نُطلق عليه اسم (زواج الماسينجر)، حيث يستطيع الفتى أن يتحدث مع الفتاة التي يتعرف عليها مباشرة، وإن كانت في آخر الدنيا، عن طريق الماسينجر، ويرى صورتها وترى صورته، ويسمع صوتها وتسمع صوته، ثم يبدءان اللقاء والمعاشرة والزواج إذا صدقت النيّات.

(1) الواقع أننا نعيش الآن مرحلة النوع الرابع من الزواج وهو (زواج الماسينجر)، ونحن بانتظار النوع الخامس منه والذي لا ندري ماذا سيكون، والذي قد لا ندركه نحن على نحو ما لم يحظ الوردي بهذا النوع من الزواج أو ذاك.

إن الزواج الحاسوبي لا بد أن يأتي إلينا كمثل ما أتت إلينا الظواهر الحضارية الأخرى، ولا مناص من ذلك![1].

والمظنون أن بعض الشبان والشابات، ولاسيّما خريجي الجامعات منهم سوف يؤسسون في يوم قريب أو بعيد نادياً مختصاً بالزواج الحاسوبي، وهذا أمر يجب أن تشجعه الدولة وترعاه لأنه يؤدي إلى قيام أسر متماسكة تخلو من التوتر والتفكك.

دلت الإحصاءات الاجتماعية على أن الكثير من المنحرفين والمجرمين نشأوا في طفولتهم في بيوت غير متماسكة، وهذا يوجب علينا أن نولي اهتماماً كبيراً لنظام الزواج والعائلة في مجتمعنا ونحاول توفير الظروف التي تجعله أكثر تماسكاً وأقلّ توتراً وتفككاً.

من الجدير بالذكر أن نوادي الزواج الحاسوبي على فرض تأسيسها في مجتمعنا لا يجوز أن تترك من غير إشراف أو رقابة فهي بغير ذلك قد يساء استعمالها من بعض طلاب اللذة أو طلاب المال، وربما صارت دوراً للدعارة بدلاً من الزواج الحاسوبي.

إني أقترح أن تكون هذه النوادي تحت إشراف بعض دوائر الحكومة، ولا سيما وزارة التعليم العالي، ووزارة التربية أو وزارة الشؤون الاجتماعية، وأن تتعهد الجهة المشرفة عليها بأن توفر لمنتسبيها الوسائل التي تمكنهم من بناء الدور الملائمة لهم وتجهيزهم بالأثاث المناسب.

يجب أن لا ننسى أن طلاب الزواج عندنا لا تقتصر مشاكلهم على اختيار

(1) انتشر الزواج الحاسوبي هذه الأيام انتشاراً ليس قليلًا وهناك الآن قناة فضائية اسمها (زواج) تقوم بترتيب الزواج بين أي فتى وفتاة على الكرة الأرضية بعد إشعارهما القناة بالصفات التي يريدانها في زوج المستقبل.

الـزوج أو الزوجـة، بـل هي تشـمل مشـاكل المهر وتوفير المسـكن الملائم وما ينبغي له من أثاث، وهي مشـاكل وصلت إلى القمة من حيث معاناة الناس لها في مجتمعنا.

إن المهور أصبحت الآن موضع تفاخر ومباهاة بين الناس[1]، فالفتاة ترغب في الزواج طبعاً ولا تريد أن يقف في طريق زواجها مانع من مهر أو غيره ولكن القيـم الاجتماعيـة السـائدة بين الناس تجعل أهل الفتـاة يطالبون بالمهر الضخم لها[2]، إذ هم يتسـاءلون مع أنفسـهم: (لماذا حصلت بنت فلان على ذلك المهر الكبيـر، وهـل هـي أفضـل من بنتنا، وماذا نقول للناس إذا قبلنا بمهر لها هو أقلّ من مهر بنت فلان؟!).

إن هـذا هـو سـر التصاعـد الهائل الذي نراه الآن فـي المهور، ومن الجدير بالذكـر أن العـراق الآن يشـهد ثـورة اقتصادية كبـرى وقد ظهر فيه أغنياء كثيرون قادرون على توفير المهور العالية، ولكن المشكلة ليست في هؤلاء الأغنياء بل هي في الذين لا يتمكنون من توفير هذه المهور العالية.

أما مشكلة السكن فهي أكثر استعصاء وإعضالاً من مشكلة المهور، وتأتي بعدها مشكلة الأثاث، والواقع أن الأثاث أصبح كالمهور موضع تفاخر ومباهاة بين الناس، وكلّ واحد منهم يريد أن يبزّ غيره بفخامة الأثاث الذي يزيّن بيته.

وعلـى كلّ حـال فـإن هذه المشـاكل التي تحف بالـزواج عندنا قد نجد لها حلاً عن طريق الزواج الحاسوبي الذي نأمل انتشاره في بلادنا قريباً. إن النوادي التي تنشأ لهذا الغرض سوف تقوم على غير الأسس التي اعتاد عليها الناس في

(1) الواقع أن المهور بلغت مبلغاً كبيراً من الثقل على طالب الزواج، إذ صار أهل البنت يطلبون المهر بأوزان كبيرة من الذهب، وبمبالغ عالية بالدولار أو اليورو، مما جعل أغلب الشباب يعزفون عن الزواج، ولكن ظهرت حالات مضادَة لا تطلب فيها أسرة البنت من الشاب المتقدم للزواج من ابنتها إلا أشياء رمزية بقدور أي شاب تقديمها، مثل نسخة من القرآن الكريم أو دينار واحد فقط، ومن المؤسف أن هذه الحالات ظلّت نادرة جداً، واستمرّت المهور العالية هي السارية، على الرغم من الظروف الصعبة التي يمرّ بها المجتمع العراقي بعد الاحتلال.

(2) في المجتمع العراقي يقع المهر وتكاليف الزواج كلّها على عاتق أسرة الزوج ولا تتحمل أسرة الزوجة أي شيء، في حين أن هناك مجتمعات، منها عربية، تقع فيها معظم تكاليف الزواج ونفقاته على أهل الزوجة، فلا تظهر فيها مشكلات العزوف عن الزواج على نحو ما نشاهده في المجتمع العراقي.

الوقت الحاضر والتي أصبحت موضع التفاخر والتباهي بينهم.

إن نوادي الزواج الحاسوبي ينبغي أن تنحصر عضويتها في بداية الأمر في نطاق الخريجين والمثقفين، وهي يجب أن تعلن للناس أنها لا تقبل في عضويتها من يطلب المهور العالية أو التباهي بالحفلات الباذخة والأثاث الفخم، وهي كذلك يجب أن تكرس جهودها لإقامة مشاريع تعاونية لتوفير المساكن لأعضائها.

إني واثق أن هذه النوادي عند قيامها ستجد عوناً وتشجيعاً من الدولة وستمدها بالمال والتسهيلات المطلوبة، وإني أتخيل أن فورة اجتماعية كبرى سوف تظهر من جراء هذا التعاون بين الجهة المشرفة التي تساعدها الدولة ونوادي الزواج الحاسوبي[1].

قد يسأل سائل: لماذا تريد حصر نوادي الزواج الحاسوبي في نطاق الخريجين والمثقفين؟ ولماذا تحرم العوام وسواد الناس منها يا ترى؟.

الواقع أني لم أقصد حصر هذه النوادي بالمثقفين دائماً، بل قصدت حصرها بهم في بداية الأمر فقط، والسبب الذي يدعوني إلى ذلك هو أن كلّ موضة أو عادة جديدة لا يمكن انتشارها في المجتمع إلا إذا بدأت في أوساط الطبقة المحترمة فيه فهي عند ظهورها في تلك الطبقة تصبح موضع احترام وتقدير من أفراد الطبقات الأخرى وهم يحاولون تقليدها تدريجياً بمرور الزمن، أما إذا بدأت في الطبقات الأخرى فإنها تظل منحصرة فيها ولا يمكن انتشارها في المجتمع إلا نادراً[2].

إن هذا ناموس اجتماعي عام نستطيع أن نرى أثره في الكثير من أحداث التاريخ وأحوال الشعوب ويمكن أن نجد مثلاً واقعياً عليه في منشأ حجاب المرأة في المجتمع الإسلامي قديماً، فالمرأة المسلمة كانت في صدر الإسلام سافرة على نمط سفور المرأة البدوية والريفية في أيامنا ولكن الحجاب بدأ

---

(1) ظهر ما يسمى (الزواج الجماعي) الذي أخذت الدولة والجمعيات الخيرية تشجّعه، ثمّ أخذت مؤخراً منظمات مجتمع مدني كثيرة تدعمه، وهو مما يخفف تكاليف الزواج عن الشباب، فيعفيه من جزء منها، وهو إقامة حفلة باذخة بالمناسبة، ففي الزواج الجماعي تُقام حفلة كبيرة واحدة لمائة شخص أو أكثر.

(2) قال أحد السياسيين وهو يطّلع على هذا الرأي من الوردي: إنّ الوردي يؤمن بالتمايز الطبقي!!.

بـه متأخـراً عندمـا صـار موضة اجتماعية تتميز به الطبقـة العالية في المدن، وبذا أخذت الطبقات الأخرى تقلد تلك الطبقة في حجاب المرأة شـيئاً فشـيئاً حتى انتهى الأمر إلى ذلك الوضع العجيب الذي شهدناه في المدن العراقية في العهد العثماني وفي الفترة التي أعقبته.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن انتشار السفور الحديث في العراق في العقود الأخيـرة فهـو قـد بـدأ في أول الأمر بين المتعلمات من نسـاء الطبقة العالية، ثم صار ينتشر تدريجياً في نساء الطبقات الأخرى.

خلاصـة مـا أريـد قولـه فـي هـذا الصدد إن الـزواج الحاسـوبي إذا أريد له النجاح والانتشـار في مجتمعنا فهو يجب أن يبدأ بين الخريجين والمثقفين من شبابنا في أول الأمر، وهو بذلك سوف ينتشر بين الآخرين تدريجياً.

إنـي أريـد أن أصـرخ فـي الناس صرخة أرجو أن لا تكون كصرخة في واد أو نفخة في رماد - كما ورد في الأمثال القديمة.

فنحـن الآن نعانـي مـن المشـاكل الاجتماعية مثلما يعانيـه أي مجتمع آخر في هذه الدنيا، ومن المؤسف أن نرى صحفنا ومجلاتنا لا تولي هذه المشاكل الاجتماعية الاهتمام الكافي بل نراها مشغولة بمشاكل الشعر والأدب، كأن الدنيا قد خلت إلا من هذه المشاكل[1].

إن موضوع الزواج الحاسوبي الذي أطنبت فيه هنا ربما كان من المواضيع (التي) لا تجدي كثيراً، وهو من المواضيع (التي)[2] لا تستحق مثل هذا الاهتمام، ولكنه مع ذلك أكثر اتصالاً بواقعنا الاجتماعي من تلك المواضيع التي أكل الدهر

---

(1) كان الوردي ينتقد في كلّ مناسبة ما تصدره المؤسسات الثقافية من الشعر القديم والدراسات حوله وكتب النقد الأدبي للأعمال القديمة والحديثة والدراسات التاريخية والأدبية، ومرة انتقد إصدار ديوان الشاعر أمية بن أبي الصلت، وحيص بيص. وكان يقول: إن إصدار كتاب يكشف للناس المفاهيم المغلوطة التي يحملونها حول الطبيعة البشرية هو أهم من مائة كتاب من هذا النوع، وهو محقّ في هذا، فإن دراسة الناحية الاجتماعية ووضع الحلول لمشكلاتها مهمة جداً، وقد رأينا كيف أن التنمية الانفجارية التي حصلت في العراق في سبعينات القرن الماضي قد عانت من إخفاقات كبيرة وأصابت الدولة بخسائر مادية كبيرة لأنّ تنمية اجتماعية لم ترافقها.

(2) ربّما لم تكن هذه المواضيع تجدي نفعاً على أيام الوردي ولكنها، اليوم، أصبحت أمراً معاشاً، والملاحظ أن الوردي توقّع هذه المشكلة ودعا مبكراً إلى التفكير فيها والاستعداد لمواجهتها.

عليها وشرب والتي لا تجدينا نفعاً في فهم المرحلة الراهنة التي نعيش فيها.

إن مسيرتنا الحضارية محفوفة بالمشاكل من كلّ ناحية، وقد آن الأوان لكي نصبّ جهودنا الفكرية على دراستها بدلاً من دراسة البنيوية والسيّاب ونزار قباني.

الظلم الاجتماعي

حول الظلم الاجتماعي(1)

إن الظلم الاجتماعي الذي يقع بين البشر أنواع شتى كالظلم السياسي والظلم الاقتصادي والظلم الطبقي والظلم الشخصي، وقد كثر الحديث عن الظلم وأنواعه منذ زمن قديم، ولكن هناك نوعاً من الظلم غفل الناس عنه فلم يتحدثوا عنه إلا نادراً وهو الذي نسميه «الظلم الاجتماعي».

نقصد بالظلم الاجتماعي ذلك الظلم الذي ينشأ بين الناس من جراء بعض المعتقدات أو القيم أو المفاهيم السائدة فيهم والتي تجعل بعضهم يظلم بعضاً دون أن يكون للمظلومين أي ذنب يوجب ذلك. وهذا الظلم كان واسع الانتشار بين الناس في الماضي، ولكنه أخذ يتضاءل تدريجياً تحت تأثير الحضارة الحديثة.

من أهم معالم الظلم الاجتماعي هو المعاملة السيئة التي كان الناس يعاملون بها أصحاب العاهات ولاسيّما المصابين بعاهة العمى، فقد كان العوام قديماً يعتقدون أن الله حين يبتلي شخصاً بعاهة إنما يفعل ذلك عقاباً له على ذنب قام به أو لأنه يستحق العقاب لسوء نيته أو لؤمه[1]، وما زال الكثيرون من العوام متمسكين بهذا المفهوم الظالم حتى الآن، وحين ندرس الأمثال الدارجة نجد بعض معالم الظلم الاجتماعي واضحة فيها، كقولهم: «إذا شفت الأعمى

(1) قسّم الشيخ الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي صفات الأحمق إلى قسمين: أحدهما من حيث الصورة، والثاني من حيث الخصال والأفعال، فمثلاً يحكم على الشخص بالحمق إذا كان رأسه صغيراً رديء الشكل، لأنّ هذا الشخص في نظره يكون رديئاً في هيئة دماغه، وإذا قصرت رقبة شخص دلّ ذلك على ضعف دماغه وقلّته، وكذلك إذا كان مستدير الرأس واللحية، ولكنّ وجهه شديد الغلظ وفي عينيه بلادة فهو أيضاً من أبعد الناس عن الخير' فإن جحظتا فهو وقح مهذار.. ومن طالت عنقه ورقّت، فهو صياح أحمق جبان. ومن كان أنفه غليظاً ممتلئاً فهو قليل الفهم. ومن كان غليظ الشفة، فهو أحمق غليظ الطبع. ومن كان شديد استدارة الوجه فهو جاهل. ومن عظمت أذنه فهو جاهل طويل العمر. وحسن الصوت دليل على الحمق وقلّة الفطنة. واللحم الكثير الصلب دليل على غلظ الحس والفهم، والغباوة والجهل في الطول... الخ.. (انظر – أخبار الحمقى والمغفلين – دار المدى للثقافة والنشر – 2007).

كبه أنت مو أشفق عليه من ربه»[1] و«الله يعرف السلاية ويسوّد راسها»[2]، الخ...

وهناك أمثال عامية عديدة تتضمن احتقاراً لصاحب العاهة أو تشفّياً به، وهي تلك الأمثال الموجهة نحو الأعرج والأعور والأقرع وغيرهم، ومن أبشعها قولهم يخاطبون الفتاة العرجاء: «عرّوجة بنتي كلّ البنات تزوجن ظليتي إنتي»[3].

هناك قصة كنت في طفولتي أسمع الناس يتداولونها وينسبونها إلى النبي موسى، وفحواها أن موسى شاهد ذات مرّة صبياناً يسبحون ويمرحون على شاطئ النهر، وكان بينهم صبيّ أعمى لا يستطيع أن يجاريهم في سباحتهم ومرحهم، فرقّ قلب موسى على هذا الصبيّ وسأل الله أن يعيد إليه بصره، وقد استجاب الله لموسى، ولكن الصبيّ لم يكد يرجع إليه البصر حتى صار يعتدي على رفاقه الصبيان وأغرق بعضهم، وعند هذا قال الله لموسى مرشداً له: «لا تظن أني أعميت هذا الشاب بلا سبب، فهو شرير، وفي فقده بصره حكمة، فلا تسألني بعد هذا بما لا علم لك به»، فتاب موسى إلى ربه وأيقن أن الله لا يفعل شيئاً إلا لحكمة يراها فيه[4].

إن هذه القصة لها مغزاها الاجتماعي الكبير، فهي مثال صارخ على الظلم الاجتماعي الذي كان شائعاً بين الناس في الماضي، وما زالت بقية منه موجودة بينهم حتى الآن مع الآسف الشديد!.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن العاهات بوجه عام، والعمى بوجه خاص، هي أكثر انتشاراً بين الفقراء منها بين الأغنياء، وذلك لانتشار الأمراض

(1) العجيب أني رأيت علماء دين لا يساعدون الفقير، وخاصة إذا كان هذا الفقير أعمى، قائلين: إنّ الله أراد له هذا المصير، فهل نتدخل نحن لتخليصه من الإرادة الربانية؟!! والمثل الذي أورده الوردي شعبي بغدادي معناه: (إذا رأيت الأعمى فكبّه على الأرض، فأنت لست أشفق عليه من ربه الذي خلقه).

(2) السلّي ومفردها سلاية أشواك مدببة الرأس تخز موجودة في عرانيص التمر، والمثل عراقي شعبي معناه: إن الله يعرف أن الشوكة مؤذية لذلك جعل الجزء المدبب فيها أسود.

(3) مثل شعبي عراقي آخر تُخاطب فيه أم ابنتها العرجاء قائلة لها: (يا ابنتي العرجاء إنّ أقرانك من البنات تزوجن وأنت لم تتزوجي إلى الآن بسبب عاهتك وعوقك!!!).

(4) الواقع أن لهذه القصة ارتباط بالمثل الشعبي العراقي الذي أورده الوردي (إذا شفت الأعمى كبّه أنت مو أشفق عليه من ربّه)، كما أن لها مغزى آخر فهي تبين روح الانتقام لدى الشخص الذي يُظلم، وهو عندما يتمكن من الذين ظلموه ينتقم منهم بقسوة.

فيهم، وكثرة القذارة والذباب في بيوتهم، وسوء التغذية لديهم، وعجزهم عن مراجعة الأطباء، ولكن الناس لم يكونوا يفهمون ذلك بل كانوا يعزون سبب العاهات إلى غضب الله على أصحابها.

مفاهيم ظالمة أخرى:

لم يقتصر احتقار الناس على صاحب العاهة فقط، بل شمل كذلك صاحب الوجه الدميم، وقد شاع بين الناس قديماً علم يسمى «علم الفراسة»[1]، الذي صدرت فيه عدة مؤلفات، وحين نقرأ هذه المؤلفات نرى الظلم الاجتماعي واضحاً فيها.

من أهم المفاهيم التي يقوم عليها علم الفراسة القديم هو أن الوجه الحسن يدل على الخلق الحسن في صاحبه كما أن الوجه الدميم يدل على الخلق السيء فيه.

وقد تبين الآن علمياً أن هذا المفهوم مغلوط من أساسه، فليست هناك أية علاقة مباشرة بين أخلاق الإنسان وشكل وجهه، ولكن الناس حين يحتقرون الدميم ويعاملونه معاملة ظالمة قد يؤدي ذلك إلى نشوء عقدة نفسية فيه، وهذه العقدة بدورها قد تؤدي إلى نشوء سوء الخلق فيه، ومعنى هذا أن الناس هم الذين يجعلون الدميم سيء الخلق بمعاملتهم الظالمة له، غير أنهم يجهلون ذلك ويعتبرون سوء الخلق فيه طبيعة ثابتة خلقها الله فيه.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن معاملة الناس لابن الزنا، فهم يحتقرونه ويشتمونه دائماً مع العلم أنه غير مسؤول عما فعلته أمه، وهو لا يختلف في طبيعته عن غيره من البشر، ولكن الناس اعتادوا أن ينسبوا إليه سوء الخلق فيضطرونه إلى أن يكون كذلك قليلاً أو كثيراً.

---

(1) علم الفراسة من العلوم التي لم تكتمل بعد، لأنه يعتمد على تأملات ميتافيزيقية وحدس ظني، تناوله العلماء بالبحث من وجهات نظر مختلفة فهو عند الصوفية غيره عند الفلاسفة المشرقيين والغربيين المحدثين غيره عند علماء الاجتماع وكتب هؤلاء عنه مئات المؤلفات تحمل عناوين مختلفة وآخر ما بلغنا في هذا المجال ما كتبته (مريم نور) ولعل أقدم طبعة لكتاب يحمل اسم علم الفراسة هو كتاب جرجي زيدان.

وهناك مجال آخر يظهر فيه الظلم الاجتماعي هو احتقار المستضعف الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه تجاه من هو أقوى منه بدناً، وهذا الظلم كان واسع الانتشار عندنا في العهد العثماني وما زالت بقاياه موجودة فينا حتى الآن[1].

ففي ذلك العهد كان الناس يقدّرون الشقي[2] القوي الذي يغلب ولا ينغلب، فهم كانوا يسمونه «سبع»[3] و«زلمة»[4] و«رجال ليل»[5] وإذا مرّ بهم قاموا له احتراماً وردوا له التحية بأحسن منها، بينما هم كانوا يعاملون المستضعف بازدراء وإهانة ويصفونه بـ«المخنث»[6] و«المكفخ»[7].

إني شهدت في حياتي كثيراً من الحوادث التي يعتدي فيها رجل قوي على رجل ضعيف، فالقوي ينهال على الضعيف صفعاً وضرباً وركلاً، وعندما يسأله أحد عن سبب اعتدائه يبرر فعله بأن المعتدى عليه قد نطق بكلمة نابية أو فيها كفر أو بطر، والواقع أن سبب اعتدائه لم تكن تلك الكلمة حقاً.

فهو يسمع مثل تلك الكلمة من أفواه الناس كثيراً فلا يرد عليهم، أو هو

---

(1) في عام 1989 ذهبنا مع الدكتور علي الوردي، إلى مدينة النجف حيث ألقى محاضرة في قاعة نقابة المعلمين فيها، وبعد انتهاء المحاضرة دعاني إلى جولة معه في أزقة المدينة حيث انفردنا عن الصحب وكان معنا السيد جواد الحبوبي المحامي.. قادني الوردي إلى أزقة محلة المشراق ووقف بي أمام بيت قديم هناك، وقال لي: إنه كان صغيراً جداً عندما جاء مع أهله إلى هذا البيت لزيارة أبيه الذي كان يسكنه بعد هربه من مدينة الكاظمية بسبب التجنيد الإجباري الذي فرضه العثمانيون خلال الحرب العالمية الأولى والذي أطلقوا عليه اسم «السفر برلك» وهناك اشترى له والده بندقية من الخشب أحبها وأخذ يخرج بها ليلعب مع أقرانه في الطريق فهجم عليه صبيان أكبر منه أخذا منه بندقيته الخشبية بعد أن ضرباه وهربا فعاد إلى أهله يبكي.. وعدّ الوردي هذه الحادثة أول حادثة ظلم اجتماعي حصلت له في حياته، وقد رواها لي بتأثر شديد.

(2) الشقي: هو من يسمونه في مصر «الفتوة» وفي بلاد الشام «القبضاي».

(3) سبع: يشبهونه بالأسد.

(4) زلمة: الرجل القوي.

(5) رجال ليل: رجل ليل.. لا ينام في الليل وإنما يغزو أو لا يخاف من التجول في الطرقات ليلًا.

(6) المخنث: هكذا يكنون في العراق المستضعف الذي لا يستطيع أن يحصل على حقه بيده.

(7) المكفخ: الكفخة هي الضربة على الرأس باليد ولكن هذه التسمية كناية عن المستضعف أيضاً فهو يُضرب ولا يَضرب.

قد يؤيدهم على ما نطقوا به إذا كانوا أقوياء أو من أولي الجاه أو المال، إنه لا يعتدي إلا على المستضعفين الذين يشعر هو بالقدرة عليهم، وهو لا يعتبر فعله اعتداء بل يعتبره دفاعاً عن الحق والحقيقة أو محافظة على القيم العالية.

أعرف حادثة من هذا النوع حدثت منذ عهد قريب، وقد رأيت المعتدي يتحدث عن اعتدائه بكلّ صراحة ويذكر كيف أخذ يصفع الرجل الضعيف ويرميه أرضاً ويكيل له الضربات والركلات، إنه ذكر السبب الذي دعاه إلى ذلك فكان سبباً بسيطاً جدّاً، ولو أنه واجه مثل هذا السبب من شخص أقوى منه لسكت عنه، ولكنه وجده ضعيفاً فانبعثت من أعماق نفسه نزعة الغلبة والاعتداء..

يجب أن لا ننسى أن أمثال هذه الحوادث كانت كثيرة في العهد العثماني[1] وهي أخذت تقلّ بعد ذلك تحت تأثير القيم الحضارية الحديثة.

يمكن القول بوجه عام إن الظلم الاجتماعي في جميع معالمه يستفحل في المجتمعات التي يسودها الجهل والتخلف، وكلّما ارتفع المجتمع في مستواه الحضاري والثقافي قلّ الظلم الاجتماعي فيه.

وسوف أحاول (هنا) دراسة الظلم الاجتماعي في مجالات أخرى، وأبدأ بالمجال الذي يتعامل الناس فيه مع الفاشلين في حياتهم.

إنّ الحياة الاجتماعية هي في حقيقة أمرها معركة مستمرة يتنافس الناس فيها للوصول إلى المكانة العالية فيها، فينجح القليلون منهم ويفشل الكثيرون، وتلك سنّة الله في أرضه منذ خلق البشر حتى يومنا هذا، فليس في مقدور أي نظام اجتماعي - مهما كان - أن يجعل الناس كلّهم ناجحين في حياتهم، ولا بد أن يكون فيه الناجحون والفاشلون على وجه من الوجوه.

إنّ النظام الاجتماعي يمكن أن يكون قادراً على توفير الحاجات المادية للناس جميعاً في المستقبل القريب أو البعيد، غير أنه لا يستطيع أن يحقق للناس

---

(1) أدركت أواخر عهد الشقاوات في الستينات وشاهدت أحدهم ينهال ضرباً على بقال يبيع الفواكه في عربة يجرها ويأخذ منه كمية من الفواكه (خاوة)، وقد سمعت هذا (الشقاوة) مرة يتحدّث بكلام بذيء عن والدي - كان عمري لا يتجاوز السبع سنين - فضربته على رأسه بحجر وأدميته ثم هربت والتجأت إلى جامع قريب، هو جامع الشريف الرضي في الكاظمية قبل تجديده، وخلصت نفسي من بطشه!.

كلّ ما يطمحون إليه من جاه أو نفوذ أو مكانة عالية، وهنا يجب أن لا ننسى أن الإنسان ليس كالحيوان تقتصر حاجاته على النواحي المادية فقط، بل هو يطلب دائماً رفعة الأنا في نظر الآخرين.

من الأخطاء الشائعة التي كانت متداولة بين الناس قديماً قولهم: «كلّ من جدّ وجد»، و«كلّ من جال نال»، والواقع أن هذه الأقاويل المغلوطة أدّت إلى الكثير من الظلم الاجتماعي بين الناس، فهم يحسبون أن النجاح في الحياة هو حصيلة الجدّ والمثابرة والدأب، ولهذا رأيناهم يقدّرون الناجح في حياته، إذ هم يعتبرون نجاحه حصيلة الجدّ والمثابرة، فهم يضربون به المثل ويطلبون من أبنائهم أن يقتدوا به، والأدهى من ذلك أن الناجح نفسه قد يغتر بنفسه ويشمخ بأنفه ويتعالى على الناس قائلاً: «انظروا إلى ما وصلت إليه من نجاح فهو كلّه نتاج تعبي وحسن تدبيري».. وقد رأينا من أمثال هذا كثيرين..

وفي الوقت الذي ينال فيه الناجح مثل هذا التقدير من الناس ينال الفاشل منهم الاحتقار والتقريع، فهم ينسبون إلى الفاشل السبب في فشله، وهو نفسه قد يصدق بما يقولون له فيلوم نفسه معهم أو يندب حظّه..

تبين الآن علمياً أن كلاً من الفاشل والناجح ليس مسؤولاً عن فشله أو نجاحه إلا في نطاق محدود، فهناك المواهب والقدرات الذكائية والنفسية لها دورها في نجاح الإنسان، كما أن الظروف والمصادفات التي يمرّ بها الإنسان في حياته لها دورها في نجاح أيضاً، ولكن الناس في تعاملهم مع الناجح والفاشل يجهلون ذلك ويعزون سبب النجاح والفشل فيهما إلى الجدّ وحده..

إن الناس في تقديرهم للناجح يمنحونه أكثر مما يستحق، وفي احتقارهم للفاشل يظلمونه.

معاملة المجرمين:

إن معاملة الناس للمجرمين والمنحرفين قديماً تشبه معاملتهم للفاشلين من بعض الوجوه، فمن يدرس ما كان يجري في السجون الأوروبية في القرون الوسطى يجد فيها من الظلم شيئاً كثيراً.

ومن يزر المتاحف الأوروبية الآن يجد فيها آلات التعذيب التي كانت

تستعمل مع السجناء وهي فظيعة جدّاً..

كان الناس في الماضي يحسبون أن المجرم قد صار مجرماً بإرادته واختياره، وهذا رأي قد اتضح خطؤه حديثاً[1]. إن شخصية المجرم هي كشخصية أي إنسان آخر نتاج التفاعل بين العوامل الموروثة فيه وعوامل البيئة التي عاش فيها، ولو كان أي واحد منا لديه نفس النوازع والدوافع النفسية الموجودة في المجرم وعاش في نفس الظروف التي عاش فيها لصار مجرماً مثله أو مقارباً له قليلاً أو كثيراً.

قال أحد علماء الاجتماع كلمة في هذا الشأن جديرة بالذكر هنا، هي: إننا في معاقبتنا للمجرم نظلمه لأنه ليس مسؤولاً عن إجرامه، ولكننا في عدم معاقبته نظلم المجتمع لأن إطلاق سراحه يجعل المجتمع عرضة لنزعته الإجرامية مرّة بعد مرّة.

إن الحكومات الحديثة تتبع في معاملة المجرم طريقة وسطى، فهي تحاول إصلاحه بدلاً من معاقبته، وهي تحاول حجره عن مخالطة الناس إذا وجدت في إطلاق سراحه ضرراً عليهم، ولكنها توفر له: في السجن كلّ ما يحتاج إليه من حاجات مادية أو ثقافية أو روحية باعتباره إنساناً كغيره من الناس.

معاملة المخالفين

أقصد بالمخالفين أولئك الذين يخالفوننا في معتقداتهم الدينية، وقد كان الناس قديماً يحسبون أن الإنسان يعتنق عقيدته الدينية بإرادته واختياره، وهذا رأي يخالف ما جاء به العلم الحديث كما يخالف ما ورد عن النبي محمد (ص)

---

(1) كذلك ينظر الوردي إلى البغايا أيضاً، فهو يعد أن البغي قد أصبحت كذلك ليس بإرادتها واختيارها.. وقال في محاضرة عقدت في النادي الثقافي للأرمن عام 1989 وكان يحضرها عدد من علماء الدين المسلمين ورجال الدين المسيحيين وجمهور من النساء والرجال: «إن البغي لم تصبح كذلك بإرادتها واختيارها، وأنا أعرف أناساً من التجار متدينين كانوا يقدمون المساعدات المالية السخية للبغايا إدراكاً منهم أن بهنّ حاجة إلى هذه المساعدة، بل إني أعرف عالم دين هو جالس معنا هنا – وذكر اسمه – درس مشاكل البغاء والبغايا ميدانياً». وقد التفتنا جميعاً إلى ذلك العالم الذي كان قد غمره الخجل وبدا عليه الإحراج، وكان ذلك العالم هو الشيخ جلال الحنفي الذي التفت إليه الوردي قائلاً: هل تسمح لي يا شيخ أن أروي الحادثة؟.. فردّ عليه الحنفي: وماذا أبقيت يا وردي؟!!.

إذ قال: «يولد المرء على الفطرة إنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه».

إن الإنسـان فـي الغالـب يأخـذ عقيدتـه الدينية من البيئة المحلية التي ينشأ فيها، وليست له أية إرادة أو اختيار فيها، ولكن الناس قديماً لم يكونوا يفهمون ذلك، وهذا هو سبب المذابح والاضطهادات الطائفية التي امتلأت بها صفحات التاريخ.

إن المذبحـة الكبـرى التـي جرت على البروتسـتانت في فرنسـا عام 1572، وهـي التـي سـميت «مذبحـة سـان برثلميـو»[1]، تعطينـا نموذجـاً واضحـاً للظلم الاجتماعي، وهناك نموذج آخر رأيناه في العهد العثماني وهو الذي جرى على طائفـة اليزيديـة[2] الذيـن يسـكنون في شـمال العراق، فعندما وقـع العراق تحت وطأة الحكم العثماني في القرن السادس عشر، أصدر مفتي الدولة فتواه في أن اليزيديـة أشـد كفـراً مـن الكفار الأصليين، وأن جهادهـم أكثـر ثواباً من العبادات الدينيـة، وأنهـم يجـب أن يقتل رجالهم وتسـبى نسـاؤهم وأطفالهم، وكانت هذه الفتوى سبباً في الاضطهادات والمذابح المتتابعة التي حلت باليزيدية طيلة العهد العثماني الذي استمرّ نحو أربعة قرون..

إن الفرد اليزيدي لم يكن يزيدياً بإرادته واختياره، على نحو ما أشـرنا إليه آنفاً، فلو أن أي واحد منا نشأ في بيت يزيدي وفي بيئة يزيدية لصار يزيدياً ولهذا فإن من الظلم معاقبته على أمر لا إرادة له فيه.

إن التسـامح مـع المعتقـدات الدينيـة علـى مختلـف أنواعها هـو من معالم

(1) Massacre de la Saint–Barthélemy هي المذبحة التي جرت في باريس ليلة 24 اغسطس 1572 وراح ضحيتها الآلاف من أتباع الحركة الإصلاحية البروتستانتية.

(2) الإيزيديين أو اليزيديين (بالانجليزية: Yazidi)، (بالكردية: Êzidî أو ئێزیدی) هم أتباع طائفة دينية في الشرق الأوسط ذات أصول قديمة. ويعيش أغلبهم قرب الموصل ومنطقة جبال سنجار في العراق. وتعيش مجموعات أصغر في تركيا، سوريا، إيران، جنوب اليمن ،جورجيا وأرمينيا. ولم يحدد اصل واضح لليزيدين فاللغة الرسمية لديهم هي الكردية ويتحدثون بالعربية أيضا، أزيائهم الرجالية قريبة للزي للعربي وازيائهم النسائية سريانية ومن الاراء أن اصولهم آشورية بسبب وجود تماثيل ورموز في ديانتهم مشابها لما موجود بالديانة الآشورية القديمة وان أماكن سكناهم الحالية حول مكان عاصمة الآشوريين الأثرية نينوى. وكما تجد ان هناك الكثير من الامور المشتركة بينهم وبين السريان/ المصدر ويكيبيديا.

الحضـارة الحديثـة، فالحكومـات الحديثـة تجـري في معاملة رعاياها على سـنة المساواة التامة بينهم بغض النظر عن معتقداتهم المختلفة.

إن الحكومـة التـي تميـز بيـن رعاياها على أسـاس مـن المعتقد الديني هي حكومة لا تليق أن تعيش في هذا العصر الحديث..

الأسلوب الوعظي(1)

يحكـى أن أعرابيـاً مـرّ بمكتبـة مليئـة بالكتـب من النمط القديـم، فقال إني أعرف كلّ ما في هذه الكتب فهي كلّها تقول للإنسـان «يا ابن آدم صير خوش آدمي»[1].

إن كلمة هذا الأعرابي على سذاجتها تصوّر لنا بعبارة موجزة منهج القدماء فـي الوعـظ والتوجيـه. فهـم يطلبـون من الإنسـان أن يكون صالحـاً، ولكنهم لا يحاولون البحث عن السبب الذي جعل الإنسان طالحاً.

إنّ الإنسان مجبول على طبيعة معيّنة لا يمكنه التحوّل عنها مهما حاول.. وقـد جـرى النـاس علـى طبيعتهم هـذه منذ خلقهم الله علـى وجه هذه الأرض، وسيظلّون يجرون عليها حتى قيام الساعة التي لا ندري متى ستقوم؟!.

إن الإنسـان فـي سـلوكه العملـي لا يتأثّـر بالمواعـظ والخطـب التـي تلقى عليـه، بـل هـو يتأثـر في الدرجـة الأولى بالقيـم الاجتماعية السـائدة في محيطه المحلّي[2].

إن الأنويـة فـي الإنسـان، كمـا ذكرنا، تجعله يسـعى نحو ارتفـاع مكانته أو سـمعته بيـن النـاس. وهـو لذلـك لا يهتمّ بالمواعظ التي تلقـى عليه ما دامت لا تنفعه في رفع مكانته أو سمعته، وهو لا يكاد يرى فيها نفعاً من هذا النوع حتى يأخذ بالانصياع لها والتأثر بها في تفكيره وسلوكه.

لنذكـر علـى سـبيل المثـال طبيعة المجتمـع الذي كنا نعيش فيـه في العهد

(1) عبارة ريفية عراقية تعني: «أيها الإنسان كن خيراً وصالحاً». والحكاية التي يرويها الوردي عن ذلك الأعرابي يكثر العراقيون من ترديدها وروايتها وهي تجري على ألسنتهم مجرى المثل عندما يريدون أن يعظوا أحداً، ولكن الوردي رواها بأكثر من صيغة ففي حديث مسجل له في مجلس رواها على أن الأعرابي كان يجلس في مجلس وعظ..

(2) لا يعني ما يقوله الوردي أن الإنسان لا يتأثر بالمواعظ تماماً، فهو يتأثر بها قليلًا، ولكنه يتأثر بالقيم الاجتماعية التي نشأ عليها بنحو أكبر.

العثماني، فقد كان الناس حينذاك يقدّرون «الشقي[1]» الذي يبز أقرانه بقوته وشجاعته وجرأته. فكان الشقي يمشي بينهم مرفوع الرأس شامخ الأنف، وهم يشيرون إليه بالبنان ويبالغون في تحيته ومجاملته.. إنه اعتاد أن يسطو على البيوت ويقطع الطريق ويفرض الأتاوة على التجار، ولكنه كان في الوقت نفسه ذا نخوة وشهامة يحمي جاره ويدافع عن محلته ضدّ أعدائها ببسالة لا تضاهى.

مما أتذكره في هذا الصدد أن أحد الأشقياء المعروفين كان جاراً لجدّي. ولهذا كان جدّي وأسرته في أمن وسلامة لا حدّ لها، والويل لمن كان يجرأ على السطو على بيت جدّي. فإن جاره الشقيّ يعتبر ذلك عاراً عليه وثلباً من رجولته وشهامته حسبما تقضي به القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في الناس في تلك الأيام.

إن القيم الاجتماعية كانت حينذاك توجه الفرد منذ طفولته نحو تقدير هذا النمط من السلوك. وكان الكثير من الأطفال الذين ينشأون على مثل هذه القيم يجعلون من «الشقي» قدوة لهم، وقد يحاول بعض منهم[2] أن يكون في كبره شقياً إذا كان يملك المقدرة على ذلك.

يروي المرحوم عبد الكريم العلاف[3] في كتابه «بغداد القديمة»[4] أن شقياً

---

(1) إذا كان الوردي قد أدرك الناس الذين يقدّرون الشقي ويهابونه، فقد أدركنا نحن الناس الذين يسخرون من (الشقيّ)، فالدنيا تغيرت والقيم الاجتماعية تبدلت وصار الناس سواسية في ظلّ أنظمة وقوانين تسري على الجميع من دون استثناء.

(2) في الأصل: البعض منهم.

(3) عبد الكريم العلاف (1896–1969) خبير في التراث الشعبي، ولد وتعلم في بغداد، أسهم في إصدار صحف ومجلات، واشتغل في الحقول الفلكلورية منذ منتصف العشرينات بجمع ما يتصل بالغناء الريفي والبدوي وتراث القرى زراعياً وصناعياً واجتماعياً، وكتب عن الخرافات والتقاليد التي بقيت في الأذهان شفاهاً، ونقلت عنه روايات نشرت، فيما بعد، في مجلات عربية وعالمية، وجمع أرشيفاً هائلاً من المعلومات عن تطوّر الفن الشعبي في الكلمة والآلة.. وصفه حميد المطبعي في موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين بأنه كان وحده موسوعة تراثية فلكلورية تعكس أصالة اختصاصه ومعاناته في هذا الميدان. وكان محل خبرة في الصحافة العراقية طبع من كتبه (موجز الأغاني العراقية) عام 1930 و(الأغاني والمغنيات) و(بغداد القديمة) و(أيام بغداد) و(قيان بغداد في العصر العباسي والعثماني الأخير) وله كتب مخطوطة.

(4) «بغداد القديمة» تفاصيل عن عباس السبع ومقتله، ص 134.

مشهوراً في أواخر العهد العثماني اسمه «عباس السبع» قتل في أثناء معركة جرت بينه وبين الشرطة[1]. وقد ربطت الشرطة جثة الشقي بذيل حصان وصار الحصان يسحب الجثة في الطرقات. إن الشرطة أرادت بعملها هذا أن تجعل مصير هذا الشقي عبرة لغيره من الناس لكي لا يقتدوا به في سلوكه غير أنه صار في الواقع على العكس مما أرادته الشرطة.

يقول العلاف إن الناس صاروا يبكون على الشقي، وسارت خلف جثته جماعة منهم وهم يطلقون هوسة هي: عباس السبع يا مطيّع التجار.. كما صارت النساء يلطمن حول الجثة قائلات: «يا أهل الزود اطلعوا ثارت الجيلات»[2].

كان الناس يمدحون عباس السبع بوصفه «مطيّع التجار»، في أنه كان يفرض الإتاوة - أو ما كانوا يسمونه (الخاوة) - على التجار. فتلك صفة كانت تدعو إلى الفخر في تلك الأيام. وكلّما ازداد عدد التجار الذين يدفعون الإتاوة للشقي ازداد ارتفاع مكانته في نظر الناس.

---

(1) روى الباحث التراثي أنور عبد الحميد الناصري قصة عباس السبع ومقتله في كتابه (سوق الجديد) في الجزء الأول ص: 248-249 بشيء من الفخر لكونه ينتسب إلى محلته (سوق الجديد)، فهو يقول: (عباس السبع بطل لا يهاب سطوة الحكام، ولا يخشى قوة الجنود، فقد قتل «كدرون جاوش» من رجال الجندرمة الأشداء كما قتل العديد من أفراد تلك الفئة.. وكان أهل المحلة يستبشرون بهذه الأخبار ويفتخرون بأعمال ابن محلتهم، ولم لا؟! ألا تنعم بسببه بالأمان والاطمئنان؟! أوليس القتلى من أفراد الجندرمة السيف المسلط على الناس من قبل الوالي؟! وهل الوالي غير جابي المال؟! أليس هؤلاء الولاة ممثلي الظلم والقهر، الذين لم يفكر أحد منهم بتقديم خدمة للبلاد وأهلها؟! ألم ينشر هؤلاء الولاة الجهل والمرض والخراب في الناس؟! إذن فالانتقام من هؤلاء أو ممن يمثلهم مشروع، وهكذا سلك هذا الطريق عباس السبع.. حاصرته الدورية من رجال البوليس والجندرمة هو وزميله خماس الشهير (ابن شالة) فاصطدما معها، وقاوما حتى نفد عتادهما فلجئا إلى مسجد - فرج الله - في محلة بني سعيد في الرصافة فدخل رجال الدورية المسجد ولم يكن عندهما ما يدافعان به فقتلهما الجندرمة ثم مثلوا بهما تمثيلاً شنيعاً ثم شدّ كلّ منهما إلى حصان يسحبه في الشوارع)..

(2) يقول الباحث أنور الناصري - المصدر السابق - «لم يكن من المألوف خروج النساء لتشييع الجنائز، إلا أنهن برزن عند تشييع - عباس السبع -» أبرز أشقياء بغداد ابن محلة سوق الجديد الذي قتل غيلة في أواخر سنة 1909 م لذا فقد تقدمت الجنازة مواكب النساء وهن يندبنه:

«يهل الزود اطلعوا ثارت الجيلات»

و«جيته غفل يا وسخ الردان

جيته غفل والفشك خلصان»

و«عباس السبع يمطيّع التجار» وغير ذلك من الهوسات.

قصدي مما ذكرته آنفاً أن أشرح للقارئ كيف أن القيم السائدة في المجتمع لها الأثر الأكبر في توجيه سلوك الناس.. ومعنى هذا أن المواعظ إذا كانت تدعو الناس إلى مخالفة تلك القيم فإنها لا تؤثر فيهم شيئاً، أو هي قد تؤدي إلى ظهور ازدواج الشخصية فيهم.

كنت ذات يوم – منذ نصف قرن تقريباً – جالساً في مقهى محلي أستمع إلى أحاديث الجالسين فيه من أهل المحلة. وكان الحديث الذي يدور بينهم حول خطبة وعظية ألقاها واعظ معروف في مسجد قريب. فهم كانوا معجبين كلّ الإعجاب بتلك الخطبة وبالأسلوب البليغ الذي ألقيت به، وهي في موضوع الأخلاق الفاضلة التي جاء به الإسلام كالحلم والتقوى والتسامح ورد السيئة بالحسنة.

وفي الوقت الذي كان فيه الجالسون يمدحون الواعظ وموعظته مرّ في الزقاق شقي معروف فصاروا يمدحونه أيضاً ويبدون إعجابهم ببطولته. ومن جملة ما قالوا عنه وصفهم له أن «في بطنه سبع دموم وكانوا يقصدون بذلك أنه قتل سبعة من أعدائه[1].

إن هؤلاء الناس يخضعون في سلوكهم العملي للقيم الاجتماعية السائدة في مجتمعهم المحلي من حيث تقدير الرجل «السبع» واحتقار «المخنث» و«المكفخ» ولكن المواعظ التي تلقى عليهم تدعوهم إلى النقيض من ذلك، والواقع أن هذه المواعظ لا تؤثر في سلوكهم، إنما هي تجعلهم في أقوالهم مختلفين عنهم في أفعالهم، فهم حين يتواعظون فيما بينهم يقدّرون أخلاق التقوى والعفو والرحمة التي جاء بها الدين. أما من حيث سلوكهم الواقعي فهم يقدّرون الأشقياء الاعتدائيين.

إن الأسلوب الوعظي يقوم على أساس اتضح خطؤه الآن علمياً، إذ يخاطب

(1) يرى الوردي أن سبب احترام الشقي في تلك الأيام تشير إلى العداء الذي كان مستحكماً بين الشعب والحكومة في العهد العثماني. وهذا أمر لا غرابة فيه لأن السلطة الحكومية والعصبية القبلية متناقضتان، فما يدعم إحداهما يؤدي إلى توهين الأخرى. وإن العوام كانوا يفتخرون بعصيانهم للحكومة وتحدّيهم لأوامرها..

الإنسـان باعتباره حيواناً عاقلاً على نحو ما تصوّره الفلاسـفة القدامى[1]، أي أن الإنسان يمكن التأثير عليه عن طريق النصح والدليل العقلي.

يجـب أن لا ننسـى أن الإنسـان هـو أخـو القـرد أو ابن عمـه، إنه يميز عن القـرد بوجـود مقـدرة التفكيـر فيـه. ولكـن هـذه المقدرة ليسـت مطلقـة بل هي محدودة وتكمن تحتها عوامل لاشـعورية متنوعة تلعب بها ما تشـاء. ومن أهم تلك العوامل اللاشعورية هي الأنوية، وهي التي تجعل الإنسان يسعى نحو رفع مكانته بين الناس حسب القيم الاجتماعية السائدة بينهم.

إننا حين نريد أن نؤثر في الإنسـان أو نصلحه يجب أن نتسـلل إلى عقله من خلال عوامله اللاشعورية. أما إذا أردنا مخاطبته بالأدلة العقلية وحدها فإننا لا بد أن يكون مصيرنا الفشل.

وفـي رأيـي أن الأسـلوب الوعظي هو من جملـة العوامل التي تعرقل علينا فهـم الحضـارة الحديثـة والتـلاؤم معهـا. وقد حان الوقت لكـي ندرك ذلك قبل فوات الأوان.

ومـن المؤسـف أن نـرى بعـض كتابنا ومؤلفينا لا يزالون يتبعون الأسـلوب الوعظي في كتاباتهم بالرغم من أنهم يعيشون في أواخر القرن العشرين.

إن الـذي يريـد تغييـر أخـلاق الناس يجب أن يغير قيمهـم الاجتماعية بدلاً من إمطار الخطب الرنانة على رؤوسهم..

---

(1) إنّ علماء الدين عندنا مازالوا في غالبيتهم يعظون الناس على الطريقة القديمة، من دون النظر إلى ما يجري حولهم من تطورات، وإن حاول بعضهم التجديد في الوعظ، ولكنهم ما زالوا يمجّدون العقل ويتعاملون مع الإنسان بكونه حيواناً عاقلاً، ولذلك تجد أنهم يعتمدون على قصص خراقية ويروونها في وعظهم مما يثير سخرية أبناء هذا الزمان.

حول تغيّر القيم الاجتماعية(1)

إن تغيير القيم ليس بالأمر السهل، بل هو من أصعب الأمور. ولست أدّعي أني أعرف الطريقة الكافية والوافية في هذا الشأن، ولو كنت أعرف كيف أغير قيم الناس لصرت في حالة أفضل من هذه الحالة التي أنا فيها.

إننا حين ندرس ما فعله النبي محمد (ص)، وغيره من الأنبياء في جهودهم الإصلاحية ندرك أنهم لم يكتفوا بإلقاء المواعظ على الناس، بل كانوا هم أنفسهم قدوة عملية للناس في سلوكهم.

إن كلّ نبي لا يتبعه في بداية دعوته إلا القليلون من الناس، وهؤلاء القليلون يقتدون بالنبي في أفعاله كمثل ما يقتدون به في عقيدته الجديدة. وعندما تنجح دعوة النبي أخيراً، ويدخل فيها أتباع كثيرون، يكون الأتباع الأولون بمثابة القدوة للأتباع الجدد. وهذا لا بدّ أن يؤدي إلى تغيير القيم الاجتماعية فيهم قليلاً أو كثيراً.

أذكر على سبيل المثال حادثة بسيطة حدثت في المدينة في زمن النبي محمد (ص)، فقد تشاجر رجلان أمام النبي وشتم أحدهما الآخر قائلاً له: (يا ابن السوداء)[1].. فغضب النبي من الشاتم وقال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

إن هذه الحادثة صغيرة ولكنها من الناحية الاجتماعية ذات مغزىً كبير. فهي تدلّ على أن النبيّ لم يأت بعقيدة جديدة فقط، بل هو أتى أيضاً بقيم اجتماعية جديدة مناقضة للقيم التي كانت سائدة في الجاهلية.

كانت قيم الجاهلية تقدّر الفرد تبعاً لحسبه ونسبه ولانتمائه القبلي، وجاء الإسلام يدعو إلى تقييم الفرد حسب عمله الشخصي.. فالفرد قد يكون ابن

---

(1) هذه الحادثة كثيراً ما كان يرددها الوردي للتدليل على المساواة التي جاء بها الإسلام ونشرها بين أتباعه والتي جعلت الفقراء والمستضعفين، وهم القاعدة العريضة، يتمسكون به وبتعاليمه ويجاهدون لنشرها في أرجاء المعمورة.

سوداء ولكنه قادر أن يتفوّق بعمله الصالح على أبناء الأشراف[1].

حدث مرّة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن جاء إليه في مقرّه نفرٌ من الذين كانت لهم مكانة عالية في الجاهلية وطلبوا الإذن بالدخول عليه، فلم يأذن لهم، ثم جاء بعدهم نفرٌ من الذين كانوا في الجاهلية من المستضعفين والعبيد وارتفعت مكانتهم في الإسلام، فأذن لهم عمر بالدخول.. معنى هذا أن الخليفة جرى في معاملة الناس على أساس القيمة الشخصية لكلّ واحد منهم، وليس على أساس الحسب والنسب أو المكانة الاجتماعية التي كانت لهم سابقاً.

وهناك قصة أخرى تشبه هذه القصة في مغزاها الاجتماعي جرت في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، فقد بلغ الخليفة أن عامله في البصرة واسمه عثمان بن حنيف[2] ذهب إلى وليمة من تلك الولائم الباذخة التي تتصف بالتباهي والإسراف والتي يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء، فكتب إليه الخليفة ما نصه:

«أما بعد.. يا ابن حنيف: فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو.. ألا وإن لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد..».

إن هذه القصة تدلّ على أن الولائم الفخمة التي يتباهى بها الناس لا يمكن تغييرها بالكلام المجرد، بل هي يمكن تغييرها عن طريق القدوة العالية، وأعني بذلك أن أصحاب المكانة العالية في المجتمع هم الذين يغيّرون قيمهم، فيكونون بذلك قدوةً لغيرهم من الناس. قد يواجهنا في هذا الموضوع سؤال هو فيما يخص المرحلة الراهنة التي نعيش فيها، فقد كانت لدينا في العهد العثماني قيم عشائرية معينة، ثم جاءت إلينا الحضارة الحديثة بقيم أخرى تختلف عنها

(1) وهكذا رأينا بلالًا الحبشيّ وعمّار بن ياسر وسلمان الفارسي وغيرهم من المستضعفين في الجاهلية يتصدّرون المجتمع الإسلامي، ويتقدّمون على من كانوا بالأمس أسيادهم.

(2) ما من وليمة حضرناها إلا وردّد الوردي كلمات هذه الرسالة وذكر هذه الحادثة للحاضرين وكأنّه يريد إسماع صاحب الوليمة وإبلاغه موقف الإمام علي هذا.

أو مناقضة لها من بعض الوجوه، وصار كثير من الناس يسيرون على القيم الحضارية الحديثة، بينما ظل آخرون متمسكين بالقيم العشائرية القديمة.. فماذا نصنع مع هؤلاء وأولئك؟ هل نتركهم يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون أم نحاول توجيههم؟.. وما هي الطريقة التي يمكن توجيههم بها؟!(1).

إن هذا السؤال يحتاج إلى توضيح قبل الإجابة عنه. فالناس الآن لا يصحّ تصنيفهم إلى فريقين على نحو ما ورد في السؤال، أي محافظين باقين على القيم العشائرية القديمة. ومجددين أخذوا بالقيم الحضارية الحديثة.. فالواقع أن أكثر الناس في العراق هم بين بين، إذ هم في ظاهرهم حضاريون وفي باطنهم عشائريون(2).

فأنت الآن قد ترى أفندياً(3) مثقفاً يتقمص أحدث الأزياء ويسكن أحدث المساكن، ويتحدث عن أحدث النظريات والأفكار العلمية، ولكنه ما زال يتباهى بالولائم الفخمة، ويصر على أن يكون هو الذي يدفع النقود في المقهى أو المطعم، ويتبع قيم النخوة في الوساطات، ويلح في الدعوة إلى تناول الطعام وغيره..

إننا الآن في حاجة ماسة إلى الكشف عن مكامن هذه الازدواجية فينا(4)، وأن نحاول إظهار عيوبها ومخالفتها للحضارة الحديثة التي نسير اليوم في طريقها.

---

(1) انشغل الوردي بهذا السؤال إلى أواخر أيامه وعليه وعلى غيره من الظواهر استند في وصم المجتمع العراقي بالازدواجية.

(2) وهم ما زالوا إلى يوم الناس هذا بين بين: لا إلى البداوة ولا إلى الحضارة.

(3) هذه القيم ما زالت موجودة في مجتمعنا وظلّت سارية فيه حتى في أقسى الظروف التي مرّ بها وهي الحصار الدولي الذي فُرِضَ على العراق في تسعينيات القرن الماضي، ولكنّها في الوقت الحاضر أخفّ بكثير منها في العهد العثماني، مثلاً، وما زال العراقي يقول لك: والله أبيع ثيابي وأسوي عزيمة للضيف.

(4) هذه الازدواجية ليست خاصة بالعراقيين أو العرب، فالعالم الأمريكي كمبل يونغ في كتابه علم النفس الاجتماعي، يقول إن الفرد الأمريكي يعاني صراعا بين القيم المسيحية التي ورثها من أسلافه المتدينين، والتي تدعو إلى المحبة والعفو والإيثار، وبين القيم التي تسيطر على الحياة الاقتصادية في مجتمعه والتي تدعو إلى التكالب على الدنيا والتنافس في جمع الأموال. فالفرد الذي يعيش تحت وطأة هذين النظامين المتناقضين من القيم قد يصاب بشيء من ازدواج الشخصية على وجه من الوجوه.. ويقول الوردي إن الذي رأيناه في المجتمع الأمريكي قد نرى ما يشبهه في المجتمعات الأخرى لكن هناك اختلافاً في طبيعة الازدواج وفي درجة انتشاره بين الأفراد، وهذا الاختلاف ينشأ جراء التفاوت في نظم القيم السائدة في كل مجتمع وشدة التناقض بينهما..

لست أقصد بهذا أن نتّبع الأسلوب الوعظي في مكافحة هذه الازدواجية فينا، بل يجب أن نتبع طريق الإعلام المؤثر، وأعني به الإعلام الذي يتغلغل في أعماق الناس بدلاً من مخاطبة عقولهم الواعية[1].

إن كلّ واحد من العاملين في مجال الفنون والأدب والكتابة يمكن أن يكون له دوره في الإعلام المؤثر، فهو لا يمطر الناس بالنصائح والمواعظ العالية بل يعرض عليهم مناظر من الأفعال المتناقضة التي يقومون بها في حياتهم اليومية حين يكون أحدهم عشائرياً تارة وحضارياً تارة أخرى.

وهنا يجب أن لا ننسى أهمية التلفاز في مجال الإعلام المؤثر، فهو قادر أن يعرض على الناس صوراً من تناقضاتهم اليومية، كما يعرض النتائج السيئة التي تنتج عنها، ويجعل الناس يضحكون على أنفسهم بها.

حين نشهد زحام الناس على ركوب الباص، أو في الحصول على سلعة، أو في دخول مكان، ونلاحظ عدم التزامهم للنظام فيه ندرك ما في أعماق نفوسهم من نزعة التغالب والشطارة[2].. ولكننا حين نتحدث إلى الفرد منهم في الأمور العامة نجده قد انقلب حالاً إلى ناقد اجتماعي من الطراز الأول.

المطلوب من التلفاز وغيره من وسائل الإعلام أن يعرض علينا صوراً من هذه الظواهر الاجتماعي لكي نعرف أنفسنا بها ونضحك عليها..

ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**...﴾[3].

فنحن ما دمنا باقين على عاداتنا القديمة فليس من السهل علينا أن نتقدم في طريق الحضارة الحديثة!..

---

(1) الواقع أن الخطاب الإعلامي ظلّ مباشراً ولم يخاطب الفرد العراقي بنحو غير مباشر، وإنّما اتّبع طريق الوعظ السمج، وهذا عامل من عوامل ضعفه وعدم تأثيره وعدم قدرته على الصمود أمام إعلام الدول التي احتلت العراق بإمكانياتها الإعلامية لا العسكرية فقط.

(2) بلغ الحال ببعض الناس أنه حتى لو كان واقفاً بانتظار الباص أو في الحصول على سلعة، أو في دخول مكان وحده فإنه يأخذ بالتدافع مع نفسه.

(3) [الرعد: 11]، وورد في [الأنفال: 53] قوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**...﴾.

التعليم العالي

حول التعليم العالي في العراق(1)

في أواخر شهر حزيران الماضي عقدت وزارة التعليم العالي ندوة لدراسة مشاكل التعليم في العراق حضرها عدد كبير من الأساتذة، وكانت المناقشات التي جرت فيها تتصف بالصراحة والشمول.. [وإني هنا أبدي وجهة نظري في هذا الموضوع باعتباري أكبر الأساتذة سناً وله خبرة طويلة في الحياة الجامعية والتعليم العالي]

يؤسفني كلّ الأسف أني لم أشارك في هذه الندوة فلم أعرف ما جرى فيها من المناقشات التي سمعت عنها أنها كانت ذات قيمة علمية لا يستهان بها..

أضف إلى ذلك أني أحلت على التقاعد من مهنة التدريس الجامعي منذ عشرين سنة تقريباً،[1] ولهذا فإني لا أعرف الشيء الكافي عن المشاكل التي يعاني التعليم العالي منها في الوقت الحاضر.. ولكني مع ذلك أستطيع أن أبدي رأي في هذا الموضوع من الناحية الاجتماعية وهي الناحية التي تدخل في مجال اختصاصي..

إنّ التعليم العالي هو جزءٌ أو امتداد للتعليم الحديث في العراق، ويجب أن لا ننسى أنّ التعليم الحديث بوجه عام هو حديث النشأة في العراق، إذ هو بدأ في الربع الأخير من القرن الماضي، وهو قد مرّ منذ بدايته حتى الآن بمراحل ثلاث كما سنأتي إليه. وكان في كلّ مرحلة من هذه المراحل الثلاث وثيق الصلة بالظروف الاجتماعية المحيطة به ولهذا فإننا لا نستطيع أن نفهم

(1) أحيل الوردي إلى التقاعد بناءً على طلبه في عام 1970، ومنحته الجامعة لقب (أستاذ متمرس)، ولكنّ أستاذ الفلسفة الدكتور عبد الأمير الأعسم أخبرني، في جلسة ضمتني معه في دمشق في العام 2008 أنّ (الوردي ترك العمل في قسم الاجتماع – الذي انتسب إليه سنة 1950 – بالتقاعد سنة 1970 بعد إساءات من زملائه، حتى أثخنوه بجراح اتهامات باطلة، منها: انه كان طائفيا، ولكن كتبه تشهد على أنه كان علمانياً من طراز المستنيرين. أو أنه كان باطنياً يكتب شيئا ويبطن شيئاً آخر، وهذا افتراء على الوردي وفكره، ... الخ!! فالوردي لم يكن يفاضل بين الرجال ولا مدنهم وانتسابهم القبلي أو المذهبي، ولم يكن إلا صوت ضمير حي صدر عن عقل مستنير افتقر إليه معظم معاصريه).

مشاكل التعليم العالي في وضعه الحالي ما لم نفهم المراحل التي مرّ بها التعليم الحديث والمشاكل التي عاناها في كلّ مرحلة منها.

إن المراحل التي مرّ بها التعليم الحديث في العراق هي كما يلي:

1. مرحلة العهد العثماني.
2. مرحلة العهد الملكي.
3. المرحلة الحالية.

وسوف أحاول في هذه الحلقة وبعض الحلقات الآتية[1] دراسة هذه المراحل الثلاث في ضوء الظروف الاجتماعية التي أحاطت بها.

1- التعليم في العهد العثماني:

بدأ التعليم الحديث في العراق في عهد الوالي المشهور مدحت باشا الذي تولى حكم العراق بين عامي 1869 و1871.

فقد كان هذا الوالي نشطاً يحب التجديد والتمدين. وقد أنجز في خلال فترة حكمه القصيرة من الأعمال الحضارية ما لم ينجزه بضعة ولاة في عدة سنين. فهو بالإضافة إلى تأسيسه أول مدرسة حديثة في العراق أسس أول مطبعة وأول جريدة وأول دائرة للتسجيل العقاري وأول حديقة عامة وأول سكة لعربات الترامواي.

أخذ الولاة بعد مدحت باشا يحاولون الاقتداء به في التجديد والتمدين. ولكنهم لم يكونوا يملكون النشاط والدأب والنزاهة التي كان يمتلكها مدحت باشا فلم يفتح حتى نهاية العهد العثماني من المدارس الحديثة سوى عدد محدود. وكانت تلك المدارس محصورة في المدن الكبيرة كبغداد والموصل والبصرة، وكانت محتكرة في الغالب لأبناء الموظفين الذين يطلق عليهم اسم (الأفندية) أي السادة.

كان المقصود من فتح المدارس في ذلك العهد تخريج موظفين لدوائر الدولة، ولم يكن في مقدور عوام الناس وفقرائهم أن يدخلوا أبناءهم إلى هذه

(1) في الأصل: التالية.

المدارس لأنهم لم يكونوا هم يطمحون أن يدخلوها في يوم من الأيام ولم يمرّ في خاطرهم أنهم قد يصبحون من الطبقة الحاكمة..

كان الأفندية في تلك الأيام يمثلون الطبقة العالية في المجتمع، وكانوا يتعالون على الناس فلا يخالطونهم أو يجالسونهم في المقاهي، بل كانت لهم نواد ومجالس خاصة بهم ولم يكن يخالطهم من الناس إلا (أهل الجيب)[1] ونعني بهم الوجهاء في كلّ بلدة إذ هم كانوا يقومون بدور الوسطاء بين الأفندية وعامة الناس.

2- التعليم في العهد الملكي:

ظلّ الحال على هذا المنوال إلى حين تأسيس الحكومة العراقية واختيار فيصل الأول ملكاً عليها في عام 1921. فقد سارت هذه الحكومة في معاملة الشعب سيرة تختلف عن سيرة الولاة العثمانيين من بعض الوجوه. فهي أخذت تفتح المدارس على نطاق واسع مما كان له أثره في تغيير المجتمع والنظام الطبقي فيه.

لم تكتف الحكومة العراقية بفتح المدارس على نطاق واسع، بل صارت بالإضافة إلى ذلك تشجع الناس ولاسيّما العوام والفقراء منهم على إدخال أبنائهم فيها. وهي قد نجحت في ذلك نجاحاً غير قليل. ولكن كانت هناك ثلاثة عوامل تقف عقبة في طريق نجاحها هي كما يلي:

1. كان بعض المتزمّتين من رجال الدين ينظرون إلى المدارس الحديثة نظرة استنكار أو تحريم، فقد كانت في نظرهم تعلم تلاميذها أفكار الكفار من قبيل أن الأرض كروية أو أن المطر من البخار فهم كانوا يعتبرون هذه الأفكار تضعف العقيدة الدينية في النفوس وتؤدي إلى التشكيك بقدرة الله والواقع أن هذه النظرة تجاه المدارس بدأت منذ أيام مدحت باشا[2]، غير

---

(1) كناية عن الميسورين من الناس.

(2) كانت نظرة هؤلاء المتزمتين في العهد العثماني دافعها الخوف من التجديد الذي قد يفقدهم مكانتهم بما يدخل إلى عقول الناس من أفكار حديثة، لكنهم كانوا يزعمون أن التجديد مضرّ بالدين، لكن الدافع في أيام فيصل الأول كان الخوف من الأفكار التي يريد الإنكليز إدخالها إلى عقول الناس،

أنها استفحلت في أيام فيصل الأول[1].

2. كان العوام يعتقدون أن المدارس الحديثة تعلم تلاميذها الفساد كما تعلمهم الكفر. وكان الشائع بينهم منذ العهد العثماني أن المدرسة – أو المكتب كما كانوا يسمونها – ينتشر الفساد فيها ومن هنا جاء المثل الذي كان متداولاً بينهم: (ذبّ الكتب من إيدك شغل المكتب ما يفيدك)[2]..

3. لم يكن في ميسور الفقراء إدخال أبنائهم في المدارس. فهم كانوا يريدون من أبنائهم أن يساعدوهم في كسب الرزق منذ طفولتهم، ولم يكن في مقدورهم أن ينفقوا عليهم من أجل التعلم في المدرسة في الوقت الذي كانوا فيه في حاجة إلى رغيف الخبز.

كان الفقر المدقع سائداً على الكثير من الناس في تلك الأيام وكان (الخبز) أهم ما يشغل أذهانهم فيها، وكنت أقرأ في الصحف في بعض الأحيان آنذاك أن الحكومة فتحت مدرسة في إحدى المدن ثم أغلقتها لقلّة الإقبال عليها.

ظل الإقبال على المدارس قليلاً حتى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن، فقد بدأ الناس حينذاك يغيرون نظرتهم التقليدية نحو المدارس وكان لهذا التغيير سببان هما:

1. أن التلاميذ الذين كانوا قد دخلوا المدارس سابقاً ثم تخرجوا منها صاروا موظفين أو معلمين لهم مكانتهم الاجتماعية العالية ومرتباتهم المضمونة وقد ندم الآباء الذين منعوا أبناءهم من دخول المدارس على ما فعلوه معهم فهم رأوا أبناءهم مغمورين محرومين بالمقارنة إلى أقرانهم المحظوظين. وقد أنتج ذلك ردّ فعل بين الناس ضدّ النظرة التقليدية تجاه المدارس..

2. حلّت الأزمة الاقتصادية العالمية في عام 1929 وفي الأعوام التالية له، وكان العراق من جملة الأقطار التي أصابها الضرر منها، فشحت الأرزاق فيه وكثر العاطلون، وقد لحق بالموظفين ضيق في تلك الأزمة ولكن نصيبهم منها كان

وهي أفكار كفر وإلحاد، كما كانوا يعتقدون، وظهر هذا لدى علماء الدين الشيعة وفي مقدمتهم الشيخ مهدي الخالصي الكبير الذي أفتى بحرمة المدارس الحديثة وقبول الوظائف لدى الحكومة.

(1) مؤسس الدولة العراقية الحديثة.

(2) معناها ارم الكتب من يدك لأن المدرسة لا تنفعك، وكنا ونحن صغار نردده من دون أن نفقه ما يعني.

أقلّ من نصيب غيرهم، فهم قد خفضت مرتباتهم بنسبة صغيرة كما فصل عدد قليل منهم حسب قانون صدر في ذلك الحين سمي (قانون الذيل)[1]. ولكن الأكثرين منهم ظلوا محافظين على مستوى معاشهم العالي وكانوا بذلك موضع حسد من الآخرين.

يمكن القول على كلّ حال إن الثلاثينيات من هذا القرن شهدت بداية تهافت كبير على المدارس، وصار هذا التهافت يتصاعد عاماً بعد عام.

3- التعليم في المرحلة الراهنة:

كان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية في عام 1920 نحو ثمانية آلاف، ثم أصبح في الستينيات نحو مليون، وهو اليوم قد يزيد على الثلاثة ملايين.

من طبيعة الدنيا أنها لا يمكن أن يكون فيها خير محض أو شر محض فإن هذا التهافت الهائل على المدارس هو من معالم تطوّرنا الحضاري الحديث،

---

(1) كتب الباحث عبود الشالجي في باب (تذيّل) في الجزء الاول من كتاب (الكنايات العامية البغدادية ص414) يقول بالنص، انها: «كناية نشأت في السنة 1935 لما سنت حكومة الهاشمي قانوناً سمته قانون ذيل انضباط موظفي الدولة أوقفت بموجبه الصيانات التي كانت تحول دون طرد الموظفين من وظائفهم، وتم بموجب هذا القانون طرد قسم من موظفي الدولة، فسماه الناس على سبيل الاختصار: قانون الذيل، وقيل عمن أخرج حسب أحكام هذا القانون (تذيل) ثم اتسعت الكناية فاطلقت على كل من طرد من عمله، قال الملا عبود الكرخي لما فصل وزير الداخلية أمين العاصمة محمود صبحي الدفتري:

يا كرخي يا مال العمة ... تذيّلْ أمين العاصمة

وأدى إصدار قانون الذيل، وما اعقبه من طرد الموظفين، وتعيين آخرين بدلاً منهم، إلى اتهام وزارة الهاشمي، بأنها أخرجت خصومها، ونصبت أنصارها من المنتسبين إلى حزب الاخاء الوطني، وهو حزب الهاشمي، بدلاً منهم، وإلى ذلك أشار الشاعر المجلي محمد مهدي الجواهري النجفي في قصيدته التي حبس من أجلها أشهراً، حيث قال:

تُسن ذيول للقوانين يبتغى ... بها جلب قوم للكراسي الشواغر
ولم يبق معنى للمناصب عندنا ... سوى انها ملك القريب المصاهر

وكان الشيخ محمد السماوي، من الفقهاء المعروفين، عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري، وكانت النية منصرفة إلى تنحيته وإبداله بآخر اوصى عليه السيد محمد الصدر رئيس مجلس الاعيان، وتم ذلك بان احيل السماوي الى التقاعد، فكتب اليه احد اصحابه:

قل للسماوي الذي ... فلك الزمان به يدور
الناس تضربها الذيول ... وانت تضربك الصدور.

ولكنـه مـن الجهـة الأخـرى يؤدي إلى ظهور مشـاكل اجتماعية ونفسـية يصعب حلها.

إن هذه الملايين من التلاميذ الذين نشهدهم اليوم لا حدَّ لطموحهم، فالذي يتخرج من المدرسة الابتدائية يريد الدخول في الثانوية، والذي يتخرج من الثانوية يريد الدخول في الجامعة، والذي يتخرج من الجامعة يريد الحصول على شهادة الماجستير والدكتوراه، والذي يحصل على هذه الشـهادة يريد أن يكون العالم العلامة الذي لا يشق له غبار والذي يتحدث الناس عنه في كلّ مكان.

كلّ واحد من هؤلاء يحسب نفسه أفضل من غيره وأجدر منه بـ(الترقي)، وهو إذا وجد مانعاً يمنعه في أية مرحلة من مراحل هذا الترقي رفع عقيرته يشتم هذا وذاك وملأ الدنيا صراخاً واحتجاجاً..

فـي السـنة الماضيـة[1] كان عـدد المقبولين في الجامعـات والمعاهد العالية نحو خمسين ألفاً، وهذا العدد كبير جدّاً بالنسبة إلى عدد سكان العراق، ولكنه مع ذلك كان سبب تذمّر واسع النطاق بين المقبولين وغير المقبولين.

فالكثير من المقبولين لم يرضوا بنصيبهم من الكلّيات والمعاهد التي نسّبوا إليها، وهم يصبّون جام غضبهم على الحاسوب[2] - أي الكومبيوتر - الذي قرّر مصيرهـم أو علـى الذيـن ملأوا الحاسـوب بالمعلومات، أما غيـر المقبولين فإن تذمّرهم وصراخهم لابدّ أن يكونا من طراز آخر.

أقـف عنـد هـذا الحد في شـرح هـذا الموضوع على أن أواصل الشـرح له في حلقة قادمة.

---

(1) المقصود هو سنة 1988.

(2) كانت هناك دائرة تسمى (القبول المركزي) هي التي توزع الطلبة على الجامعات، وقد يقبل الطالب في كلية لا يرغب بالدراسة فيها.

{تحدثت} بإيجاز عن المراحل الثلاث التي مرّ بها التعليم الحديث في العراق، واليوم {أواصل} الحديث في هذا الموضوع {لأشرح} بعض النقاط منه.

إننا اليوم نسير في طريق الحضارة الحديثة بخطى سريعة، وهذا لابدّ أن يؤدّي إلى ظهور مشاكل مستعصية تجب معالجتها فكلّ شيء في هذه الدنيا له ثمنه، أو كما قال الشاعر العربي القديم:

ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل[1]

إن التعليم الحديث كان له أثره المهم جدّاً في تطوير المجتمع العراقي وفي تطوير الفرد فيه من حيث تفكيره وسلوكه، ولعلني لا أغالي إذا قلت أن التعليم الحديث كان له الدور الأكبر من حيث تحريك المجتمع نحو الحضارة الحديثة.

حين نقارن بما كان الطفل ينشأ عليه في العهد العثماني قبل سبعين سنة وما صار ينشأ عليه بعدئذ تحت تأثير التعليم الحديث نجد فرقاً كبيراً جدّاً، أو بالأحرى نجد تبدلاً جذرياً.كان الطفل في العهد العثماني ينشأ على المبدأ القائل: (ما يصيبك إلا نصيبك» و«اللي انكتب على الجبين لازم تشوف العين» و«كلّ شيء قسمة ونصيب» و«القناعة كنز لا يفنى».. وما أشبه.. ولكن هذا المبدأ انقلب إلى ضدّه بعدئذ، حيث صار على النحو الآتي[2]: «كلّ من جدّ وجد» و«كلّ من سار على الدرب وصل» و«كلّ من جال نال» و«من طلب العلا سهر الليالي» وما أشبه..

من الجدير بالذكر أن كلاً من هذين المبدئين له محاسنه ومساوئه، فمبدأ القناعة والرضا بالنصيب يمنح الإنسان الطمأنينة النفسية وراحة البال، ولكنه

(1) الشاعر أبو الطيب المتنبي:

تريدين اتيان المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشهد من أبر النحل

(2) في الأصل: التالي.

من الجهة الأخرى يؤدّي إلى ركود المجتمع وضعف التطوّر فيه، أما المبدأ المعاكس له، أي مبدأ «من جدّ وجد»، فهو يؤدي إلى تحريك المجتمع وتطويره، ولكنه من الجهة الأخرى يجعل الإنسان شديد الطموح والتكالب والقلق لا يطمئن إلى شيء ولا يرضيه حال.

كان الفرد العراقي في العهد العثماني يتعلم مهنة أبيه في الغالب، ولا يطمح أن يكون أرفع من مستوى أبيه، وإذا شاء القدر أن يرتفع الفرد أكثر مما ينبغي له صار الناس يذكرونه بماضيه الوضيع، وهو يحاول من جانبه أن يتنكّر لهذا الماضي أو يتستّر عليه، وهذا على النقيض مما اعتاد الناس عليه في هذه الأيام إذ أصبح الفرد منهم يفتخر بأنه صنع نفسه بنفسه وأنه كان في بداية أمره فقيراً أو وضيعاً.

يمكن القول بوجه عام إنّ النظام الطبقي كان في العهد العثماني مغلقاً أو شبه مغلق، ولكنه انفتح على مصراعيه بعد تأسيس الحكومة العراقية وفتح المدارس على نطاق واسع – على نحو ما ذكرناه.

أصبح ابن البقال أو العطار أو الحائك أو الحمال يطمح أن يدخل المدرسة ليكون بعد تخرجه منها موظفاً في الحكومة، أي «أفندياً» مرموقاً يشار إليه بالبنان، وهنا ظهرت مشكلة لم يكن للناس عهد بها من قبل، وأخذت هذه المشكلة تنمو وتستفحل بمرور الأيام.

من طبيعة الإنسان بوجه عام أنه إذا انفتح النظام الطبقي أمامه حسب المبدأ القائل: «كلّ من جدّ وجد»، فإن طموحه وتهالكه على المكانة العالية لا يقفان عند حد، فهو كلّما نال مكانة طمح إلى مكانة أعلى منها، وهو يظل كذلك راكضاً لاهثاً بلا توقف حتى يدركه الموت فيستريح ويريح.

تبين الآن علمياً أن مبدأ «من جدّ وجد» لا يصحّ إلا ضمن حدود ضيقة، فالإنسان في الواقع لا يستطيع أن يصل إلى ما يطمح إليه عن طريق الجدّ والمثابرة وقوّة الإرادة وحدها، ولابدّ أن تساعده على مطمحه مواهبه الطبيعية من جهة وظروفه النفسية والاجتماعية من الجهة الأخرى.. أما إذا كانت مواهبه أو ظروفه غير مساعدة له في ذلك فإن الجدّ لا ينفعه إلا قليلاً، أو هو يضرّه من بعض النواحي.

إن هـذه الحقيقـة العلميـة لا يفهمهـا الكثيرون من الناس أو هم لا يريدون أن يفهموهـا، وقـد لاحظنـا ذلـك بوضوح عندما بدأ النـاس يدخلون أبناءهم في المـدارس علـى نطـاق واسـع فـي الثلاثينيات وما بعدها، فقد كانـوا يطلبون من أبنائهم أن ينجحوا جميعاً في دراستهم فإذا أخفق بعض منهم فيها صار موضع تعنيف وتوبيخ من أبيه وأمه، وانقلب البيت عليه إلى جحيم لا يطاق.

إن البشر يتفاوتون في درجة الذكاء فيهم كما يتفاوتون في جميع مواهبهم أو صفاتهم الأخرى، ففيهم المتفوق في ذكائه، وفيهم الوسط فيه، وفيهم الغبي والمتخلـف، وهـم جميعـاً لا إرادة لهـم فـي ذلـك، بل هم مخلوقـون، وهم إذا دخلوا المدارس في طفولتهم فلابدّ أن يكون فيهم المتفوّق في دراسته والفاشل فيها قليلاً أو كثيراً.

إني أتذكّر تلك الأيام قبل نصف قرن عندما اشتدّ التهافت على المدارس، فكانـت كلّ أم فـي المحلّـة أو القريـة تريـد من ابنها أن ينجح في المدرسـة كما نجح ابن فلانة وفلانة.. وهي تواصل لومه وتوبيخه في كلّ صباح ومساء قائلة له: «لماذا نجح ابن فلانة ولم تنجح أنت؟ وهل هو أحسن منك؟ وهل تنقصك عين أو خشم؟».

وهو من جانبه قد يلوم نفسه على نحو ما تفعل أمّه معه، وهو يكافح لكي ينجح في المدرسة كما نجح ابن فلانة دون جدوى.

أعرف شـاباً أصيب بالجنون من جراء توبيخ أمّه له في كلّ صباح ومسـاء فهو لم يكن يملك درجة كافية من الذكاء للنجاح في المدرسـة كغيره من أبناء المحلة، وكان يبذل جهده بلا فائدة.

وقـد كان مـن الأصلـح لـه أن يتوجّـه منذ طفولته نحـو المهنة التي تلائمه، ولكنـه كان مصـرّاً علـى أن يكـون «أفندياً» كما تريـد أمّه، وكانت عاقبته أن صار مجنوناً![1].

إن هذا الذي كان يجري قبل نصف قرن ظل مستمراً حتى يومنا هذا، ولكن نطاقه قد اتسع وتبدل الطموح فيه من شكل إلى شكل آخر.

---

(1) كانت أمّ الوردي تريد منه أن يكون عطاراً ناجحاً، وأن يصبح شيخ العطارين.

كان طموح الجيل الناشئ قبل نصف قرن يقتصر في الغالب على نيل الوظيفة الحكومية والترقي فيها، أما الآن فقد أصبح الطموح متجهاً نحو الدراسة العالية ونيل شهادة الماجستير والدكتوراه.

كانت الحكومة في الماضي تلقى عنتاً من جراء الطلب المتكاثر على الوظائف فيها، فهي كانت تواجه في كلّ سنة وجبة جديدة من المتخرجين الذين يطلبون الوظائف المناسبة لهم وإذا عجزت الحكومة عن توفير الوظائف لهم أطلقوا ألسنتهم صارخين ناقدين.

إن المشكلة التي كانت تواجهها الحكومة في الماضي أصبحت وزارة التعليم العالي تواجهها الآن على نطاق أوسع وتركيز أشدّ، فهي تواجه في كلّ سنة عشرات الألوف من الطلاب يرومون الدخول في الكلّيات التي يطمحون إليها، وليس في الإمكان تلبية طلباتهم جميعاً، فإن هي أرضت فئة منهم سخط عليها آخرون.

إن هذه المشكلة لا تجد شبيهاً لها في البلاد المتقدمة، فإن الطلب على التعليم العالي هناك محدود جدّاً، ولا ترغب فيه سوى نسبة صغيرة جدّاً من المواطنين، ومن الممكن القول إن هذا وضع سوف نصل إليه في المستقبل القريب أو البعيد، وهذا هو ما سوف أتحدث عنه إن شاء الله.

أسباب التنازع

{تحدثت سابقاً} حول التنازع و{قلت} إنه محتوم لا يمكن أن يتخلص البشر منه لأنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية التي خلقها الله فيهم، وكان هذا الموضوع مثار نقاش ونقد لدى بعض القراء، وقد كتب الأستاذ حلمي علي شريف تعقيباً عليه {نشر في هذه الجريدة} في 27/ 3/ 1989.

إنني أشكر الأستاذ حلمي علي شريف على تعقيبه كما أشكر الذين اتصلوا بي هاتفياً أو كتابياً في هذا الشأن والواقع أن (النقدات) التي جاءوا بها لا تخلو من قيمة علمية، ولكني قد أختلف معهم فيها من بعض الوجوه.

يجب أن لا ننسى أن موضوع التنازع مهم جدّاً بوجه عام، وهو كذلك مهم جدّاً لنا نحن العراقيين بوجه خاص فنحن ندخل الآن في هذه المرحلة

الديمقراطية المنفتحة[1]، ويجب علينا أن نفهم طبيعة التنازع البشري لكي نفهم بها طبيعة الديمقراطية.

إنّ الديمقراطية ليست سوى وسيلة عملية ابتكرها البشر في العصر الحديث لكي يحلّوا بها مشكلة التنازع السياسي الذي شغلوا به طيلة العصور القديمة فلقد كان التنازع السياسي قديماً يؤدّي إلى المعارك الطاحنة وسفك الدماء، ثم جاءت الديمقراطية أخيراً لتقول للناس: تنازعوا فيما بينكم كما تشاءون، ولكنكم بدلاً من أن تستخدموا السيوف أو البنادق في تنازعكم استخدموا أوراق التصويت، وقد عبّر عن هذه الحقيقة أحد المفكرين الاجتماعيين عندما قال أن الديمقراطية الحديثة هي عبارة عن استخدام أوراق التصويت بدلاً من طلقات الرصاص، أو هي كما عبر عنها باللغة الإنكليزية «Ballots instead of bullits»[2].

معنى هذا أن البشر ظلوا يتنازعون كما كانوا يفعلون قديماً، ولكنّهم استخدموا أوراق التصويت في تنازعهم بدلاً من استخدام السيوف أو البنادق فالفريق الذي يحصل على عدد أكبر من تلك الأوراق يتغلّب على خصمه في المعركة، ولا حاجة إذن إلى التقاتل وسفك الدماء.

أسباب التنازع:

قد يواجهنا سؤال هو ما هو السبب أو الأسباب التي تجعل البشر يتنازعون، وهل في مقدور البشر أن يزيلوا هذه الأسباب لكي يعيشوا في صفاء وإخاء فلا

(1) كثر الحديث بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية في 8 آب 1988 عن التعددية الحزبية وإطلاق الحريات الصحفية، وعقدت قيادتا حزب البعث العربي الاشتراكي ومجلس قيادة الثورة اجتماعات مستمرة لمناقشة المرحلة الجديدة ولكن دخول العراق إلى الكويت في 12 آب 1990 وما أعقبه من هجوم عسكري دولي قادته الولايات المتحدة الأمريكية على العراق في 17 كانون الثاني 1991 أوقف هذه المساعي.. وأذكر أني وقع بين يدي كراس ثبت عليه أنه (للتداول المحدود) عن اجتماعات القيادات الرسمية والحزبية، وأعطيته للوردي ليطلع عليه، فسر به أيما سرور، ولكني أوصيته بالتكتم الشديد عليه، إلا أن ما حصل هو أن الوردي أخذ يعلن ذلك في جميع مجالسه، ولا يكتفي بهذا، وإنما كان يقول: إن سلام هو من جلب لي هذا الكرّاس.

(2) كان الوردي كثير الترديد لهذه العبارة، وكان يروي قصة عن مواطن سوداني شتم ملكة بريطانيا خلال الاحتلال البريطاني للسودان، وعندما اعتقلوه وقدموه للقاضي الانكليزي طلب منه أن يفتح فمه، فلما فتحه أفرج عنه، قائلاً له: لم نعثر في فمك على مدفع!!.

تنازع بينهم ولا هم يحزنون؟

إني قد أجبت على هذا السؤال بشكل غير مباشر {سابقاً} ولعل من المناسب الآن أن أتحدّث فيه بشكل مباشر. تحدّثت سابقاً عن العوامل اللاشعورية التي تؤثّر في تفكير الإنسان وسلوكه من حيث لا يدري، وهذه العوامل هي التراثية والجهل والعاطفة والمصلحة والأنوية، وقلت إن العقل البشري ليس حراً مطلقاً كما كان يتصوّره المفكرون القدامى، وهو كثيراً ما يكون مشلولاً أو عاجزاً تجاه العوامل اللاشعورية التي أسلفنا ذكرها[1].

إن الفرد الذي ينشأ في بيئة اجتماعية معينة ويتربى فيها على مجموعة من المعتقدات والقيم والتقاليد والمألوفات، وهي التي سميناها «التراثية»، يكون تفكيره مصبوباً في قوالب تلك التراثية وهو لو كان قد نشأ في تراثية أخرى لكان تفكيره من نمط آخر.

ومثل هذا نقول عن الجهل، فكلّ فرد من البشر هو عالم وجاهل في الوقت نفسه، ولم يظهر في البشر فرد عالم بجميع أسرار الكون، وإن أعظم العلماء في عصرنا قد يبدو جاهلاً في عصر قادم، والإنسان حين يفكر في الأمور لابدّ أن يكون تفكيره محدوداً في نطاق معرفته عنها.

فهو قد يعتبر أمراً ما غير معقول حسب المألوفات الذهنية التي اعتاد عليها أو المعلومات التي يعرفها تم يتبين له بعدئذ أنه كان مخطئاً.

وحين ندرس العاطفة والمصلحة والأنوية من حيث تأثيرها على العقل نجد أن كلّ واحدة منها لا تقلّ في تأثيرها فيه عن التراثية أو الجهل.

نستخلص من هذا كلّه أن البشر لا يمكن أن يتفقوا على رأي واحد أو عقيدة واحدة، حتى لو جئنا لهم بأقوى البراهين العقلية وأوضحها فالبرهان القويّ الواضح في نظرك قد يكون سخيفاً أو تافهاً في نظر غيرك، ومشكلة الإنسان أنه حين يعتنق رأياً أو عقيدة يتصوّر أنّ الحقّ كلّ الحقّ معه، وأن الباطل كلّ الباطل مع خصمه، وقد يدفعه هذا إلى بغض خصمه أو الحقد عليه وهنا

---

(1) يرى الوردي أن العقل لا يصلح أن يكون حكماً بين الناس لحل التنازع بينهم، فكل فريق من المتنازعين حين يحتكم إلى عقله يتصور أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه. ولا يمكن حل التنازع بينهما سلمياً إلا عن طريق فريق ثالث يقبلان بحكمه أو هو قادر على فرض حكمه عليهما بالقوة.

يكمن السبب الأكبر في التنازع البشري - كما لا يخفى.

آيات قرآنية:

ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى أن التنازع ظاهرة بشرية عامة، نذكر بعضها فيما يلي:

1. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1].
2. ﴿... وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ...﴾[2].
3. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3].
4. ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾[4]، أزلهما الشيطان: يقصد آدم وحواء.
5. ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[5].
6. ﴿... إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[6].

لعلّني لا أغالي إذا قلت إنّ القرآن قد سبق علم الاجتماع الحديث بهذه النظرة الواقعية لطبيعة الإنسان[7].

---

(1) هود: 118.

(2) البقرة: 251.

(3) البقرة: 30.

(4) البقرة: 36.

(5) المعارج: 19 و20 و21.

(6) العلق: 6 و7.

(7) أخبرني الوردي أن أحد أساتذة تكساس ظلّ يشرح لهم نظرية اجتماعية جديدة على مدى أكثر من ساعة، وعندما انتهى الأستاذ من الشرح قام الوردي، وقال له: هل تعرف أن هذه النظرية التي أطلت في شرحها لخصها القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً بثلاث كلمات.. يقول الوردي: قمت إلى اللوحة المعلقة على الجدار في قاعة الدرس وكتبت الآية: ﴿... كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53] و[الروم: 32]، مما أثار دهشة الأستاذ والطلبة.

وجهة نظر الطوبائيين:

من الجدير بالذكر أن المفكرين الطوبائيين لا يقبلون بهذه النظرة الواقعية لطبيعة الإنسان فهم عندما يفكرون في أمور البشر يحلّقون عالياً وينسون هؤلاء البشر الذين يعيشون بينهم وقد ذكرنا بعض النماذج منهم {سابقاً}، ومن المؤسف أن بعض المفكرين في عصرنا ما زالوا يسيرون في تفكيرهم على الطريقة الطوبائية التي سار عليها أفلاطون أو الفارابي قبلهم.

يعتقد بعض الطوبائيين في عصرنا أن الإنسان ميال بطبيعته نحو التعاون والتآخي ولكن الظلم والاستغلال الطبقي هو الذي أدى إلى إثارة التنازع والتعادي بين البشر. وفي رأي هؤلاء المفكرين أن البشر سوف يعودون إلى طبيعتهم الأصلية في التعاون والتآخي عندما يلغى نظام الظلم الطبقي السائد فيهم، وهذا هو ما سوف يحصل في زعمهم عند قيام النظام الأمثل للمجتمع البشري في المستقبل القريب أو البعيد.

إنّ الذي أريد أن أقوله لهؤلاء الطوبائيين هو أنهم واهمون مع الأسف الشديد فالإنسان بطبيعته ظالم مستغلّ عندما لا يجد رادعاً يردعه عن الظلم أو الاستغلال ولكن مشكلته أنه لا يدري أنه ظالم أو مستغل.

إنّ ما جُبِل عليه الإنسان من تقوقع أنوي وتحيّز عقلي يجعله يركز نظره على الجوانب الحسنة من نفسه بينما هو يغضّ النظر عن الجوانب السيئة منها، وهو لذلك كثيراً ما يرى الباطل حقاً والظلم عدلاً.

إن الإنسان كثيراً ما يندفع في حياته حسبما تمُلي عليه دوافعه اللاشعورية على نحو ما ذكرناه سابقاً، ولكنه يتصوّر نفسه أنه سائر في سبيل الحق والحقيقة، أو سبيل الله أو المصلحة العامة، أو ما أشبه وهو لا يرضى أن ينبهه أحد إلى خطأ ما يفعل أو يلومه عليه وهو قد يعزو هذا التنبيه أو اللوم إلى غرض سيء في صاحبه[1]، وقد يدفعه ذلك إلى الحقد عليه أو الانتقام منه.

---

(1) أعرف شخصاً بدرجة بروفيسور تعهد لرئيسه في العمل أن يجلب له صحفياً يجري معه حواراً صحفياً يستعرض فيه إنجازات مؤسسته ثم اتصل بالصحفي طالباً منه الاتصال بالشخص المقصود لإجراء

إن جميع الطغاة الذين امتلأت صفحات التاريخ بأعمالهم الظالمة كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر الناس عدلاً وتقوى وقد شهدنا الولاة في العهد العثماني وكيف كانوا يعبدون الله وينهبون عباد الله، فهم كانوا في الغالب من أكثر حكام العالم ارتشاء وجوراً، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يشيّدون المساجد الفخمة وهم معتقدون أن الله سيبني لهم من القصور في جنة الفردوس أضعاف ما بنوا هم من المساجد في هذه الدنيا.

إن الديمقراطية الحديثة إنما أقيمت للقضاء على أمثال هؤلاء الحكام الذين يعبدون الله وينهبون عباد الله.

في رأي الطوبائيين الحديثين أن الحكومة سوف تختفي من بين البشر عندما يقام فيهم النظام الأمثل الذي تشبع جميع حاجاتهم المادية وهم يقصدون من ذلك أن البشر عند قيام النظام الأمثل فيهم سوف لا يحتاجون إلى حكومة تردع الظالم والمعتدي منهم، وذلك لعدم وجود الظالم والمعتدي فيهم.

إن هؤلاء الطوبائيين يتصوّرون أن الإنسان ليس لديه في هذه الدنيا سوى حاجاته المادية، فإذا وفرناها له فإنه سيعيش هادئاً سعيداً لا يكدره شيء في هذه الدنيا، إنهم ينسون أن الحاجات المعنوية هي للإنسان أكثر أهمية من الحاجات المادية فالإنسان لا يكاد يشبع حاجاته المادية حتى يبدأ بالتطلع نحو رفع مكانته في نظر الآخرين وهو يمتعض ويتألم حين يرى غيره قد سبقه إلى مكانة كان هو يطمح إليها.

أضف إلى ذلك أن الحاجات المادية للإنسان غير محدودة، وهي نفسها خاضعة للحاجات المعنوية، فالإنسان إذا رأى غيره قد أخذ نصيباً من الحاجات المادية أكثر منه فإنه يرفع صوته محتجاً على هذا «الظلم الفظيع»، إنه قد يكون

الحوار، فامتنع الصحفي إلا إذا اتصل به ذلك الشخص أو حدد له موعداً للقائه، ولكن البروفيسور غضب على الصحفي وقال له إنك أحرجتني مع رئيسي في العمل وهدده بالاتصال برئيس التحرير لمعاقبته. إن هذا البروفيسور يريد أن يحقق مصلحة لنفسه عن طريق هذا الحوار يدفعه لاشعوره من دون أن ينتبه إلى أنه بهذا يحط من قيمة الصحفي أمام رئيسه الذي يريد أن يقابله، وكل ما كان يدور في رأسه ولاشعوره هو أن يحقق مصلحته وليأت بعد ذلك الطوفان، ومازال البروفيسور يرى نفسه أنه على حق والصحفي على باطل.

غيـر محتـاج إلى الشـيء الذي أخذه غيره ولكـن الذي يدفعه إلى الاحتجاج هو شعوره بأن الغير قد تفوَّق عليه في أمر كان هو الأولى به، وأنه لو كان هو الذي أخذ أكثر من غيره لاعتبر ذلك عدلاً وإنصافاً.

يجب أن لا ننسى أن هذه ليست صفة طارئة في البشر، بل هي طبيعة أصيلة فيهم، ونحن نستطيع ملاحظتها في الأطفال كما نستطيع ملاحظتها في البدائيين الذين لم يظهر فيهم نظام الاستغلال الطبقي.

نقد الماركسية

في نقد الماركسية(1)

(1)

إن الأحداث المفاجئة التي تشهدها الآن أوربا الشرقية قد لفتت الأنظار في مختلف أقطار العالم ومنها العراق، إذ هي أثارت التساؤل حول مصير النظرية الماركسية والنظام الشيوعي في العالم.

{إني كتبت} سابقاً في نقد الماركسية مرّتين إحداهما في عام 1959، والأخرى في عام 1978، وكانت {كتاباتي} في المرّتين بمثابة تنبؤ بوقوع ما يقع الآن في أوربا الشرقية.

إني عندما نقدت النظرية الماركسية سابقاً لم أكن معادياً لها[1]، بل حاولت أن أكون محايداً تجاهها بمقدار جهدي.

إن النظرية الماركسية لها أهميتها في الواقع وهي قامت بدور لا يستهان به في تطوير الفكر البشري ولكنها كغيرها من النظريات المهمة التي ظهرت

---

(1) في رسالة وجهها إلي الباحث محمود الحديثي في العام 2004 قال إنه درس عشرات المؤلفات والدراسات في نقد الفلسفة الماركسية لاسيما مؤلفات المفكر اليوغسلافي ميلفون جيلاس، مثل: (الطبقة الجديدة)، (محادثاتي مع ستالين)، والكاتب السوري قدري قلعجي مثل (تجربة عربي في الحزب الشيوعي)، ومالك سيف مثل (الشيوعية على السفود)، (للتاريخ لسان)، وما كتبه الفيلسوف الإنكليزي بوتواند رسل، ودراسات فؤاد زكريا، والدكتور زكي نجيب محمود، وعشرات غيرهم، إلا ان نقد الوردي للأيديولوجية المادية الديالكتيكية، هو من أعمق وأنضج ما وجه بالعربية للماركسية من نقد جذري.. إنه نقد عالم مفكر تقدمي لا يخلو من نزعة يسارية، أي إن الوردي عندما نقد الماركسية لم ينطلق من فكر رجعي غيبي لخدمة اليمين أو الفاشية، بل نقدها في ضوء الفكر العلمي الحديث، الذي يرفض (غيبيات) الماركسية، مثل رفضه كثيراً من (غيبيات) الفكر الماورائي المتخلف، الذي يخاصم العلم والتقدم وتحرير المرأة من العسف.. وملاحق كتابه الأخير حول (الماركسية وطبيعة الإنسان والمادية وعلم الخارقية والباراسيكلوجيا)، شواهد على قدرته المذهلة على سبر أغوار الماركسية، بل إنه في كثير من كتبه، لاسيما: (مهزلة العقل البشري) و(الأحلام...)، وملاحقه تنبئ بالنهاية المأساوية للماركسية فلسفةً، والشيوعية نظاماً، وقد سخر علمياً من كثير من مزاعم ماركس وانجلس ولينين، وأطلق عليها طوبائيات (علمية).

في التاريخ لا يمكن أن تكون كاملة خالية من العيوب تماماً، فهي ما دامت من صنع البشر فلابدّ أن تكون معرضة للخطأ والنقص على وجه من الوجوه.

إن المشكلة ليست في النظرية الماركسية بل هي في أتباعها ولاسيّما المتعصّبين منهم، فهم جعلوها كأنها وحي منزل من السماء ولا يمكن أن يتطرق إليها الخلل والخطأ، إنهم ينسبون إليها صفة (العلمية) ويعتقدون أنها ما دامت كذلك فهي لابدّ أن تكون صحيحة دائماً لا عيب فيها ولا يجوز أن يشك فيها أحد.

أصدر أحد هؤلاء الماركسيين المتعصّبين كتاباً في العراق في عام 1959 قال فيه ما نصه: «الماركسية هي المفهوم العلمي عن الكون والمجتمع، والطريقة العلمية في تعليل الأمور.. وهي ظاهرة منطقية وحتمية».

إني أحتفظ بنسخة من هذا الكتاب وأحاول القراءة فيه بين حين وآخر لكي أتفرج به على مهزلة العقل البشري فمؤلف الكتاب غيّر رأيه في الماركسية بعدئذ على نحو ما فعل الكثيرون من أمثاله وقد كان الجدير به عندما كتب عباراته تلك في الماركسية أن يعلم أن العلم في تغيّر مستمرّ، وأن ما يعدّه العلم اليوم صحيحاً قد يصبح غير صحيح غداً.. وليس من الجائز أن يقول عن الماركسية أنها (ظاهرة منطقية وحتمية).

مصدر الخطأ:

إن ماركس[1] كان مفكراً مبدعاً، وهو كغيره من المبدعين لم يأت بنظريته من فراغ، ولابدّ له من أن يستمد عناصر نظريته من الذين سبقوه ثم يضيف إليها من فكره قليلاً أو كثيراً، وهذا هو شأن المبدعين في كلّ زمان ومكان.

عاش ماركس في منتصف القرن التاسع عشر، وهو قد استند في تكوين نظريته على المعلومات التي كانت سائدة في الأوساط العلمية في زمانه، وقد

(1) كارل ماركس 5 مايو 1818–14 مارس 1883. فيلسوف الماني، يهودي الأصل، سياسي، وصحفي، ومنظِر اجتماعي. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ اجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.

تبيّن أخيراً أن بعض تلك المعلومات، أو كثيراً منها، أصبح غير مقبول الآن علمياً أو أنه يعد مغلوطاً.

كان القرن التاسع عشر يسمى قرن الغرور العلمي، فقد اغتر العلماء فيه بالمكتشفات العلمية التي توصّلوا إليها حينذاك وتخيلوا أنهم استوعبوا معظم أسرار الكون أو الكلّيات فيها ولم يبق أمامهم سوى اكتشاف الجزيئات والتفاصيل منها ومن الممكن تشبيه هؤلاء العلماء المغرورين بالمراهق الذي تعلم شيئاً من مبادئ العلوم فظن أنه فهم العلوم كلّها.

إن المكتشفات العلمية التي ظهرت في القرن العشرين نسفت كثيراً من المفاهيم التي كانت سائدة في القرن الماضي، وهذا هو الذي جعل ماركس وغيره من مفكري القرن الماضي يبدون لنا كأن معلوماتهم محدودة أو مغلوطة، ونحن سوف نكون مثلهم في نظر الذين يعيشون في القرن القادم أو بعده.

حول المادية:

إن من جملة المفاهيم التي كانت سائدة في القرن الماضي هو مفهوم (المادية) فقد شاعت في ذلك القرن مقولة (بوخنر[1]) المشهورة وهي أن الكون مؤلف من المادة والحركة، وقد تبنى ماركس هذه المقولة ودعاه ذلك إلى إنكار جميع ما جاءت به الأديان من معتقدات غيبية في الله والروح والحياة ما بعد الموت وغيرها فهذه المعتقدات كلّها باطلة في نظر ماركس بحجة أنها لا يمكن تفسيرها حسب مفهوم المادية الذي كان سائداً في زمانه.

إن هذا الموقف المتعصّب الذي التزم به ماركس في المادية أدى بالحركة

(1) بوخنر، جورج (1813–1837م). كاتب ألماني من رواد المذهب الطبيعي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. من أعماله موت دانتون (1835م)؛ قصة ويزك (1936م). اتسمت كتاباته بالطابع الواقعي المتحرر من الوهم خاصة إزاء ما يسود عصره ومن يحيطون به. وطبقًا لاعتقاد بوخنر فإنَ الإنسان غير قادر على تحديد مصيره فهو بذلك معرض لقوى خارجة عن إرادته مما يجعله ضعيفًا لا حول له ولا قوة. كتب بوخنر قصة لونس ولينا (1836م) التي تعالج السأم والخوف من المجهول. أما قصته لنز فلم تكتمل وهي تتحدث عن إنسان على حافة الجنون. ولد بوخنر في ما يسمى اليوم بولاية هسي الألمانية. اشترك وهو طالب في كتابة المبعوث الهسي (1833م) وهو كتيب عن انقلاب الحكومة الهسية. انتقل بوخنر بعد ذلك إلى ستراسبورج هربًا من السجن.

الماركسية إلى التورط في أخطاء أضرّت بها من الناحيتين العملية والنظرية، فمن الناحية العملية أصبحت الحركة الماركسية معادية للأديان، وهي بذلك خلقت لها خصوماً لم يكن هناك داع للتخاصم معهم فقد استغل خصوم الحركة موقف ماركس من الأديان وأخذوا يشوهون سمعتها وينفرون الناس منها وبهذا أصبحت الحركة الماركسية تحارب في جبهتين، فالمتدينون يحاربونها من جهة والرأسماليون يحاربونها من الجهة الأخرى.

غفل ماركس عن جانب مهم من الطبيعة البشرية، فالإنسان بوجه عام ميال إلى التدين، إذ هو يجد فيه ملجأ نفسياً يصعب الاستغناء عنه تجاه أخطار الحياة ومشاكلها ومصائبها، يجب أن لا ننسى أن الحياة مهما كانت راقية فهي لا يمكن أن تخلو من الأخطار والمشاكل، وقد رأينا الحضارة الحديثة كيف أنها خففت من بعض الأخطار والمشاكل التي كان البشر يعانون منها قديماً غير أنها ابتليت بأخطار ومشاكل من طراز آخر وعلى نطاق أوسع.

كان ماركس يتصوّر أن تطبيق الشيوعية في مرحلتها النهائية سوف يجعل البشر يعيشون في نعيم وسعادة لا حد لهما وسوف تختفي المشاكل والأخطار والمصائب بينهم، وهذا وهم عجيب لا يختلف في أساسه النظري عن أوهام الطوبائيين القدامى الذين كانوا يحلمون بـ«المدينة الفاضلة»، - على حد تعبير الفارابي[1] - وهي المدينة التي تسودها الطمأنينة والتآخي والهناء فلا مشاكل فيها ولا هم يحزنون.

ذكرت في {مقالة} سابقة كيف أن الحضارة الحديثة أخذت تضعف العقيدة الدينية في النفوس، وهنا يجب أن أذكر أن هذه الحضارة لا تستطيع على كلّ حال أن تقتلع النزعة الدينية من النفس البشرية اقتلاعاً تاماً، فهي إذا تمكنت من

---

(1) أبو نصر محمد الفارابي ولد عام 260 هـ/ 874م في فاراب وهي مدينة في بلاد ما وراء النهر وهي جزء مما يعرف اليوم بكازاخستان وتوفي عام 339هـ/ 950م) فيلسوف مسلم أتقن العلوم الحكمية، وبرع في العلوم الرياضية. قوي الذكاء، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين، وكانت له قوة في صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها، ولم يباشر أعمالها، ولا حاول جزئياتها. وكان ببغداد مدة ثم انتقل إلى بلاد الشام وتجول بين البلدان وعاد إلى مدينة دمشق واستقر بها إلى حين وفاته. يعود الفضل اليه في ادخال مفهوم الفراغ إلى علم الفيزياء. تأثر به كل من ابن سينا وابن رشد.

أضعافها في بعض الناس فإن الكثيرين منهم يظلون متمسكين بها على وجه من الوجوه، إذ هم يشعرون بالحاجة الماسة إليها لكي تساعدهم على مواجهة أخطار الحياة ومصائبها.

يصف ماركس الدين بأنه «أفيون الشعوب»، أي أنه مخدّر للناس يمنعهم من الثورة على الاستغلال الطبقي الذي يعانون منه ولو فرضنا جدلاً أن الدين مخدّر، على نحو ما وصفه ماركس، جاز لنا أن نقول أنه مخدّر ضروري للبشر إذ هم يحتاجون إليه لمواجهة المشاكل التي تحيط بهم والكوارث التي تحلّ بهم ونحن إذا حرمنا البشر من هذا المخدر لجأوا إلى مخدر من نوع آخر، وهذا هو ما حصل فعلاً في المجتمعات التي ضعفت فيها العقيدة الدينية حيث نجد فيها تصاعد معدلات الكآبة والانتحار[1] والشعور بالاغتراب والإدمان على الخمرة والمخدرات وغيرها.

إن الاستغلال الطبقي ليس وحده المشكلة التي يعاني الناس منها في حياتهم، فهناك مشاكل أخرى عديدة كالخيبة في الحياة، وفقد العزيز، والابتلاء بالأمراض التي لا يرجى لها شفاء، وحوادث السيارات والطائرات والكهرباء، وعشرات المصائب غيرها فإذا حرمنا الذين يصابون بهذه المصائب من العقيدة

(1) لا توجد معايير لقياس معدل الوفاة بالانتحار عند الشباب نظراً لعدم توفر إحصائيات رسمية دقيقة حول هذه الظاهرة، ويتساءل الكثير من الباحثين الاجتماعيين حول الأسباب التي تدفع الشباب اليائس للإقدام على وضع نهاية لحياتهم، وبلغت حالات الانتحار بين الشبان في بريطانيا، مثلاً، درجة الأزمة إذ ارتفعت نسبة المنتحرين من الشبان إلى اثنين وسبعين في المئة، وتقول دراسة نشرتها في مجلة علم النفس البريطانية إنه بينما كان المنتحرون في السابق يفضلون تسميم أنفسهم، أصبح الشنق الوسيلة المفضلة للقضاء على الحياة بين الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة، إذ ارتفع عدد المنتحرين بين الذكور الشباب من خمسة وخمسين في المليون عام 1970 إلى مئة في المليون عام 1990، ويقول تقرير جديد نشرته جريدة (غارديان) وأصدرته جمعية معنية بالتخفيف من أسباب الانتحار إن نسبة الانتحار بين الشباب ارتفعت فوق 50٪ خلال الأعوام العشرة الأخيرة. أما عن أسباب الانتحار عند الكبار فقد ذكر التقرير من ذلك: الوحدة، والحرمان، وانهيار الصحة، وتناقص الفرص المتاحة، والعيش في ظروف غير مناسبة، والخوف من وقوعهم عبئاً على الآخرين. وذكر التقرير أن هناك من يقتل نفسه كل ساعتين في بريطانيا ويعد هذا أشد إثارة للقلق من الرقم الذي تعلنه الدولة سنوياً عن الذين ينتحرون وهو (5000)، وكذلك هناك أكثر من 200 ألف محاولة انتحار..

الدينية التي تمنحهم السلوى والثقة بالله وأنهم سينالون في الآخرة أضعاف ما خسروه في الدنيا، فماذا نقدم لهم بدلاً عن ذلك يا ترى؟!..

يقول ماركس ومن لف لفه إن العقائد الدينية ليست سوى مجموعة من الأوهام التي لا أساس لها من العلم، فالله غير موجود، ولا وجود للروح والآخرة أيضاً، فلماذا نترك الناس مخدوعين بهذه الأوهام؟!.

إني أرجئ الرد على هذا القول إلى {المقالة} الثانية، وسوف نرى كيف أن ماركس ومن لف لفه فاتهم الصواب في هذا كمثل ما فاتهم في بعض الأمور الأخرى!!.

في نقد الماركسية(1)

(2)

في {المقالة} الماضية من هذه الصفحة {تحدثت} في نقد الماركسية و{تطرقت} إلى مفهوم «المادية» الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر وهو المفهوم الذي تبناه ماركس ودعاه إلى محاربة الأديان، وفي هذه الحلقة {أتحدث} عن مفهوم «المادية» من الناحية النظرية وكيف اختلف في القرن العشرين عما كان عليه في القرن الماضي.

إن المادة في ضوء المعلومات العلمية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر كان لها مفهوم يختلف كلّ الاختلاف عن مفهومها في القرن العشرين، فقد كانت المادة في القرن الماضي تعد من الأمور البديهية التي لا حاجة للإنسان إلى التفكير فيها أو التساؤل عنها، إذ هي تتمثل في هذه الأشياء التي نمسكها بأيدينا أو نحس بها بإحدى حواسنا الخمس، وقد عرّفها أحد العلماء حينذاك بأنها «كلّ شيء يشغل حيزاً في الفراغ له وزن».

أما الآن فقد أصبحت المادة من الألغاز التي يعجز العقل البشري عن فهمها، فالمادة في نظر العلم الآن مؤلفة من أمواج كهرطيسية، أي كهربائية مغناطيسية، وقد وقف العلماء حيارى تجاه هذه الأمواج، فهم لا يعرفون كنه الكهرباء والمغناطيس من جهة، كما لا يعرفون طبيعة الوسط الذي يحدث فيه التموج الكهرطيسي من الجهة الأخرى.

يقول أحد علماء هذا القرن إن المادة لا تختلف في أساس طبيعتها عن أشعة الضوء التي نراها بأعيننا، فكلتاهما تتألف من أمواج كهرطيسية، ولكن الفرق بينهما هو أن أمواج المادة تدور في دوائر ضيقة داخل الذرة، بينما أمواج الضوء تسير في خط مستقيم.

إنّ هذا التغيّر الكبير في مفهوم المادة أحدث تغيّراً مثله في نظرة العلم

إلى الكون وأسراره، فبعدما كان العلم في القرن الماضي مصاباً بالغرور أصبح الآن متواضعاً يعترف بجهله وعجزه تجاه أسرار الكون، وقد يصح القول بأن «اللا أدرية» أصبحت هي السمة الغالبة على العلم في هذا القرن، بينما كانت «القطعية» سمة القرن الماضي.

إن العلماء يقفون اليوم حيارى تجاه ألغاز الذرة المادية كمثل ما يقفون تجاه ألغاز الحجيرة الحية، وألغاز الفلك الواسع، وألغاز الدماغ البشري، فكلّما اكتشفوا شيئاً منها ظهرت أمامهم أشياء أخرى أشد غموضاً وتعويصاً.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أنه في الوقت الذي حدث فيه مثل هذا التغيّر الكبير في نظرة العلم إلى الكون نجد بعض الماركسيين، أو الكثيرين منهم، لا يزالون مصرين على موقفهم القديم في فهمهم للمادة وتفسير الكون، وهم ينظرون إلى «اللا أدرية» نظرة استنكار وازدراء، والمعروف عن لينين أنه كان ينتقد اللا أدرية وقال فيها كلمته المشهورة: «امسح وجه اللا أدري تجده مثالياً».

في رأي لينين أن العلم إذا كان اليوم عاجزاً عن فهم بعض أسرار الكون فهو لابدّ أن يفهمها غداً، فالعلم في تطوّر مستمرّ نحو إدراك الحقيقة المطلقة وهو لابدّ أن يتوصّل إليها في يوم من الأيام.

إن هذا الرأي الذي قال به لينين في أوائل هذا القرن لا ينسجم مع ما يقول به العلم في أواخر القرن، فالعلماء اليوم يردون على لينين قائلين: كيف جاز له أن يحكم حكماً قاطعاً بأن العلم سوف يتوصّل أخيراً إلى إدراك الحقيقة المطلقة؟ ومن الذي أخبره بذلك؟ إن المستقبل مجهول، وقد رأينا كيف ازداد جهل العلم كلّما ازدادت معرفته، فهو كلّما اكتشف مجهولاً واحداً من أسرار الكون ظهرت وراءه عدة مجاهيل، فمتى يا ترى يتوصّل العلم إلى الحقيقة المطلقة التي لا حقيقة أخرى وراءها؟!..

إن العلم ربما توصّل في المستقبل القريب أو البعيد إلى الحقيقة المطلقة على نحو ما تنبأ به لينين ولكن من الذي يضمن لنا ذلك ضماناً أكيداً لكي نحكم فيه حكماً قاطعاً، إن أفضل جواب لهذا السؤال هو أن نقول لا ندري!

وهذا هو جواب العلم في الوقت الحاضر على كلّ حال، ومن يدرينا ماذا يأتي به العلم المستقبل.

أخطاء أخرى:

إن تعصّب الماركسيين لمفهوم المادية القديم كان سبباً في محاربتهم للأديان على نحو ما أشرت إليه في الحلقة الماضية، والواقع أنهم لم يكتفوا بذلك بل وجدناهم يحاربون أية نظرية علمية جديدة لا تنسجم مع مفهومهم القديم للمادية، وهذا هو الذي جعلهم يحاربون علم الخارقية الجديد – أي الباراسيكولوجي – عند ظهوره، كما حاربوا قبله نظرية أينشتاين في النسبية، وقوانين مندل[1] في الوراثة، والسبرانية[2] التي يقوم عليها مبدأ الحاسوب، وغيرها.

ومما يلفت النظر أنهم اعترفوا أخيراً بصحة هذه النظريات التي حاربوها من قبل وقد حاول أحد المفكرين الماركسيين، وهو الدكتور مومجيان[3]، تبرير

---

(1) غريغور يوهان مندل (Gregor Johann Mendel) ولد 20 يوليو 1822– 6 يناير 1884م). أبو علم الوراثة، وعالم نبات وراهب نمساوي أجرى الكثير من التجارب واكتشف القوانين الأساسية للوراثة.

(2) السِبرانية (بالإنكليزية: Cybernetics) من الإغريقية κυβερνήτης أو كيبرنيتيس وتعني الموجه أو الحاكم أو القبطان. وهو علم حديث نوعياً ظهر في بداية الأربعينيات من القرن الـ20 ويعد الرياضي نوربرت فينر من أهم مؤسسيه وعرّف فينر السِبرانية بأنها «علم القيادة أو التحكم (control) في الأحياء والآلات ودراسة آليات التواصل communication في كل منهما»، وكانت بدايات السِبرانية الحديثة في المجال التقني ولعل ذلك أحد أسباب صعوبة إقحام هذه المادة في العلوم الإنسانية. وبما أن الشخص الذي يعد من مؤسسي هذا العلم كان رياضياتيا فإن هذا العلم كان في بداياته محسوبا على الرياضيات أو الرياضيات التطبيقية وخاصة مجال تطويع النظم. إلا أن العديد من المقاربات السِبرانية يمكن استعمالها خارج إطار الرياضيات في العلوم الإنسانية مثلا. ولذلك نجد اليوم شق السِبرانية الذي يهتم بالنظم عامة يسمى نظرية النظم والتي يمكن تقسيمها إلى قسمين آخرين نظرية نظم عامة تهتم مثلا بمسائل البنية التنظيمية والتحكم فيها وأنسبها للمشكلات المطروحة وهي مقاربة نجدها مثلا في علم الاقتصاد السِبراني أو علم الإدارة السِبراني. أما القسم الثاني فهو قسم تلعب فيه الرياضيات دورا أكبر وهو يهتم بالنمذجة الرياضياتية للنظم خاصة التقنية والبيولوجية وبطرق تطويعها (علم الضبط). في مجال العلوم الإنسانية يطلق أحيانا على المقاربة السِبرانية أيضا لفظة سيستامك. في الميدان الفلسفي هناك مقاربات تقدم الجدلية الهيغلية على أنها المنطق الذي يحكم السِبرانية أو النظم السِبرانية.

(3) خاتشيك مومجيان مؤلف كتاب (مراحل التاريخ) دار التقدم موسكو 1981.

ما فعلوه في هذا الشأن فقال ما نصه:

«إن تلك ليست أخطاء الماركسية بل هي أخطاء ماركسيين فرادى لم يكونوا قادرين على الفرز بين التأمل المثالي الصوفي المحيط بمسائل علم الوراثة والسبرانية والنظرية النسبية ونظرية الرنين[1] وغيرها وبين جوهر هذه الاكتشافات العلمية الجديدة».

إن ما يقوله الدكتور مومجيان ليس صحيحاً كلّه، فتلك الأخطاء التي ذكرها لم تكن أخطاء ماركسيين فرادى، بل هي كانت أخطاء عامة تورط فيها أكثر الماركسيين والتزمت بها حكومات رسمياً، وقد رأينا ذلك بوضوح في عهد ستالين[2] الذي استمرّ نحو ثلاثين عاماً وكيف التزمت الحكومة السوفيتية بالنصوص الماركسية إلى الدرجة التي كان المخالف لها معرضاً للعقوبة.

ولا أريد أن أعيد هنا ما ذكرته في حلقة سابقة عن مقاومة الحكومة السوفياتية في عهد ستالين لعلم الخارقية الجديد، فهي ظلت تقاومه حتى عام 1960، ففي ذلك العام علمت الحكومة السوفياتية بأن الحكومة الأمريكية بدأت تستخدم هذا العلم في بعض أسرارها العسكرية مما اضطر الحكومة السوفياتية

(1) الرنين في الفيزياء ظاهرة من خلالها يميل النظام الفيزيائي إلى الاهتزاز بأقصى شدة، وذلك عند تعرض النظام لترددات معينة تسمّى ترددات الرنين (أو الترددات الرنانة أو الطبيعية). وعند تلك الترددات تحدث اهتزازات عالية الشدة حتى عند أقل قدر من قوى الدفع الترددية، إذ يخزن النظام الفيزيائي طاقة الاهتزازات. وعندما يقل «امتصاص» الاهتزازات (أي يقل التخميد)، فإن تردد الرنين يقترب من التردد الطبيعي للنظام، الذي هو تردد الاهتزازات الحرة، وهنا تكمن خطورة الرنين إذ تصل السعة إلى حد لا يمكن للجسم تحمله مما يؤدي إلى انهياره في الغالب كما يحدث في ظاهرة الكأس الزجاجي عندما تسلط على الزجاج موجة صوتية مساوية لتردده الطبيعي مما يؤدي إلى تكسر الكأس، وهناك رنين ميكانيكي ورنين صوتي شوكة رنانة ورنين عمود الهواء في آلة الناي أو الأرغول الموسيقية. أو رنين كهرومغناطيسي في دائرة رنين، وكذلك رنين للموجات الكمومية. ويمكن استخدام أنظمة الرنين لتوليد اهتزازات عند تردد محدد، أو التقاط ترددات محددة من وسط حزمة اهتزازات تضم العديد من الترددات، وكان الرنين من اكتشاف جاليليو جاليلي أثناء أبحاثه عن الرقاص بدءاً من العام 1602.

(2) جوزيف فيساريونوفيتش ستالين ولد في 18 ديسمبر 1878 وتوفي في 5 مارس 1953. هو القائد الثاني للاتحاد السوفييتي، ويعد المؤسس الحقيقي للاتحاد السوفيتي. عرف بقسوته وقوته وأنه نقل الاتحاد السوفييتي من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي مما مكن الاتحاد السوفييتي من الانتصار على دول المحور في الحرب العالمية الثانية والصعود إلى مرتبة القوى العظمى..

إلى التحول دفعة واحدة من موقف المقاومة لهذا العلم إلى موقف التشجيع له.

إن من مزايا النظام الرأسمالي أنه لا يلتزم بأية نظرية أو مبدأ التزاماً نصوصياً حرفياً، كما هو الحال في النظام الشيوعي، وهذا هو الذي جعل النظام الرأسمالي يتطوّر ويغير أسلوبه في الحياة حيناً بعد حين.

إن النظـام الرأسـمالي فيـه عيوب كثيرة كما سـنأتي إليـه، ولكنه في الوقت نفسـه له جانب حسـن هو أن الحكومات فيه لا تتدخل فيما يفكر الناس فيه أو فيمـا يعتقـدون أو يكتبـون والواقـع أن بعض المفكرين الذين عاشـوا في النظام الرأسمالي كانوا من أوائل الذين لفتوا الأنظار إلى عيوب هذا النظام ودعوا إلى معالجتهـا أو الثـورة عليهـا، وقـد يكفـي أن نذكر منهم ماركـس وأنجلز ولينين، فهؤلاء نشأوا في النظام الرأسمالي ولم يمنعهم ذلك من إعلان الثورة عليه، وهم عندما جاهروا بمبادئهم الثورية لم يتعرضوا لأي اضطهاد أو عقاب.

فلو أن هؤلاء أصحاب المبادئ الثورية كانوا يعيشون في ظل نظام نصوصي جامد لنالوا من العذاب ما نالوا، أو ربما كانوا من المؤيدين للنظام بدلاً من أن يكونوا ثائرين عليه.

الخلاصة:

خلاصة ما أردت قوله في هذه الحلقة وفي الحلقة السابقة لها هي أن التزام الماركسيين بنصوص نظريتهم التي تجاوزها الزمن أدى إلى وقوعهم في أخطاء كثيرة من الناحيتين العلمية والنظرية.

وإن هذه الأخطاء، كان من الممكن التستّر عليها في العصور القديمة، أما في هذا العصر الذي أصبح فيه العالم كلّه كأنه قرية كبيرة، فإن الأخطاء لا يمكن التستّر عليها ولابدّ أن يأتي عليها يوم تنفضح فيه وقد تؤدي إلى الانفجار وهذا هو ما حدث فعلاً..

في نقد الماركسية(1)

(3)

إن الناقدين للماركسية كثروا في هذه الأيام بعد الأحداث المفاجئة التي حدثت في أوربا الشرقية، وفي هذا مصداق للمثل الشعبي العراقي وهو قولهم: «إذا وقع الجمل كثرت عليه السكاكين». ولكن هذا المثل لا ينطبق {عليّ لأني نقدت} الماركسية قبل هذا مرّتين: أولاهما في {كتابي} «الأحلام بين العلم والعقيدة» الذي صدر في عام 1959، والثانية في القسم الثاني من الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث» الذي صدر في عام 1978.

في الحلقتين الماضيتين من هذه الصفحة {تحدثت} حول مفهوم «المادية» في النظرية الماركسية، وكيف أدى بالماركسيين إلى التورط في أخطاء عملية ونظرية، وفي هذه {المقالة أتحدث} عن النصوصية عند الماركسيين وكيف أدت بهم إلى أخطاء أخرى.

أقصد بالنصوصية التمسك الحرفي بالنصوص الواردة في أصل النظرية، والملاحظ أن بعض الماركسيين، أو الكثيرين منهم، نصوصيون إلى درجة كبيرة وهم يشبهون في ذلك الملتزمتين من أتباع الأديان، وهذا هو الذين جعل أحد الباحثين يصف الماركسية بأنها «دين من غير إله».

والواقع أننا لا نلوم أتباع الأديان على التزامهم الحرفي بالنصوص الدينية، فهم يعتقدون أن تلك النصوص وحي من السماء وهي إذن لابدّ أن تكون كاملة لا نقص فيها، أما الماركسيون فهم في الوقت الذي يعترفون فيه بأن ماركس بشر يخطئ ويصيب نراهم يتمسكون بالنصوص التي جاء بها على نحو ما يتمسك المتدينون بنصوص دينهم.

لا نذكر أن الماركسيين ليسوا كلّهم نصوصيين، فإن فيهم الكثير من

المتحررين المتنورين، وقد التقيت بعضاً منهم[1] في بريطانيا وأوربا غير مرّة، وناقشتهم في مواضيع مختلفة، وأعجبت بما لديهم من بعد نظر ومرونة، ومن المؤسف أن أقول إن الماركسيين من هذا النمط المتحرر قليلون في مجتمعنا، إذ أن النصوصية هي الغالبة على الماركسيين فيه، وقد عانينا منهم ما عانينا، ولاسيّما في الفترة الغوغائية التي شهدناها قبل ثلاثين سنة حيث كانوا يشجعون الغوغاء على «السحل»[2] ويعتبرونه مكسباً شعبياً.

نموذج نصوصي:

يجب أن لا ننسى أن النصوصيين المتعصبين يسيئون إلى النظرية التي يلتزمون بها من حيث يحسبون أنهم يحسنون إليها فالدنيا في تغيّر مستمرّ بينما هم يريدون البقاء في الزمن الذي ظهرت فيه النظرية رغم أنف الدنيا!.

أذكر في هذه المناسبة نموذجاً للنصوصية المتعصّبة عند الماركسيين، وهو يتمثل في كتاب صدر في روسيا في عام 1958، ويبحث في ثورة العشرين التي حدثت في العراق في عام 1920، وقد ألفه مستعرب روسي اسمه «كوتلوف»[3] وقد ترجم الكتاب إلى العربية وصدرت له طبعتان إحداهما في بغداد في عام 1971، والثانية في بيروت في عام 1975، وربما صدرت له طبعات أخرى لا أعرف عنها شيئاً.

إن هذا الكتاب هو في الأصل رسالة قدمها المؤلف لنيل شهادة الدكتوراه في المجلس العلمي لمعهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية، وقد وصف المجلس العلمي هذه الرسالة بأنها «غنيّة في محتواها عميقة في تحليلاتها

---

(1) في الأصل بالبعض منهم.

(2) السحل: سحب جثث المعارضين في الشوارع بعد ربطها بحبال، وأني أذكر ضجة حدثت في الكاظمية عندما كنت طفلاً في العام 1959 عندما (سحل) الشيوعيون جثة عبد الأمير الطويل.. ولم يكن الطويل هو المقصود، ولكن المقصود رجل احتمى به في دكانه في الكاظمية فأعلن الطويل أنّ المطارد دخيل عنده وأنه لا يمكن أن يسلمه لمن يطاردونه، فسحلوه بدلاً من الذي لاذ به، وقد أثارت هذه الحادثة البشعة استنكار الناس واستياءهم في كلّ مكان، ومن المؤسف أن هذه الممارسة المقيتة عادت بعد الاحتلال على يد الميليشيات الطائفية المتبناة من أحزاب السلطة وعلماء دين.

(3) كوتلوف ل.ن. مؤلف كتاب (ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق).

واستنتاجاتها العلمية»، واتخذ قراراً بطبعها، وعندما صدرت ترجمة الكتاب في العراق قوبل بالتقدير والمديح من بعض الماركسيين العراقيين، فكتب أحدهم يصفه بأنه «نموذج حي لأسلوب البحث العلمي الحديث الذي نحن بأمسّ الحاجة إليه لتقييم تاريخنا في ضوئه». وكذلك كتب المترجم يصف الكتاب بأنه يمتاز على كلّ المؤلفات الأخرى التي بحثت في ثورة العشرين بكونه يتضمن تحليلاً علمياً للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مهدت للثورة، وأنه اعتمد أسلوباً جديداً في البحث يضع الجماهير التي هي خالقة التاريخ في المكان الأول من الحوادث إذ هو يعتبر جماهير الفلاحين والبدو وشغّيلة المدن أنها هي التي أشعلت الثورة وكانت عمادها وقوتها بالرغم من أن قيادة الثورة كانت مؤلفة من شيوخ العشائر ورجال الدين والبرجوازية.

لا أكتم القارئ أني حين قرأت الكتاب شعرت كأنه يبحث في ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها[1]، أو كأنه يبحث في مجتمع غير المجتمع الذي نعيش فيه، فقد كان كوتلوف نصوصياً[2] في بحثه إلى درجة يندر أن نجد لها مثيلاً في الكتابات التاريخية والاجتماعية، وأرجو من القارئ الذي لا يصدق بقولي هذا أن يقرأ الكتاب بإمعان ليحكم فيه بنفسه.

إني نقدت كتاب كوتلوف في الجزء الخامس من كتابي «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» وهو الجزء الذي بحثت فيه في ثورة العشرين[3]، ولا أريد أن أعيد الآن ما قلته آنذاك، وقد يكفي أن أذكر هنا ناحية واحدة من الكتاب هي الناحية التي تتصل بالنصوصية اتصالاً مباشرة.

---

(1) قد تكون هناك حاجة إلى التذكير بأن الدكتور علي الوردي ولد قبل ثورة العشرين بسبع سنوات، فهو من مواليد العام 1913.

(2) أخذت القوى الوطنية العراقية على الشيوعيين العراقيين أنهم نصوصيون يريدون تطبيق نظرية لا تصلح لمجتمع مثل مجتمعنا قسراً على مجتمعنا، ومن نقاشات هذه القوى مع الشيوعيين أن ماركس وضع نظريته لمجتمع صناعي وأن تطبيقها في الاتحاد السوفيتي لم يكن نصوصياً إذ طور فلاديمير ايلتش لينين هذه النظرية بما جعلها تصلح لبلد زراعي خرج تواً من النظام القيصري، فأخذت النظرية تدعى في الاتحاد السوفيتي النظرية الماركسية اللينينية.

(3) أفرد الوردي في الجزء الخامس من موسوعته «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» ملحقاً كاملاً عن ثورة العشرين يعد من المراجع في تاريخ هذه الثورة.

يستند كوتلوف في دراسته على النصّ الماركسي فيما يسمى «المادية التاريخية»، فقد كان رأي ماركس أن التاريخ البشري هو نتاج الصراع بين الطبقات القائمة على أساس اقتصادي، وهو يقول في ذلك إن الشعوب كلّها مرّت أو تمرّ عبر تاريخها بمراحل أو أنظمة خمسة هي:

1. المشاعية البدائية.
2. الرق.
3. الإقطاع.
4. الرأسمالية.
5. الاشتراكية.

ويأتي كوتلوف أخيراً فيضع هذه «المسطرة»، ذات المراحل الخمس التي جاء بها ماركس على الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً في العراق في أيام ثورة العشرين، ويستنتج من ذلك أن العراق كان حينذاك يعيش في مرحلة الإقطاع، ولهذا كانت ثورة العشرين في رأيه نتاج الصراع بين طبقة الجماهير الكادحة، أي البدو والفلاحين وشغيلة المدن من جهة، وطبقة الأسياد المستغلين لهم من الجهة الأخرى.

إن موضوع ثورة العشرين طويل لا مجال هنا للإسهاب فيه، ومن الممكن القول عنها بإيجاز إنها كان لها جانبان أحدهما يتمثل في المظاهرات والتجمعات الاحتجاجية التي حدثت في بعض المدن كبغداد والموصل وكربلاء والنجف، والآخر يتمثل في النزاع المسلح الذي نشب بين بعض العشائر العراقية والقوات الإنكليزية.

وحين ندرس وقائع النزاع المسلح الذي حدث في الثورة نجد أن العشائر العراقية كانت تجاه هذا النزاع فئتين، إحداهما شاركت فيه وبذلت فيه تضحيات غير قليلة في الأرواح والأموال، والأخرى لم تشارك فيه، ومما يلفت النظر أن كلّ عشيرة من كلتا الفئتين لم يحدث فيها أي صراع أو اختلاف بين شيخ العشيرة وأفرادها، فالعشيرة التي شاركت في النزاع المسلح كانت فيه كتلة واحدة بشيخها وأفرادها معاً، وكذلك كانت العشيرة التي لم تشارك فيه، ولم يحصل

في أية منطقة من مناطق النزاع المسلح أن ثار أفراد العشيرة بمعزل عن شيخ العشيرة أو بخلاف رأيه.

إن النظام العشائري الذي كان سائداً في العراق في العهد العثماني لم يكن نظاماً إقطاعياً على النمط الذي كان سائداً في أوروبا في القرون الوسطى، فلم يكن في العراق سادة وأقنان، بل كان شيخ العشيرة رئيساً لها يحاول ترضيتها بمقدار جهده، لأنه إذا استغل أفرادها أو استبد بأمورهم نفروا منه والتفّوا حول أحد منافسيه من إخوته أو أبناء عمه وجعلوه شيخاً لهم بدلاً عنه.

كانت قوّة الشيخ مستمدة من التفاف أفراد العشيرة حوله. وهو لم يحصل على ا لأرض المزروعة إلا بقوة عشيرته، فلم تكن حينذاك أراض مسجلة في دوائر الحكومة، أو كانت الحكومة قادرة على حماية مالكيها، بل كانت الأراضي لمن استحوذ عليها بقوة سلاحه.

إن هذا هو ما أدركناه وأدركه غيرنا من الذين عاصروا تلك الأيام ولكن كوتلوف والمعجبين به يأتون إلينا أخيراً ليقولوا إن ثورة العشرين كانت ثورة الأقنان المستغَلين (بفتح الغين)، على الأسياد المستغِلين (بكسر الغين)، ولو أن ما قالوه كان صحيحاً لوجب أن تكون الثورة قد قام بها أفراد العشائر ضدّ شيوخهم، غير أن الذي رأيناه فعلاً هو أن أفراد العشائر وشيوخها ثاروا معاً وكذلك فعل الذين لم يثوروا.

نموذج آخر:

قرأت في عام 1976 مقالة لأحد الماركسيين العراقيين نشرته جريدة «طريق الشعب»[1] التي كانت تصدر حينذاك، وكان كاتبها ينحو فيها منحى كوتلوف في تفسير التاريخ، ففي نظره أن التاريخ العربي مرّ منذ بدايته حسب المراحل التي قال بها ماركس، إذ كانت القبائل البدوية قبل الإسلام تعيش في مرحلة

(1) الجريدة الناطقة بلسان الحزب الشيوعي العراقي، وكان الحزب قبل ذلك يصدر جريدته باسم (اتحاد الشعب)، وعادت إلى الصدور بعد الاحتلال الأمريكي للعراق سنة 2003 لتكون ناطقة باسم شيوعيين قبلوا الانضواء تحت العملية السياسية التي وضعها المحتل.

المشاعية البدائية، وكانت دويلات اليمن كالمعينية[1] والسبأية[2] تعيش في مرحلة الرق، وهو لم يذكر شيئاً عن ظهور الإسلام والخلافة الراشدة، بل ذكر العهدين الأموي والعباسي ووصفهما بأنهما يمثلان عهد الإقطاع.

ويوجه هذا الكاتب لومه {إلى[3]} وزارة التربية لأنها في رأيه لم تقم بواجبها في توجيه التلاميذ نحو هذا التفسير «العلمي» للتاريخ العربي، وهو يقول عن كتب التاريخ التي هي في أيدي التلاميذ بأنها لا تساعد على تنمية التفكير الصحيح فيهم.

إني حين قرأت هذه المقالة في حينها حمدت وزارة التربية لأنها لم تأخذ بنصيحة هذا الكاتب، كما حمدت القدر لأنه لم يمكن هذا الكاتب وأمثاله من أن يتولوا وزارة التربية ويوجهوها حسب نظريتهم «العلمية».

---

(1) من أقدم الدول العربية التي بلغنا خبرها. عاشت وازدهرت بين قرابة الـ«1350–630 ق.م.» على رأي بعض العلماء. بلغتنا أخبارها من الكتابات المدونة بالمسند والكتب الكلاسيكية. ظهرت في الجوف، بين نجران وحضرموت، أرضها خصبة. زارها السائح نيبور Niebuhar ووصفها. وذكر الهمداني جملة مواضع فيها، ولم يعرف شيئاً عن أصحابها.

(2) مملكة قديمة امتدت من شواطئ البحر الأحمر والحبشة وضمت جنوب جزيرة العرب حيث تقع اليمن في أيامنا هذه واستمرت حتى استيلاء الدولة الحميرية عليها أواخر القرن الثالث بعد الميلاد. بدأت بالازدهار نحو القرن الثامن ق.م. اشتهرت بغناها وتاجرت بالعطور والدرر والبخور واللبان. ذكر إنتاجها للعطور في مصادر عدة مثل العهد القديم والإلياذة، كما ذكرها القرآن الكريم، إذ تحمل إحدى سوره اسمها. أشهر قصصها بلقيس وزواجها بالنبي سليمان، وقصة السد العظيم وسيل العرم.

(3) في الأصل (على).

في نقد الماركسية(1)

(4)

إن الماركسية ليست نظرية فقط بل هي أيضاً حركة اجتماعية تستهدف تغيير النظام الاجتماعي والواقع أن هذه الازدواجية في الماركسية أحدثت شيئاً من الالتباس لدى ناقديها ودارسيها.

يجب أن لا ننسى أن هناك فرقاً كبيراً بين طبيعة النظرية العلمية المحضة والحركة الاجتماعية التي تسعى نحو اجتذاب الأتباع والأنصار لها فالمفروض في صاحب النظرية العلمية أن لا يلتزم بأي مبدأ أو عقيدة بل هو يسير في بحثه على منهج التشكيك والاستقراء، أما صاحب الحركة الاجتماعية فهو يجب أن يخاطب الناس بلهجة اليقين والعقيدة الجازمة البعيدة عن الشك، وذلك لكي يجتذب إليه الأتباع ويثير فيهم الحماس.

وبعبارة أخرى: إن العلم يجب أن يكون بعيداً عن الحماس والتعصّب، وهو لا ينجح إلا في أوساط نخبة من الناس هم الذين كرسوا حياتهم لطلب العلم حسب المنهج الاستقرائي السائد بينهم، أما الحركة الاجتماعية فهي يجب أن تتصف بالحماس والتعصّب لكي تجتذب إليها أكبر عدد من الناس.

إن الباحث العلمي يصعب عليه أن يكون محركاً للجماهير، كما أن محرك الجماهير يصعب عليه أن يكون باحثاً علمياً، فكلّ منهما له منهج يختلف عن منهج الآخر.

إن المنهج الاستقرائي الحديث يختلف كلّ الاختلاف عن المنهج الاستنتاجي القديم، فقد كان في مقدور المفكر قديماً أن يكون باحثاً وداعية في آن واحد لأن المنهج الاستنتاجي قائم على الكلّيات العقلية العامة، على نحو ما ذكرته في حلقة سابقة، وهذه الكلّيات اعتبارية ونسبية أكثر مما هي حقائق مطلقة، أما المنهج الاستقرائي الحديث فهو لا يثق بالكلّيات العقلية العامة، بل

هو يثق بدلاً عنها بالبحث الموضوعي والتجريبي الذي لا يخضع لأيّ مبدأ أو عقيدة سابقة، وهو كثيراً ما يغير رأيه تبعاً لتغيّر المعلومات التي يحصل عليها حيناً بعد حين.

حول طبيعة البشر:

إن ماركس - كما أشرت إليه من قبل - كان مفكراً مبدعاً وهو كغيره من المبدعين لم يأت بنظريته من فراغ، بل هو استند فيها على المعلومات العلمية التي كانت سائدة في زمانه، وهذه المعلومات تتغيّر باستمرار، فما كان منها مقبولاً في زمان ماركس قد يصبح غير مقبول في زماننا.

وقد ذكرت سابقاً عن المادية وكيف تغيّر مفهومها في زماننا عما كان عليه في زمان ماركس، ويمكن أن أقول مثل ذلك عن طبيعة البشر فإن البحوث العلمية كشفت عن هذه الطبيعة أموراً لم تكن معروفة من قبل، وهذا كان سبباً في بعض الأخطاء التي تورّط بها ماركس عند تكوين نظريته.

إن طبيعة البشر - كما اتضح الآن علمياً - تتفاعل فيها عدة عوامل، كالعامل الاقتصادي والعامل الجنسي والعامل الأنوي والعامل التراثوي والعامل النفسي، وغيرها. ولكن ماركس ركز نظره على واحد منها فقط وهو العامل الاقتصادي ثم فسر التاريخ كلّه على أساس الصراع الطبقي القائم على ذلك العامل.

يمكن القول إن ماركس كان مغالياً في نظريته، ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى أن هذا الغلو في ماركس كان من عوامل انجذاب الجماهير إلى نظريته فالجماهير بطبيعتها أميل إلى الغلو في تفكيرها منها إلى النظرة الموضوعية الرصينة وهذا أمر لاحظناه في الطوائف الدينية بوضوح.

ومما يلفت النظر أن أنجلز الذي كان رفيقاً لماركس قد فطن إلى طبيعة الغلو في النظرية الماركسية بشكل غير مباشر، فهو يقول في ذلك ما نصه:

«ماركس وأنا نحمل جزئياً مسؤولية كون الشبان يعطون الجانب الاقتصادي وزناً أكبر مما يجب.. ففي مواجهتنا لخصومنا كان علينا أن نؤكد المبدأ الأساسي الذي ينكرونه.. وفي هذه الحالة لم نجد دائماً الوقت والموضع والظرف الذي يتيح لنا إعطاء العوامل الأخرى التي تشترك في الفعل المتبادل مكانها..».

إن أنجلز في كلمته هذه يشير إلى الشبان الذين أعطوا العامل الاقتصادي وزناً أكبر مما يجب كما يشير إلى مسؤوليته هو وماركس في جعل الشبان يفعلون ذلك، فهم في مواجهتهم للخصوم يجب أن يكونوا متحمسين في التركيز على العامل الذي ينكره الخصوم.

إن الجماهير - ولاسيما الشبان منهم - هم وقود التاريخ.. وهم يجب أن يسيطر عليهم الحماس والغلو لكي يستطيعوا أن يقوموا بدورهم في تحريك التاريخ، أما الباحث العلمي الذي يجب أن يبتعد عن الحماس والغلو بمقدار جهده فهو يحرك التاريخ من ناحية أخرى.

مأزق لينين:

المعروف عن لينين أنه كان ذا مرونة في التفكير وابتعاد عن النصوصية إلى حد كبير.. وهو عندما تولى الحكم في روسيا عقب نجاح الحركة البلشفية فيها عانى من الماركسيين المتحمسين ما عانى، فهو قد خالف بعض النصوص التي وردت في نظرية ماركس، فهب بعض النصوصيين المتحمسين ضدَّه، واتهموه بأنه محرِّف للماركسية أو مارق عنها، وقد كتب لينين في نقدهم كتاباً كان عنوانه «مرض الطفولة اليساري في الشيوعية» أنقل فيما يلي نبذة منه، فهو يقول:

«قال ماركس وأنجلز إن نظريتنا ليست عقيدة جامدة، بل هي هادية للعمل، إن أعظم غلطة وأعظم جريمة اقترفهما الماركسيون (من الماركة المسجلة).. هو أنهم لم يفهموا هذا الأمر ولم يستطيعوا تطبيقه في اللحظات الفاصلة من ثورة البروليتاريا[1]..».

يقول لينين إن النظرية الماركسية ليست عقيدة جامدة، وهذا قول ينفع في بعض الأتباع الذين هم قادرون على النظر الموضوعي الخالي من الحماس،

(1) مصطلح سياسي اجتماعي يقرر أن طبقة البروليتاريا ستقوم بثورة ضد الطبقة البورجوازية ويدعو إليها شيوعيون واشتراكيون، ليكون ذلك بداية لتفكيك الرأسمالية، ويرى فريق من الماركسيين من أتباع لينين أن ثورة البروليتاريا لابد أن تقودها طليعة من الثوريين المحترفين لتحقيق حلم المجتمع الشيوعي، لكن فريقاً آخر من الماركسيين المؤمنين بأفكار روزا لوكسيمبورج رفضوا ما قاله لينين ويقولون إن الطبقة العاملة كلها، أو غالبيتها ستقوم بثورة البروليتاريا.

ولكنه لا ينفع في الأكثرية الساحقة منهم، أو لعله يضرّهم أكثر مما ينفعهم.

إن هـذا المـأزق الـذي عانـى منـه لينين في عـام 1917 عانى منه بعض قادة الشـيوعيين فـي العـراق فـي عامـي 1958 – 1959، فقـد اندفعـت الجماهيـر فـي بعـض المناطـق اندفاعـاً غوغائياً فظيعاً، واقترفوا أفعالاً منكرة تعد لطخة عار في تاريخ المجتمع العراقي، وقد رأيت بعض القادة من الشيوعيين يستنكرون تلك الغوغائية في الجماهير، ولكنهم سكتوا على مضض.

إن هؤلاء القادة كانوا حائرين بين اتجاهين متناقضين، فهم من جهة يعتبرون حماس الجماهير قوة شعبية يهددون بها الخصوم وقد يتوصّلون بها إلى الهدف الذي يسعون إليه، ولكنهم من الجهة الأخرى يجدون فيها اندفاعاً غوغائياً يسيء إلى الحركة ويشوه سمعتها.

إن هـذا موضـوع يحتـاج إلى شـيء من التفصيل، وسـوف أحاول الحديث عنه في المقالة القادمة.

(5)

إن الفتـرة الغوغائيـة التـي مرّت بالعـراق في عامي 1958 – 1959 كانت لها أهمية علمية غير قليلة إذ هي تعطينا صورة واضحة للطبيعة البشـرية من بعض نواحيهـا وإنـي حاولـت دراسـة تلك الفترة في حينها بمقـدار جهدي، وليس هنا مجال التفصيل عنها وقد يكفي أن أذكر بعض الجوانب منها مما له صلة بموقف الماركسيين منها[1].

لا حاجة بي إلى القول إن ظاهرة الغوغاء[2] هي من المواضيع التي بحث فيها علماء الاجتماع في عصرنا كما تطرق إليها المفكرون القدامى كثيراً.

والمعـروف عـن الإمـام علـي بن أبي طالـب أنه كان كثير الـذم للغوغاء[3] (والمظنـون أن مـا شـاهده مـن أفعال الغوغاء الذين قتلـوا الخليفة الثالث عثمان هو الذي جعله يمقتهم ويحذّر الناس من مغبّة الاندفاع معهم).

يـروى عـن الإمـام علـي كمـا ورد في (نهـج البلاغة)، أنه قـال في وصف الغوغاء: «هم الذين إذا اجتمعوا ضرّوا وإذا تفرقوا نفعوا»، وقد سُئِلَ عن سبب

(1) معنى هذا أن الوردي درس مرحلة ما بعد النظام الملكي الذي قيل أنه توقف عنده، ولكنه لم ينشر دراسته لتلك الفترة، ولا ندري أين أودع هذه الدراسة.

(2) يقول الوردي في كتابه (الأحلام بين العلم والعقيدة): (سأصارح القارئ بقول قد لا يرتضيه مني، وهو أني كنت في العهد البائد أخشى من غضب الحكام، وقد أصبحت في العهد الجديد أخشى من غضب «الغوغاء»، وأرجو من القارئ ألا يسيء فهم قولي هذا، فالغوغاء ظاهرة اجتماعية موجودة في كل مجتمع، وكلما اشتد الجهل في بلد ازداد خطر الغوغاء فيه). والواقع أن مفكرين وعلماء وباحثين سبقوا الوردي في التحذير من خطر الغوغاء، ووصف الدكتور أحمد الربعي، أستاذ الفلسفة الإسلامية في جامعة الكويت ظاهرة الغوغاء بأنها «دكتاتورية الأكثرية التي وقودها العاطفة وعدوها العقل».

(3) في حفل استذكاري للوردي أقيم في أمريكا ذكر السيد طالب الرفاعي، أحد أعمدة حزب الدعوة العراقي، أنه شاهد أحد الغوغاء في مجلس حسيني يتقدم إلى الوردي ويبصق في وجهه بسبب كتاباته الصادمة لأمثاله من الغوغاء، وهذه حادثة ليست فريدة في تصدي الغوغاء للوردي وطروحاته.

المنفعة في تفرق الغوغاء فأجاب قائلاً: «يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم فينتفع الناس بهم كرجوع البنّاء إلى بنائه والنسّاج إلى منسجه والخبّاز إلى مخبزه»[1].

ويروى عن الإمام علي أيضاً أنه جيء إليه في خلافته برجل ارتكب ذنباً وكانت حول الرجل جماعة من الغوغاء يهرجون ويريدون الاعتداء عليه فصاح الإمام عليهم قائلاً: «لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلا في كلّ سوأة».

إن هذا الموقف الذي وقفه الإمام تجاه الغوغاء يشبه موقف السيد المسيح عندما شاهد جماعة من الغوغاء يرجمون بالحجارة امرأة زانية فقال يخاطبهم: «من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر».

والواقع أن ما قاله الإمام علي وقاله السيد المسيح يتضمن حكمة اجتماعية بالغة، فأفراد الغوغاء يرتكبون الخطايا والذنوب في حياتهم اليومية كثيراً، ولكنهم لا يكادون يرون شخصاً مستضعفاً قد ارتكب ذنباً حتى ينتفض فيهم دافع الحرص على الأخلاق أو الدين أو المصلحة العامة أو ما أشبه، هذا مع العلم أنهم لو رأوا شخصاً ذا جاه أو نفوذ أو سلطة قد ارتكب مثل ذلك الذنب لسكتوا عنه، أو ربما أيّدوه على ما فعل.

تبيّن الآن علمياً أن الغوغاء إنما يقومون بأفعالهم الغوغائية من أجل التنفيس عن رغباتهم المكبوتة، وهم لذلك يندفعون بها بلا حدود حين يأمنون من العقوبة ولكنهم لا يكادون يلمحون سيف العقوبة مسلطاً عليهم حتى يعودوا إلى ديدنهم القديم في الرضوخ لكلّ مستبدّ وفي تجنّب كلّ ما يؤدي إلى الضرر بهم، وهو السلوك الذي يتمثّل في الأقوال الدارجة بين العامّة في العراق كقولهم: «ياهي مالتي» و«أنا شعليه»![2]..

---

(1) قال ابن القيم ضمن وجوه فضل العلم وطلبه، الوجه التاسع والعشرون بعد المائة: ما رواه كُميل بن زياد النخعي، قال: أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي فأخرجني ناحية الجبّانة، فلما أصحَرَ جَعَلَ يتنفس، ثم قال: «يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير، أحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة:

1. فعالم رباني.
2. ومتعلم على سبيل نجاة.
3. وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

(2) معناها: وما مصلحتي في التدخل في ما يجري؟

يوم له ما بعده:

في اليوم الذي أعلنت فيه ثورة 14 تموز 1958 حدثت أحداث غوغائية فظيعة كانت بداية أحداث أفظع منها جرت في مختلف أنحاء العراق.

وشاء القدر أن يكون على رأس الثورة أشخاص لا يملكون القدر الكافي من الحكمة وبعد النظر، فغضّوا النظر عن تلك الأحداث، أو هم شجّعوها فأساءوا بذلك إلى الثورة وإلى أنفسهم.

وفي الوقت الذي كان على رأس الثورة أشخاص من هذا الطراز كان في قيادة الحزب الشيوعي أشخاص لا يقلّون عنهم من حيث قصر النظر وقلّة الحنكة وبذا سارت الموجة الغوغائية في العراق سيرتها المعروفة.

في حزيران 1959 حدثت في بلدة الكاظمية حادثة غوغائية أتيح لي أن ادرسها عن كثب، وخرجت منها بنتائج تلفت النظر من حيث طبيعتها العامة، ومن حيث تأييد الحزب الشيوعي لها.

خلاصة الحادثة أن زمرة من الغوغاء كانوا يطاردون رجلاً اتهموه بالرجعية فلجأ الرجل إلى صاحب دكّان ليحميه منهم، وكان صاحب الدكّان واسمه عبد الأمير الطويل من الأقوياء الذين يعتزّون بقوّتهم وعنفوانهم، فتحدّى المهاجمين وحصلت مشادّة عنيفة بينه وبينهم وكانوا هم يحملون الحبال فألقوها عليه، ولعلهم كانوا يريدون أن يجعلوا منه درساً لغيره، وصاروا يسحبونه بها ولم يستطع هو أن يتخلّص من حبالهم بالرغم من قوّته وعنفوانه وظلوا هم يسحبونه في الشارع، وهم يهتفون: «ماكو مؤامرة تصير والحبال موجودة!».

حدّثني من شاهد الحادثة عياناً فقال إنه رأى عبد الأمير وهو يرفع رأسه من على الأرض في أثناء سحبه ويستغيث بالناس قائلاً: «لخاطر الله! لخاطر موسى بن جعفر»، فلم يأبه أحد منهم بالله أو بموسى بن جعفر، ومات عبد الأمير في أثناء سحبه دون أن يرحمه أحد!.

استمرّ الغوغاء يسحبون جثّة عبد الأمير حتى وصلوا به إلى جسر الأئمة، فعبروه، ولكنهم فوجئوا بمقاومة لهم من فوق السطوح التي تشرف على الجسر من جهة الأعظمية حيث أطلق منها عليهم الرصاص، وسقط منهم بعض الجرحى

وبذا تحوّل الغوغاء فجأة من شجعان يتحمّسون إلى جبناء يفرّون وألقى بعضهم بأنفسهم إلى النهر طلباً للسلامة، وليس هذا بالأمر الغريب منهم إذ هو ديدن الغوغاء في كلّ زمان ومكان!.

إني أنتظر صباح اليوم التالي لكي أقرأ ما تكتبه جريدة (اتحاد الشعب) التي كانت تنطق بلسان الحزب الشيوعي حينذاك وقد تعجبت حين وجدتها تصف الحادثة بأنها مظاهرة شعبية وتشجب عمل الذين قاموا بإطلاق الرصاص عليها. وإني ما زلت أحتفظ بنسخة الجريدة وقد لفت نظري فيها أنها حين ذكرت «المظاهرة الشعبية» نسيت أن تذكر أنها كانت تسحب وراءها جثّة رجل ميّت، فهي ركّزت نظرها على الاعتداء الذي وقع على المظاهرة بينما هي غضّت النظر عن الاعتداء الذي وقع منها.

وبعد أيام من تلك الحادثة أتيح لي أن أتحدّث مع أحد قادة الحزب الشيوعي، فوجدته يؤيّد ما حدث فيها وكان يعتبر الشاب الذي جرى له «السحل» مستحقّاً له، وأن الجماهير التي قامت بسحله إنما فعلت ذلك بدافع الوطنية[1].

وهنا يجب أن أعترف أن الماركسيين في العراق لم يكونوا كلّهم من طراز هذا الذي تحدثت معه فقد كان فيهم الكثيرون من المستائين المتذمّرين، ولكن هؤلاء المستائين لم يستطيعوا أن يجهروا برأيهم علناً، وتركوا الموجة الغوغائية تأخذ مجراها حتى انتهت أخيراً بمذبحة الموصل وكركوك.

طبيعة المأزق:

أعود هنا إلى ما ذكرته {سابقاً} هو أن النظرية الماركسية ليست نظرية فقط، بل هي حركة اجتماعية أيضاً فهي في حاجة إلى أتباع يلتفّون حولها وينصرونها ضدّ خصومها وهؤلاء الأتباع هم كأمثالهم من أتباع أية حركة اجتماعية لابدّ أن يكون فيهم الغوغائيون والجهلة قليلاً أو كثيراً وماذا يستطيع القائد أن يفعل تجاه هؤلاء الأتباع وغوغائيتهم؟!. إنه لابدّ أن يواجه مأزقاً من جراء ذلك، أي ما يسمى في علم الاجتماع Dilemma فهو في حاجة إلى الأتباع من جهة

(1) أخبرني الوردي أنّ هذا القيادي كان من أقاربه وهو شخصية أدبية معروفة تحوّل إلى الاتجاه الديني فيما بعد، سماه لي وقتها ولكننا نحجم عن ذكره فقد توفي.

ولكنـه مـن الجهـة الأخـرى يجب أن يكون يقظاً تجاه الأتباع الذين قد يسـيئون إلى الحركة بغوغائيتهم.

قال أحد مفكري الماركسية: إن القائد يجب أن يكون موقفه أمام الغوغاء لا وراءهـم، أي أنـه يجـب أن يكـون موجّهاً لهم يسـير أمامهـم وليس تابعاً لهم يسير خلفهم حيثما ساروا.

إن هـذا القـول صحيـح، فالغوغـاء قـوة غير أنها قوّة هوجـاء، وعلى القائد المحنّك أن يعرف كيف يستفيد منها وكيف يجنّبها الاندفاع الأهوج في الوقت نفسـه ومـن المؤسـف أن نـرى القـادة المحنّكين من هذا الطـراز قليلين جدّاً أو هم نادرون!.

(6)

إنـي قـد أتيـح لـي أن أعيـش مـدة غير قصيرة فـي بعض البلاد الرأسـمالية والبلاد الشيوعية، وخالطت الناس فيها وكان رأيي فيهما أخيراً أن كلاً من ذينك النظامين له محاسنه ومساوئه، فالنظام الرأسمالي غزير الإنتاج ولكنه في الوقت نفسه يكثر فيه الفقراء المدقعون، والمشردون الذين ينامون على أرصفة الشوارع، وعصابات المجرمين الذين يعيثون في الأرض فساداً، وتجار المخدرات.. الخ..

أمـا النظـام الشـيوعي فـإن الإنتـاج العـام فيه لـم يصل في مسـتوى كفاءته وغزارتـه إلـى المسـتوى الـذي وصل إليـه في النظام الرأسـمالي، وكثيراً ما نجد فيـه الصفـوف الطويلـة مـن الذين يقفون لشـراء حاجاتهم الضروريـة، ولكنه في الوقت نفسـه يخلو من ظواهر الفقر المدقع والتشـرد والتسـول التي هي كثيرة الانتشار في البلاد الرأسمالية.

يحلو لي في هذه المناسبة أن أذكر النكتة التي جاء بها الكاتب الإنكليزي المعـروف برنـارد شـو، فهـو كان أصلع الرأس ولكن لحيته كانت غزيرة الشـعر وفي ذات يوم أشـار برنارد شـو إلى رأسـه ولحيته وقال إن وضع الشـعر فيهما هو كالنظام الرأسمالي، غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع.

إن هذا القول لا يخلو من مبالغة غير أنه لا يخلو من حق في الوقت نفسه وحين نقارن بين النظامين الرأسمالي والشيوعي نجد أن كلاً منهما قد تفوّق على الآخر في جانب وتأخّر عنه في الجانب الآخر.

نظام الملكيّة:

إن مـن أهـمّ الفـروق بيـن النظامين الرأسـمالي والشـيوعي هـو فيما يتصل بالملكية الخاصّة والعامّة فالنظام الرأسمالي يراعي الملكية الخاصة ولا يتدخل

فيها إلا ضمن حدود معينة وهذا كان من أهم العوامل في غزارة الإنتاج فيه.

إنّ الإنسان بطبيعته حريص على ملكه الخاص، وهو يصبّ تفكيره ويبذل كلّ جهده من أجل تنمية ملكه وزيادة أرباحه، وهو بذلك يختلف عن الموظف الذي تعيّنه الدولة لإدارة إحدى مؤسساتها العامة فالموظف مهما كان مخلصاً حازماً فهو لا يمكن أن يصل في إخلاصه وحزمه إلى مستوى ذلك المالك الحريص على ماله.

إن الذي لاحظته أنا ولاحظه غيري من الذين خبروا الحياة في البلاد الشيوعية هو أن ظواهر التسيّب والارتشاء والتفسخ غير قليلة في دوائر تلك البلاد ومؤسساتها العامة محلات البيع فيها، فالعاملون في محلات البيع مثلاً قد يقبلون الرشوة من الزبون لكي يقدموا له السلعة التي أخفوها[1] عن الآخرين، والعاملون في المطاعم قد يزيدون في القائمة التي يقدمونها للزبون لكي يزيدوا بذلك من دخلهم اليومي، إن هذا أمر رأيناه عياناً ورآه غيرنا في البلاد الشيوعية، مع العلم أنه غير مألوف، أو هو نادر في البلاد الرأسمالية المتقدمة.

إن صاحب المحل أو المطعم في البلاد الرأسمالية يكون شديد الرقابة على العاملين لديه، وهو لا يكاد يلمح في أحدهم شيئاً مريباً حتى يسرع إلى معاقبته أو إلى طرده من عمله وهذا يصدق على المصنع الكبير مثل ما يصدق على المحل الصغير.

إن المدير في البلاد الشيوعية لا يملك مثل هذه السلطة تجاه عماله وهو قد يشعر كأنه واحد منهم، وهو قد يخشى منهم مثل ما يخشون هم منه، وهذا وضع أقرب إلى روح العدالة والمساواة مما يجري في البلاد الرأسمالية، ولكن مشكلة الإنسان أنه قد يسيء التصرف عندما نعامله بروح العدالة والمساواة في بعض الأحيان. إنّ الإنسان هو الإنسان في كلّ زمان ومكان، فهو يسعى وراء مصلحته الخاصة ويدّعي أنه يريد المصلحة العامة وكثيراً ما يخدع الإنسان نفسه قبل أن يحاول خداع الآخرين، وقد انطلت حيلته هذه على الكثير من المفكرين

---

(1) لاحظنا مثل هذا في العراق أيضاً في الأسواق الكبرى للدولة والتي كانت تسمى الأسواق المركزية، ويبدو أن هذه الظاهرة انتقلت من هناك إلى بلدنا.

قديماً وحديثاً، وكان ماركس واحداً منهم.

من أخطاء الماركسية:

كان رأي ماركس في الطبيعة البشرية لا يختلف كثيراً عن رأي الطوبائيين القدامى الذين كانوا يتصوّرون الإنسان خيّراً بطبيعته ولكن الظروف السيئة التي أحاطت به هي التي جعلته شرّيراً.

كان ماركس يعتقد أن الإنسان إنما صار يسعى وراء مصلحته الخاصة لأنه عاش في نظام يسوده الاستغلال الطبقي والطمع والتكالب، فإذا نحن ألغينا هذا النظام وأحللنا مكانه النظام العادل الصالح تحول الإنسان الذي نعرفه إلى إنسان آخر يسعى وراء المصلحة العامة ولا يعرف غيرها.

وقد عبّر لينين عن هذه الفكرة الماركسية بوضوح في كتابه «الدولة والثورة» إذ هو يقول فيه: إن تطبيق الشيوعية في مرحلتها الأخيرة سوف يؤدي إلى زوال الطمع والتكالب بين الناس وتسود الطمأنينة فيهم، فكلّ فرد حينذاك سيكون واثقاً من أنه ينال من النظام كلّ ما يحتاج إليه من مسكن ومطعم وملبس ومركب، وهو إذن ليس في حاجة إلى اختزان الأموال أو التكالب على السلع كما هو الحال في النظام الرأسمالي.

يقول المفكر الماركسي شارل رابورا حول مرحلة الشيوعية الأخيرة التي ذكرها لينين ما نصه:

«إنما الشيوعية بإلغائها السبب الأصلي للنضال والخصومات – أعني الملكية الاحتكارية – سوف تبني مجتمعاً جديداً مؤسساً على مبادئ التعاضد والمبادلة الاقتصادية المعقولة، وسوف تمحو كلّ تبذير وكلّ عمل غير منتج، وسوف تهدم الخلافات على المصالح، وتخفّف السلطة إلى أقلّ ما يمكن بتشغيلها لا لفائدة طبقة واحدة بل في سبيل فائدة المجتمع كلّه..»..

لا حاجة بي إلى القول إن هذه آراء ذهب زمانها وقد أثبت العلم بطلانها، وهي في فحواها لا تختلف عن فكرة «المدينة الفاضلة» التي كان المفكرون القدامى مولعين بها وهم يتصوّرون أن الناس سوف يعيشون فيها في صفاء وإخاء تامين لا يعكر صفوها أي داع من دواعي التنافس والتشاحن والتنازع التي يمتلئ

بها المجتمع البشري في وضعه الحاضر.

إن من الفروق الأساسية التي تميز الإنسان عن الحيوان أنه لا يكتفي بإشباع حاجاته المادية فقط بل هو يملك الشعور بالأنا ويريد رفع شأنها في نظر الآخرين، وكلّما نال مكانة عالية تطلع إلى مكانة أعلى منها.

إننا لو وفرنا للناس جميع حاجاتهم المادية على نحو ما تطمح إليه الشيوعية في مرحلتها الأخيرة، يظل الناس يتشاحنون ويتنافسون كما كانوا يفعلون من قبل، وكلّ واحد منهم قد يقول مع نفسه: «لماذا نال فلان تلك المنزلة المرموقة، أو ذلك المنصب العالي، ولم أنله أنا؟ وبأي شيء هو أفضل مني؟».

إنّ البشر متفاوتون في كفاءاتهم البدنية والذهنية ولا يمكن أن يكونوا متساوين فيها أبداً ولكن الإنسان ميال بطبعه إلى تقدير نفسه أكثر مما هي حقيقتها، ولا يرضى أن يقال عنه إنه أقلّ موهبة أو ذكاء من غيره وهو لا يكاد يرى أحداً من أقرانه قد تفوّق عليه في شيء حتى يضمر له البغض ويريد الكيد له وهذا هو من أهم أسباب التنافس والتنازع بين البشر.

إن هذه ليست طبيعة طارئة على الإنسان، بل هي أصيلة فيه نلاحظها في الأطفال كما نلاحظها في الشعوب البدائية ولهذا فإن المفكر الذي يريد أن يبدع نظاماً صالحاً لسياسة البشر يجب أن لا ينسى وجود هذه الطبيعة فيهم.

إن طبيعة التنافس والتنازع لا يمكن أن تزول بين البشر في المستقبل القريب أو البعيد، وكلّ ما نتوقعه للبشر هو أن يتوصّلوا في يوم من الأيام إلى نظام يتحول التنازع فيه من طوره العنيف السائد الآن إلى طور سلمي هادئ.

إن الديمقراطية نجحت الآن في هذا المجال من بعض الوجوه فالأحزاب السياسية في البلاد الديمقراطية تتنافس الآن على الحكم كما كانت تتنافس قديماً، وكلّ واحد منها يحسب نفسه أولى بالحكم من غيره، ولكن الأحزاب لا تلجأ إلى السيف في تنافسها بل هي تلجأ إلى صناديق التصويت، فالحزب الذين يحصل على أكبر عدد من الأصوات فيها هو الذي يصل إلى الحكم وبذا نجا البشر من إراقة الدماء التي عانوا منها على توالي العصور.

إن الذي يرجوه البشر في مستقبلهم القريب أو البعيد هو أن يعمّ هذا

النظام الديمقراطي جميع دول العالم كما يعمّ الأفراد في داخل كلّ دولة حيث يسود الناس جميعاً الشعار القائل: «تنازعوا وتنافسوا كما تشاءون دون أن يعتدي بعضكم على بعض أو يستبد بعضكم ببعض.

إن الاعتداء والاستبداد صنوان، ومصيرهما محتوم لا ريب فيه.

(7)

إني عندما شرحت بعض الجوانب السلبية من النظرية الماركسية لم أكن أقصد أنها خالية تماماً من الجوانب الإيجابية، والواقع أنها كأية نظرية مهمة ظهرت في التاريخ كان لها دورها في تطوير المجتمع البشري كما كان لها أثرها في تحريك الأذهان.

إن النظرية الماركسية كانت بمثابة ثورة على النظام الرأسمالي وما فيه من استغلال طبقي وظلم للعمال والفقراء، فهي كان لها دورها في تحريك الجماهير، وقد يصح أن نقول إنها فتحت عيون المسؤولين في النظام الرأسمالي على ما في نظامهم من عيوب مما دفعهم إلى معالجتها قليلاً أو كثيراً.

يقول لينين: «بدون نظرية ثورية لا يمكن أن تكون حركة ثورية»، وهذا القول يصدق على النظرية الماركسية إلى حد كبير، فهي نظرية ثورية أكثر مما هي نظرية علمية، وهي بذلك استطاعت أن تجتذب إليها الجماهير وتحركها فهي لو كانت علمية محضة لما كان لها مثل هذا التأثير البليغ في نفسية الجماهير. إن الجماهير - كما ذكرته سابقاً - أقرب إلى التفكير الحماسي العاطفي منها إلى التفكير الموضوعي البارد.

السؤال الكبير:

يواجهنا في هذا الصدد سؤال كبير هو السؤال الذي يخالج الآن أذهان الباحثين في مختلف أنحاء العالم: ما هو مصير النظام الشيوعي في المستقبل القريب أو البعيد؟ فهل هو سيبقى حياً فعالاً بعد تطويره، أم هو سيتجاوزه الزمن على نحو ما تجاوز النظام الفاشي؟

مرّ زمن علينا كان النظام الفاشي فيه هو مطمح الأنظار لدى الكثير من

الناس في مختلف أنحاء العالم، ثم تبين بعدئذ أنه مصاب بعيوب كبيرة وهي العيوب التي قضت عليه أخيراً.

وإني أتذكر تلك الأيام التي كان فيها ستالين يتحكم في النظام الشيوعي كمثل ما كان هتلر[1] يتحكم في النظام الفاشي، وكان كلّ منها استبدادياً سفاكاً لا يفهم من الدنيا غير الفكرة المسيطرة على عقله، وقد اتضح الآن أن النظام الديمقراطي هو النظام الذي يمكن أن ينقذ البشر من الطغاة من أمثال ستالين وهتلر.

إن النظام الديمقراطي لا يخلو من عيوب خاصة به، ولكنه على كلّ حال أفضل كثيراً من النظام الذي يتحكم فيه شخص واحد. وقد وصف أحد المفكرين النظام الديمقراطي قائلاً: «إنه نظام سيء ولكن النظام الاستبدادي أسوأ منه».

إن النظام الشيوعي يؤمن بما يسمونه «ديكتاتورية البروليتاريا»[2] ومعناه أن مقاليد الحكم يجب أن تتولاها الطبقة العمالية وحدها، وأن تحرم منها الطبقات الأخرى، وهنا نريد أن نسأل كيف يمكن للطبقة العمالية أن تتولى مقاليد الحكم؟ وما الذي يمنع من ظهور رجل من طراز ستالين أو شاوشيسكو[3] فيتحكم

(1) أدولف ألويس هتلر (Adolf Hitler) (20 أبريل 1889 – 30 أبريل 1945 سياسي ألماني، ولد في النمسا، وكان زعيم حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي المعروف باسم الحزب النازي. تولى أدولف هتلر حكم ألمانيا في الفترة ما بين عامي 1933 و1945 حيث شغل منصب مستشار الدولة في الفترة ما بين عامي 1933 و1945.

(2) تعرّفها دراسة نشرها على موقعه مركز الدراسات الاشتراكية في مصر بأنها «السيطرة السياسية والاقتصادية للطبقة العاملة على وسائل الإنتاج وأجهزة الدولة من خلال مجالسها العمالية ومندوبيها المنتخبين. وتلك السيطرة العمالية لا يمكن أن تتحقق إلا بإرادة الطبقة العاملة أي لا يمكن أن تتحقق إلا بثورة العمال أنفسهم».

(3) شاوشيسكو، نيكولاي (1918–1989م). حكم رومانيا خلال الفترة من عام 1965م إلى 1989م زعيماً للحزب الشيوعي في بلاده. صار رئيسًا للدولة عام 1968م. عمل شاوشيسكو من أجل استقلال رومانيا عن الاتحاد السوفييتي (سابقًا) أكبر قوة شيوعية في أوروبا. لكنه كان طاغية وتحكم في حياة شعبه. وضع برامج اقتصادية أدت إلى نقص حاد في السلع الاستهلاكية. استغل سلطاته للحصول على ثروة شخصية ووضع أقاربه في مناصب حكومية عليا. وفي ديسمبر 1989 قامت تظاهرات شعبية ضده في مدينة تيميشوارا غربي رومانيا وانتشرت إلى مدن أخرى مثل كلوج وبوخارست حاول إيقافها إلا أن وحدة من وحدات الجيش انضمت إلى الشعب، فحاول تشاوسيسكو وزوجته الهرب بطائرة مروحية لكن الثوار قبضوا عليهما وقدموهما إلى محاكمة عسكرية سريعة استغرقت ساعتين حكمت عليهما بالاعدام رمياً بالرصاص ونفذ الحكم فى يوم عيد الميلاد 25 ديسمبر 1989.

بمقدرات الناس كما يشتهي وهو يزعم أنه يحكم نيابة عن العمال؟!.

إن جميع الطغاة الذين تحكموا بمقدرات الناس قديماً كانوا يزعمون أنهم يريدون خير الناس وإسعادهم، فمن طبيعة الإنسان بوجه عام أنه حين يظلم الآخرين يظن أنه يعدل فيهم، وأنه حين ينهمك في شهواته يحسب أنه منهمك في تحقيق المصلحة العامة، وهو إذا لم يجد رادعاً يردعه تمادى في ظلمه وشهواته إلى أبعد الحدود.

إن هذا هو المبدأ الذي قامت عليه الديمقراطية الحديثة، وهو المبدأ الذي عبر عنه مونتسيكو[1] بلفظتين هما، الردع والتوازن، فكلّ حاكم يجب أن يقف تجاهه معارض يردعه، لأنه ليس لديه في نفسه الرادع الذاتي.

عود إلى السؤال:

أعود إلى السؤال الذي ذكرته آنفاً، ما هو مصير النظام الشيوعي في المستقبل القريب أو البعيد؟

إن هذا السؤال يصعب الجواب عليه الآن، فإن الأحداث العجيبة التي تشهدها أوروبا الشرقية في الوقت الحاضر تبعث على التساؤل والحيرة، ومن الصعب أن نعرف كنهها والدوافع الحقيقية التي تكمن وراءها، ونحن في حاجة إلى زمن قصير أو طويل لكي نعرف النتيجة التي سوف تتمخض عنها تلك الأحداث.

إنّ النظام الذي تطمح إليه البشرية هو ذلك النظام الذي يجمع في نفسه محاسن الرأسمالية والشيوعية معاً، أي غزارة الإنتاج وعدالة التوزيع فهل في مقدور البشرية أن تتوصّل إلى مثل هذا النظام المالي؟

وجهة نظر:

إن النظرية الديالكتيكية[2] التي جاء بها هيجل ثم تبناها ماركس بعد تحويرها

---

(1) شارل لوي دي سيكوندا المعروف باسم مونتيسكيو ((Montesquieu)) (18 يناير 1689–10 فبراير 1755)، فيلسوف فرنسي صاحب نظرية فصل السلطات الذي تعتمده غالبية الأنظمة حاليا.

(2) الديالكتيك في الفلسفة الكلاسيكية، هو الجدل أو المحاورة: تبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعًا عن وجهة نظر معينة، ويكون ذلك تحت لواء المنطق. يعتبر الديالكتيك الأساس الذي تبنى عليه الشيوعية بمعنى الجدل الذي يوصل إلى النظريات والقواعد التي تحكم الناس وتسير حياتهم

يمكن أن تساعدنا في الإجابة على السؤال الذي ذكرناه.

فحوى هذه النظرية أن الحياة الاجتماعية هي سلسلة من الصراع والتغيّر، فكلّ ظاهرة فيها لابدّ أن تحتوي على نقيضها، ولابدّ أن يقع الصراع بينها وبين نقيضها بمرور الزمن، ويؤدي هذا الصراع إلى ظهور ظاهرة وسطى تحاول التوفيق بين النقيضين، ولكن هذه الظاهرة الوسطى هي بدورها تحتوي على نقيضها وسوف يجري عليها مثلما جرى على الظاهرة الأولى من قبل.

حاول ماركس تطبيق هذه النظرية الديالكتيكية على مسيرة التاريخ البشري من حيث تتابع النظم المختلفة فيه، ابتداء من نظام الرق وانتهاء بالنظام الشيوعي، ولكن ماركس يرى أن الصراع بين البشر سوف يتوقف عند تطبيق الشيوعية في مرحلتها الأخيرة، فالصراع عند ذلك سوف يحدث بين البشر والطبيعة بدلاً من أن يحدث بين البشر أنفسهم.

ففي رأي ماركس أن البشر عند تطبيقهم للشيوعية في مرحلتها الأخيرة سوف يزول عنهم الاستغلال والظلم، وتختفي الحكومة، ويعيش الناس في صفاء وتعاون، ويتجه كفاحهم نحو السيطرة على الطبيعة واستثمارها بدلاً من مكافحة بعضهم بعضاً.

إنّ النقد الموجه إلى ماركس من هذه الناحية هو أن الصراع بين البشر سوف لا يقف عند حد معين مهما تحسنت ظروفهم، فالإنسان، كما ذكرناه من قبل، لا تقتصر حاجاته على النواحي المادية وحدها، بل إن له حاجات أخرى أهم منها، وهو لا يرضى بنصيبه منها، ويظل راكضاً لاهثاً طيلة حياته.

قلت سابقاً، وأعيد القول الآن، إن الإنسان ناقص بطبيعته، وليس في مقدوره خلق نظام كامل من الطراز الذي تخيّله ماركس أو غيره من المفكرين الطوبائيين. إن أي نظام بشري مهما كان حسناً في نظر الداعين إليه لابدّ أن

السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والمادية التاريخية هي امتداد مبادئ المادية الديالكتيكية على دراسة الحياة الاجتماعية، تطبيق مبادئ المادية الديالكتيكية على ظواهر الحياة الاجتماعية وعلى دراسة المجتمع وتاريخه. وتدّعي الجدلية المادية التاريخية أنها استطاعت أن تكشف عن الأساس الموضوعي المادي لمجمل الحياة الاجتماعية وتبين جوهر المجتمع البشري وتدرس قانونيات التاريخ العالمي (ص 10 أصول الفلسفة الماركسية اللينينية).

يعتريه النقص عند تطبيقه على وجه من الوجوه.

قد يصح أن نقول إن النظام الذي تطمح إليه البشرية ليس هو النظام من العيوب، بل هو النظام الذي يكون أقلّ عيوباً من النظم الحالية...

الصحافة والمجتمع

(1)

في 15 حزيران من عام 1869 صدر العدد الأول من جريدة (الزوراء)[1] التي هي أول جريدة تصدر في العراق وكان ذلك بداية تاريخ الصحافة العراقية ومن الممكن القول إن الصحافة العراقية مرّت بعدئذ بعدة مراحل وكانت كلّ مرحلة منها تمثل طوراً من أطوار المجتمع العراقي جديراً بالذكر والاعتبار به.

سأحاول{هنا} أن أتحدث عن المراحل المتتابعة التي مرّت بها الصحافة العراقية منذ ظهور العدد الأول من جريدة الزوراء حتى يومنا هذا وعن العلاقة بين الصحافة والمجتمع في كلّ مرحلة منها والرجاء من القراء أن يرشدوني إلى مواضع الخطأ في حديثي هذا فالخطأ لا خلاص منه في كلّ عمل بشري كما ذكرته سابقاً وسبحان الذي لا يخطئ!...

---

(1) جاء مدحت باشا والياً عثمانياً على بغداد في 30 نيسان عام 1869، وبدأت بوصوله بعض معالم التغيير، إذ أصطحب معه عدداً من المساعدين، بينهم أحد الصحفيين، وعامل مطبعة، لتشغيل المطبعة التي جلبها الوالي من باريس، وبعد شهرين من وصوله، صدرت أول صحيفة عراقية تحمل أحد أسماء بغداد المشهورة (زوراء)، وحررها الصحفي التركي أحمد مدحت، والذي يبدو أنه كان ذلك الصحفي الذي اصطحبه مدحت باشا معه، وفي 15 حزيران 1869 صدر العدد الأول من (زوراء) بدون أل التعريف وبأربع صفحات، اثنتان منها باللغة التركية، واثنتان باللغة العربية، وأعلنت: «هذه الغزتة تطبع في الأسبوع مرة كل ثلاثاء وهي حاوية لكل نوع من الأخبار والحوادث الداخلية والخارجية قيمتها عن مدة سنة (70) وعن مدة ستة أشهر (40) غرشاً وكل نسخة منها في (60) بارة داخل الولاية ويضاف عليها إلى سائر المحال والأمكنة أجرة البوستة والذي يرغب في أخذها أما سنة أو ستة أشهر فليراجع مطبعة مركز الولاية. («تاريخ الصحافة العراقية في العهدين الملكي والجمهوري 1932 – 1967» – د. مليح صالح شكر – الدار العربية للموسوعات – بيروت)، وكانت نقابة الصحفيين العراقيين تحتفظ بصورة من العدد الأول من جريدة (الزوراء)، ولا أعلم مصير هذه النسخة بعد أن تعرض مقر النقابة خلال الغزو سنة 2003 إلى السلب والنهب والتدمير، على نحو ما تعرضت له دوائر الدولة ومؤسساتها بعد الاحتلال.

المرحلة الأولى:

استغرقت المرحلة الأولى للصحافة العراقية من 15 حزيران 1869 إلى 24 تموز 1908 أي نحو تسع وثلاثين سنة ولم تظهر في هذه المرحلة سوى ثلاث جرائد وكانت كلّها حكومية وهي:

1. جريدة الزوراء التي أسلفنا ذكرها[1].
2. جريدة الموصل[2] التي صدرت في الموصل في 1885.
3. جريدة الفيحاء[3] التي صدرت في البصرة 1889.

ومن الجدير بالذكر أن بعض المجلات الدينية صدرت في تلك المرحلة أيضاً وهي كانت مسيحية ذات انتشار محدود أولاها مجلة إكليل الورد[4] التي أصدرها الآباء الدمنكيون في الموصل في عام 1902 والثانية مجلة زهيرة

---

(1) قال رزوق عيسى رئيس تحرير مجلة (المؤرخ) في مجلة (النجم) الموصلية أنه ورد في بعض أسفار الإفرنج ومنهم الانكليز تلميحات وإشارات إلى أن أول صحيفة ظهرت في بغداد كانت تعرف باسم (جورنال العراق) أنشأها داود باشا الكرجي عندما تسنّم منصب الولاية في عام 1816 وكانت تطبع بمطبعة حجرية، وتنشر باللغتين العربية والتركية، كما ورد في كتاب (صحافة العراق ما بين عامي 1945 – 1970) للصحفي الرائد فيصل حسون، لكن د. مليح صالح في كتابه تاريخ الصحافة العراقية يقول: «نستطيع أن نؤكد، ولأول مرة، أن ما ذهب إليه الباحثون العراقيون بهذا الخصوص يخلو من الأدلة، ولذلك فهي استنتاجات خاطئة. ولم نعثر في كتابي جروفس وبكنكهام على أية إشارة لمطبوع اسمه (جورنال العراق). ولذلك نعتقد أن ما ذهب إليه عبد الرزاق الحسني هو الأقرب إلى الحقيقة، حين قال إن لفظة (جورنال) تعني (السالنامة)، وهي السجل الرسمي وليس جريدة، ونعتقد نحن أنها كانت أشبه بما هو معروف اليوم في الجرائد الرسمية التي تنشر قوانين وأوامر الدولة، وفي العراق نسميها (الوقائع العراقية) أو (الجريدة الرسمية)».

(2) في كتابه «تاريخ الصحافة العراقية» يقول الدكتور مليح صالح شكر إن جريدة البصرة صدرت في العام 1886، وليس 1885، كما ذكر الوردي.

(3) ينفي الدكتور مليح صالح شكر صدور جريدة في البصرة باسم الفيحاء في هذا التاريخ ويقول: «وصدرت في عام 1889 جريدة (البصرة)»، المصدر السابق.

(4) يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم خليل العلاف من مركز الدراسات الإقليمية في جامعة الموصل إن (إكليل الورود) صدرت في كانون الأول 1902، لتعد أول مجلة تصدر في العراق كله. وجاء في ترويستها أنها: (مجلة دينية أدبية علمية شهرية: أصحاب الامتياز الآباء الدومنيكان). وبلغ عدد صفحاتها في بداية صدورها (20) صفحة ولكنه كان يتغير في بعض الأحيان إذ يزداد ليتراوح بين 24–28 صفحة ومقاسها (18 × 11,5 سم). صدرت بثلاث لغات هي العربية وصدر منها 650 عدداً، والفرنسية صدرت منها 400 عدد، والكلدانية وصدر منها 330 عدداً.

بغداد[1] التي أصدرها الآباء الكرمليون في بغداد في عام 1905، والثالثة مجلة الإيمان والعمل التي أصدرها الآباء الكرمليون باللغة الفرنسية في بغداد في العام نفسه.

إن الجرائد الحكومية الثلاث لم يكن يقرأها سوى الأفندية - أي موظفي الحكومة - وبعض الوجهاء المتصلين بهم أما أكثر الناس فكانوا ينظرون إليها نظرة استنكار أو تحريم وكان يدفعهم إلى ذلك سببان:

1 - كان أكثر الناس في تلك المرحلة يشعرون بأنّ الجريدة لا تفيدهم في حياتهم العملية شيئاً، أو هي حسب تعبيرهم الشائع لا تعطي خبزاً.

فقد كان الفقر حينذاك سائداً في الناس وكان الأب يوصي ابنه أن لا يشغل نفسه بالأمور التي لا تعطي خبزاً وقد ظلّت هذه النظرة سائدة في الناس حتى وقت قريب.

أعرف شخصاً كان في الحرب العالمية الأولى شاباً مولعاً بقراءة الجرائد، وكان أبوه ينصحه ويردعه عن ذلك دون جدوى وفي أحد الأيام جاء هذا الشاب إلى بيته وهو يصرخ قائلاً: سقطت وارشو فهو قرأ هذا الخبر في أحد الجرائد وكان خبراً مثيراً من أخبار الحرب إذ سقطت وارشو في ذلك الحين بأيدي الألمان وأراد أبوه أن يلقّنه درساً فأخذ به إلى بائعة شوك في السوق وقال لها (هل تبيعين باقة الشوك بخبر سقوط وارشو) وكانت البائعة طبعاً لا تعرف ما هي وارشو وما هي أهمية سقوطها فرفضت أن تبيع شوكها بشيء لا قيمة له وعند هذا التفت الأب نحو ابنه ناصحاً: (انظر إلى هذا الخبر الذي اهتممت به فهو لا يساوي باقة شوك).

2 - إن السبب الثاني الذي هو أهم من السبب الأول في استنكار الناس لقراءة الجريدة هو أنهم يعدّونها تشغل الناس عن قراءة القرآن والأدعية أو هي من مبتدعات الإفرنج الكفار الذين يريدون إفساد عقول المسلمين وهدم دينهم وإني أدركت الناس في العشرينات إذ كانوا لا يزالون ينظرون إلى الجريدة مثل

(1) اعتبر المؤرخ الدكتور حسين أمين في كتابه «بغداد منذ تأسيسها حتى الوقت الحاضر» أن زهيرة بغداد هي أقدم مجلة ظهرت في بغداد.

تلك النظرة. أعرف رجلاً متديناً من أهل السوق القريب من بيتنا وكان قد اعتاد على قراءة القرآن عند فتح دكانه صباحاً[1] وقد لمح ذات يوم رجلًا من السوق يقرأ الجريدة بدلاً من القرآن فانهال عليه بالتوبيخ وخوّفه من عذاب الله في الآخرة.

وحدّثني صديق من أهل النجف أنه كان هو وزمرة من أصحابه في العشرينات يجتمعون في بيت أحدهم سراً ليقرأوا الجريدة فإذا خرجوا من البيت أخفوها تحت عباءاتهم مخافة أن يراها الناس فيتهمونهم بالتفرنج والزندقة.

ويروى عن أحد رجال الدين المعروفين في بغداد في أواخر العهد العثماني أن لاحظ ابنه ذات يوم يدخل غرفته ويسدها عليه سداً محكماً، فداهم الغرفة ليجد ابنه يقرأ الجريدة سراً، فانهال عليه بالضرب المبرح وقال له: «لقد خربت بيتي بإدخالك القسطة[2] فيه».

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الجريدة كانت في تلك الأيام تسمى «قسطة»، وهي لفظة مأخوذة من اللغة الإيطالية «غازيتا»، وقد حوّرها العوام إلى «قسطة» كما هي عادتهم دائماً في تعريب الألفاظ الأجنبية، وقد فعل العوام في مصر مثل ذلك إذ هم أطلقوا على الجريدة اسم «جرنال» وهو مأخوذ من الفرنسية[3].

المرحلة الثانية:

في 24 تموز من عام 1908 فوجئ الناس في بغداد بظهور معالم الزينة في دوائر الحكومة، ورفع أعلام كتب عليها بالقلم العريض «حريت عدالت

(1) الواقع، أن الكثير من الناس كان يفعل فعل هذا الرجل في مدينة الكاظمية وغيرها وإلى وقت متأخر، وعندما بدأ المذياع في الانتشار استعاض الناس عن هذه العادة بفتح المذياع صباحاً وسماع سور القرآن مرتلة منه.

(2) البغداديون يسمونها قسطة تحريفاً من غزته «وتوضح (زوراء) معنى كلمة (غزته) فتقول (إنها الكلام المسطور لعامة أفراد الناس الذي يعلمهم ما حدث من الوقايع وما اشتهر في العالم من الغرائب والصنايع، ومن جملة فوائد الغزتة أيضاً انها تعلن أحوال العالم وتخبر عن السياسة الجارية في الدول المعظمة». («تاريخ الصحافة العراقية في العهدين الملكي والجمهوري 1932 – 1967» – د. مليح صالح شكر – الدار العربية للموسوعات – بيروت).

(3) هناك سبب آخر لعزوف الناس عن الصحف لا أدري لماذا لم يذكره الوردي وهو تفشي الأمية وعدم قدرة الناس على قراءة الصحف في تلك الأيام بسببها.

مساوات أخوت» وأخذ الناس يتساءلون عما جرى فقيل لهم إن انقلاباً حدث في اسطنبول قام به الجيش وأرغم السلطان عبد الحميد على إعلان الدستور وإطلاق الحرية للناس، وبهذا بدأ عهد جديد في العراق والأقطار العثمانية الأخرى سمي «عهد الدستور».

تميز عهد الدستور في العراق بظواهر اجتماعية غير قليلة نذكر فيما يلي أهمها:

1. فسر بعض الناس الحرية التي أعلن عنها في عهد الدستور بأن الإنسان يكون فيها حراً يفعل ما يشتهي دون رادع وبذا أصبحت أسواق بغداد معرضاً لمختلف أنواع الأسلحة كالخناجر والسيوف والمسدسات والبنادق[1]، فكانت هذه الأسلحة تعرض للبيع علناً في الأسواق، وأخذ «الأشقياء» يتبارون في اقتنائها والتباهي بها ويحكى عن أحد الأشقياء أنه سطا على بيت ليلاً وقتل صاحبه ولما ألقي القبض عليه وصدر الحكم عليه بالإعدام صرخ محتجاً: «أين الحرية التي تنادون بها؟!».. إنه كان يظن أن عهد الحرية يبيح له نهب الناس وقتلهم بلا حساب.
2. شهدت بغداد في هذا العهد أوّل مسرح ترقص عليه امرأة، وكانت هذه الراقصة من حلب اسمها (رحلو جرادة)، وقد كان الناس في السنوات القليلة الماضية يشهدون غلماناً يرقصون على المسرح، أما في هذا العهد فقد شاهدوا امرأة ترقص، فكان ذلك حدثاً مثيراً هزّ المجتمع البغدادي هزاً عنيفاً وذلك من جراء الجوع الجنسي الذي كان مسيطراً على الناس حينذاك، وصارت الراقصات تتهافت على بغداد من تركيا ومصر وبلاد الشام، وشاع بينهن أن التي تذهب إلى بغداد تجني ذهباً، فكانت الراقصة لا تكاد تغمز بعينها لأحد من رواد المرقص حتى يفقد لبّه ويبذل لها كلّ ما في جيبه من مال، وربما اضطرّ في اليوم التالي إلى بيع داره أو أثاث بيته لكي ينال منها غمزة أخرى.

---

(1) شهدت بغداد ومدن العراق بعد الاحتلال عام 2003 فوضى مثل هذه، بل أوسع منها وبيعت في الأسواق أسلحة أشد فتكاً وما زالت هذه الفوضى موجودة.

3. شهدت بغداد في عهد الدستور فورة صحفية عجيبة، فقد كان كلّ رجل يشعر بأنه قادر على الكتابة يطمح أن يكون صحفياً يشار إليه بالبنان وأن يصدر جريدة تحمل اسمه. وفي خلال ثلاث سنوات صدرت في بغداد نحو سبعين جريدة وكانت معظم هذه الجرائد تموت من تلقاء نفسها بعد صدور أعداد قليلة منها لقلّة الإقبال عليها[1].

عمد بعض الصحفيين إلى أسلوب الشتم المقذع أو المعارضة التهريجية بغية ترويج جرائدهم وقد صبرت الحكومة على ذلك في بداية الأمر لكي تبرهن على أن العهد الجديد هو عهد الدستور والحرية حقاً ولكن صبرها نفذ في عام 1911، فأصدرت قانوناً قضت فيه بإلغاء امتياز أية جريدة توقفت عن النشر قبل 5 آذار من تلك السنة.

وبهذا تم إلغاء امتياز 38 جريدة دفعة واحدة[2].

إن الديمقراطية، كما ذكرنا، هي عادات وليست محفوظات فالناس الذين اعتادوا على الشتائم والتهريج في حياتهم الاجتماعية يصعب عليهم ممارسة الديمقراطية في حياتهم السياسية، فهم في حاجة إلى زمن طويل يمارسون فيه الديمقراطية فعلياً لكي يعتادوا عليها.

إن عهد الحرية والدستور ظهر في العراق وفي الأقطار العثمانية الأخرى

---

(1) شهدنا مثل هذه الحالة بعد احتلال العراق عام 2003، إذ صدرت أكثر من 300 جريدة ومجلة في البلاد من دون ترخيص، مات أغلبها من تلقاء نفسه بعد صدور أعداد قليلة منه، ولم تبق إلا الصحف التي يمولها الاحتلال أو جهات خارجية.. ولم تتوفر المقاييس المهنية في الكثير من تلك الصحف، فقد أصدرها أناس بعيدون عن الصحافة، وامتاز الكثير منها بالشتائم والتهريج.

(2) «وفي هذه الظروف المظلمة تعذر على العراقيين إصدار الصحف والمجلات، وحتى أتيحت لهم الفرصة، أو تراءى لهم ذلك بصدور التغييرات الدستورية العثمانية عام 1908، فصدرت الصحف، وأغلبها من الصحف الأدبية، لكنها لم تلبث أن تعرضت لذات الإجراءات القمعية التعسفية حين اتضح ان جمعية الاتحاد والترقي التي قادت الانقلاب الدستوري لم تكن بأحسن مما سبقها من حكم السلطان عبد الحميد، وكشفت عن أهدافها بأنها حركة طورانية تضم غلاة الداعين الى سياسة التتريك، ومحاربة العناصر غير التركية في الدولة العثمانية، فقتلت السلطات العثمانية الجديدة تلك الصحف الناشئة، وعطلت في عام 1912 صحفاً ومطبوعات عراقية لم يكن بعضها قد أصدر بعد عدده الأول». («تاريخ الصحافة العراقية في العهدين الملكي والجمهوري 1932 – 1967» – د. مليح صالح شكر – الدار العربية للموسوعات – بيروت).

فجأة، فأساء الناس استعماله، وشاء القدر أن لا يستمرّ هذا العهد طويلاً ففي عام 1914 – أي بعد ست سنوات من إعلان الدستور – دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، واختفى بذلك عهد الحرية، وحلّ محله عهد الرقابة الصارمة التي تقتضيها ظروف الحرب.

وسنحاول دراسة ما جرى على الصحافة في أيام الحرب وما بعدها.

(2)

مرحلة الحرب العالمية الأولى:

كانت بغداد قبل الحرب الأولى تصدر فيها عدة جرائد ومجلات نذكر فيما يلي أهمها:

1. جريدة «الرقيب»، لصاحبها عبد اللطيف ثنيان[1].
2. جريدة «المصباح»، لصاحبها عبد الحسين الأزري[2].
3. جريدة «صدى بابل»، لصاحبها داود صليوه[3].

---

(1) صحفي عراقي ولد في بغداد في 22 آذار (مارس) 1867م، وأصله من الكويت. بدأ يحرر المقالات السياسية والاجتماعية عام 1890م، وفي عام 1902م أنشأ مكتبة في بغداد لبيع الكتب وكان يجلب الكتب والمطبوعات من إستانبول ومصر والشام، وأسهم في التعليم والصحافة وأصدر في بغداد جريدة الرقيب عام 1909م. مؤلفاته (فهرس كتاب الحيوان للدميري)، (فهرس كتاب الأغاني للأصفهاني)، (قاموس العوام في دار السلام «معجم»)، و(أمثال العوام في دار السلام). توفي في 21 نيسان من عام 1944م، ودفن في مقبرة الخيزران في الأعظمية. (الموسوعة الحرة ويكيبيديا).

(2) عبد الحسين بن يوسف الأزري 1881 – 1954 م. شاعر وصحفي عراقي، من أهل بغداد، أنشأ جريدة (المصباح) سنة 1911–1914، ونفي إلى الأناضول في الحرب العامة الأولى، ثم كان من رجال الثورة العراقية (1920) ونفاه الإنكليز إلى هنجام، وليس له صلة نسب بالشاعر كاظم الأزري وأخيه الشاعر العالم محمد رضا. له كتب منها: (تاريخ العراق قديماً وحديثاً)، و(ديوان شعر) انتخب منه روفائيل بطي في الأدب العصري نحو 40 صفحة، و(مجموعة الأزري) مقالاته، و(قصر التاج)، و(بوران) قصتان، و(بطل الحلة) فيما نزل بالحلة من الفجائع في عصره، بأسلوب قصصي. قالت وكالة الأنباء العربية في خبر وفاته ببغداد: كان من الرواد الذين أعانوا على تحقيق الحكم الوطني في العراق، وهو والد الوزيرين الأزريين: عبد الكريم، وعبد الأمير. (المصدر السابق).

(3) صحفي وشاعر من الموصل. ولد (1852) وتوفي (1921). أتقن الفرنسية والإنكليزية فضلًا عن السريانية والعربية، يعد رائداً في الصحافة بإصداره جريدة صدى بابل عام 1909. يجمع أسلوبه الصحفي بين الفكاهة والظرافة وفي شعره تقليدي وتلقائي معاً. نفي أثناء الحرب العالمية الأولى بأمر من والي بغداد جاويد باشا ثم اطلق سراحه إلا إنه بقي مناهضاً للأتراك وكافح ضد الإنكليز بعد احتلالهم للعراق. نشر عشر مقالات في الصحف العربية. له مؤلفات عدة. (المصدر السابق).

4. جريدة «الزهور»، لصاحبها محمد رشيد الصفار[1].
5. جريدة «الرياض»، لصاحبها سليمان دخيل[2].
6. مجلة «لغة العرب»، لصاحبها الأب أنستاس ماري الكرملي[3].
7. مجلة «الرياحين»، لصاحبها إبراهيم صالح شكر[4].

وبعدما احتل الإنكليز البصرة في تشرين الثاني من عام 1914 أصدروا فيها جريدة يومية اسمها «الأوقات البصرية»[5] وكانت مليئة بمدح الإنكليز وذمّ

---

(1) يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم خليل العلاف في كتابه (نشأة الصحافة العربية في الموصل) الذي نشرته جامعة الموصل سنة 1982 والمطبوع في دار ابن الأثير للطباعة ص (54): أن الموصل شهدت خلال الحرب العالمية الأولى صدور جريدة يومية سياسية تساند الحكومة العثمانية باسم (حقي طوغرو) أي (دعوة الحق) لصاحبها محمد رشيد الصفار وذلك في 7 نيسان سنة 1915. ولكنه – أي الصفار – كان يصدر في بغداد جريدة أخرى باسم (الزهور) ذكرها الأستاذ روفائيل بطي في كتابه: الصحافة في العراق. وذكر أنه عثر على عدد من جريدة الزهور التي كانت تصدر ببغداد باللغتين العربية والتركية. وقد ورد في ترويستها أنها (جريدة عثمانية إسلامية يومية حرة الأفكار تصدر ثلاث مرات في الاسبوع). ثم في تموز 1993 عثر على عدد من جريدة الزهور مطبوعاً في الموصل ورد في ترويستها عبارة (زهور) تاريخ التأسيس 1327هـ (1909). ويحمل تاريخ 1 حزيران سنة 1333 رومية (11 شعبان المعظم سنة 1335هـ = 1917م) ويستدل العلاف من هذا أن محمد رشيد الصفار (البغدادي) جاء إلى الموصل بعد احتلال القوات البريطانية بغداد في 11 آذار 1917 ليصدر فيها جريدته (الزهور). كما ذكر أن الصفار كرس معظم صفحات جريدته لكشف ما سماه الدسائس الانكليزية.

(2) تصف الباحثة فاطمة المحسن، سليمان الدخيل، بالمؤرخ الأديب، وتقول إنه أسهم في (لغة العرب) مجلة الأب انستاس الكرملي منذ صدور العدد الأول 1911، متتبعاً منهج المؤرخ والعارف والمهتم بطبوغرافيا البشر والقبائل في الجزيرة العربية والعراق، وأصدر جريدة «الرياض» الاسبوعية (7 كانون الثاني 1910) بمعية الصحافي العراقي المعروف ابراهيم حلمي العمر، وأصدر بعد سنتين مجلة (الحياة) بمساعدة العمر أيضاً، ولد الدخيل في القصيم من الجزيرة العربية في العام 1873 وتوفي في العراق في العام 1945.

(3) «لغة العرب» مجلة شهرية فيها اللغة والأدب والمصطلحات والتاريخ وما يتصل بعلم الاجتماع وعلم الإنسان. صدر منها تسعة مجلدات فيما بين سنتي (1329–1350هـ = 1911–1931م) وضمت أعداد هذه المجلة مئات المصطلحات العربية وما يقابلها في الفرنسية.

(4) الواقع إن من أصدرها هو إبراهيم منيب الباجه جي، في 25 نيسان1913 (1332هجرية)، وأصبح إبراهيم صالح شكر محررها، كما أخبرني الدكتور مليح صالح شكر في معلومات زودني بها عن والده.

(5) تأسست مطبعة التايمس في البصرة في عام 1921 ويعود سبب تسميتها لوجود الاحتلال البريطاني للبصرة في 22 تشرين الثاني من عام 1914 إذ صادر الإنكليز أربع مطابع في البصرة وأخذوا يطبعون فيها نشرة يومية باللغتين العربية والإنكليزية في المطبعة الأميرية وأصبحت هذه النشرة فيما بعد تعرف بجريدة الأوقات البصرية (basrah times) وصدرت في أوائل عام 1915 بأربع لغات هي العربية

الأتـراك، وكان يـرأس تحريرهـا جون فيلبي[1] الذي كان يتقن العربية، ويسـاعده في تحريرها كتاب عراقيون.

وفي شهر أيار من عام 1915 جاء إلى بغداد وال جديد هو نور الدين بك وكان قائـداً للجيـش أيضـاً، ويبـدو أنه وجد الجرائـد والمجلات التي تصدر في بغداد لم تقم بواجبها في الردّ على جريدة «الأوقات البصرية» فأمر بغلقها جميعاً وبنفـي أصحابهـا إلـى أماكـن نائيـة وقد لقي هؤلاء في نفيهم مـن العناء والأذى شيئاً كثيراً[2].

في 23 تموز من عام 1915 صدر في بغداد العدد الأول من جريدة «صدى الإسـلام» وكان المقصـود منهـا أن تكـون نـداً لمصاولـة «الأوقـات البصريـة»، فصارت تذمّ الإنكليز وتمدح الأتراك، وكان رئيس تحريرها رؤوف الجادرجي[3] الذي كان يومذاك رئيساً لبلدية بغداد، وكان يساعده في التحرير إبراهيم حلمي

والانكليزية والفارسية والتركية واستمرت بالصدور لمدة خمس سنوات خمس سنوات، صدرت بعدها جريدة (ما بين النهرين) في مايس عام 1912 واستبدل اسمها فيما بعد إلى جريدة الأوقات العراقية (iraq times) ونقلت ملكيتها وإدارتها من البصرة الى بغداد لتحل محل جريدة (الأوقات البغدادية) التي أوقفتها الحكومة العراقية آنذاك.

(1) هاري سانت جون بريدجر فيلبي (بالإنجليزية: Harry St. John Bridger Phillby) ولد في 3 أبريل/ نيسان 1885–30 سبتمبر 1960)، ويعرف أيضاً باسم «جون فيلبي» أو الشيخ عبد الله، هو مستعرب، مستكشف، كاتب، وعميل مخابرات بمكتب المستعمرات البريطاني. لعب دوراً محورياً في إزاحة العثمانيين عن المشرق العربي وخاصة عن السعودية والعراق والأردن وفلسطين. أعلن إسلامه وخطب الجمعة في الحرم المكي عن فضائل آل سعود على الهاشميين حكام الأردن. لعب دوراً فعالاً في قيام شركة أرامكو. يبدو أنه غير ولاءه من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية في ثلاثينات القرن العشرين، مما دفع المخابرات البريطانية والروسية إلى التجسس عليه لدوره المحوري في المشرق العربي بتجنيد ابنه كيم وغيره. ارتقى ابنه سلم المناصب في المخابرات البريطانية حتى رشح رسمياً لرئاستها عام 1963، وعندها انكشف أنه عميل للاتحاد السوفيتي وكانت الفضيحة مدوية.

(2) لابد أن نذكر هنا أن الانكليز احتلوا البصرة عام 1914 ولم يستطيعوا احتلال بغداد إلا في 11 آذار 1917.

(3) من اعلام السياسة العراقية. ولد في بغداد 1882 وتوفي في بيروت 1959. نال إجازة الحقوق من جامعة استانبول سنة 1912. تقلد وظائف مختلفة فكان موظفا في نظارة العدلية التركية وقائم مقاما لقضاء الكاظمية فقضاء خراسان (بعقوبة) في آذار 1910 وعين سنة 1912 ترجماناً لولاية بغداد ثم زار استانبول، وعاد منها في أوائل سنة 1915 فتقلد رئاسة بلدية بغداد خلفاً لأبيه، وأشرف في الوقت نفسه على سياسة جريدة (صدى الاسلام) التي صدرت باللغتين العربية والتركية. أصبح في العهد الملكي وزيراً للعدلية في الوزارة العسكرية الثانية وعين وزيراً مفوضاً للعراق في أنقرة (تشرين الاول 1929) ثم نقل وزيراً مفوضا في طهران في آب 1930 فآثر الاستقالة واعتزال الخدمة.

العمر[1] وخيري الهنداوي[2] وعطا الخطيب ومحمود الوادي وعبد الرحمن البناء[3] وجميل صدقي الزهاوي[4] وغيرهم.

إن من يقرأ الجريدتين المتصاولتين - أي «صدى الإسلام»[5] و«الأوقات البصرية»، يجد صورة واضحة للعقل البشري في تحيّزه فكلّ منهما كانت تبالغ في ذكر محاسن أحد الجانبين المتحاربين كما تبالغ في ذكر مساوئ الجانب الآخر، وهذا أمر لا داعي للاستغراب منه، إذ هو طبيعة بشرية عامة تظهر معالمها في كلّ تنازع يقع بين البشر في كلّ زمان ومكان!.

كانت تصدر في بغداد بالإضافة إلى جريدة «صدى الإسلام» نشرة تسمى

---

(1) إبراهيم حلمي العمر: (1885-1942). بدأ عمله الصحفي مع زميله سليمان الدخيل بإصدار جريدة الرياض ثم مجلة الحياة. بعدها في جريدة النهضة لسان الحركة القومية ببغداد ضد سياسة الاتحاديين. أصدر جريدة لسان العرب مع خير الدين الزركلي. اشتهرت جريدته المفيد المعارضة ثم ترأس جريدة (نداء الشعب) لسان حال كتلة ياسمين الهاشمي. ودخل المعترك الوظيفي ولكنه استمر بالكتابة في الصحف باسماء مستعارة. رئيس تحرير جرائد النهضة/ 1913، حزب الشعب، نداء الشعب/ 1926، وصاحي جرائد الشعب/ 1925، المفيد وكان مديرها المسؤول أيضاً، ولسان العرب/ 1921.

(2) خير الدين (خيري) بن صالح بن عبد القادر (قدوري) بن خضر الحسيني العلوي (1885-1957). شاعر عراقي. نسبته إلى الهنداوية، من قرى بغداد. ولد في قرية أبي صيدة من لواء ديالى. وتنقل مع أبيه في صغره إلى أن استقر ببغداد، وقرأ على الشيخين علاء الدين الآلوسي ومصطفى الواعظ. عين في إحدى الشركات، بالصويرة، سنة 1906 واشتهر شعره في هذه الفترة. وجند في الجيش العثماني أيام الحرب العامة الأولى. وسجن في القلعة لسبب غير معروف، وفكر في الانتحار. ودخل الإنكليز بغداد فهرب من السجن. وولوه إحدى الوظائف بالحلة (سنة 1917) وبدأت فيها الثورة، واجتمع أهلها في الجامع الكبير فانتدبه الحاكم الإنكليزي لتهدئتهم، فانضم إليهم. واعتقل ونفي إلى هنجام من جزر الخليج العربي، مكبلاً بالحديد، تسعة أشهر. وأطلق وعين مديراً لناحية الجربوعية (1921) فقائممقاماً لقضاء الشامية (1922) فمتصرفاً بلواء العمارة (1933) وتقلب في وظائف أخرى وأحيل إلى التقاعد (1949) فلزم داره بالأعظمية. ومرض بالقلب ست سنوات. ومات ببغداد ودفن في النجف حسب وصيته. وظفر الدكتور يوسف عز الدين بمجموعة من شعره ضمنها كتابه عنه (خيري الهنداوي، حياته وشعره) وجاء شعره في 128 صفحة (الموسوعة الحرة).

(3) شاعر عراقي اشترك في ثورة العشرين استشهد به الدكتور علي الوردي أكثر من مرة للتدليل على مشاركة السنة مع الشيعة في هذه الثورة.

(4) الشاعر العراقي المعروف.

(5) جريدة كانت تصدر بالعربية والتركية وكثيراً ما سمعت الوردي يردد هذا الاسم مستشهداً به في نقاشاته في المجالس التي كنا نغشاها.

«أجانص»[1] وكان هذا الاسـم مأخوذاً من لفظة فرنسـية بمعنى الوكالة، وكانت هذه النشرة تصدر في بعض الأوقات لنشر الأخبار الحربية المهمة كالانتصارات التي كانت الجيوش العثمانية والألمانية تنالها ضدّ الجيوش الإنكليزية والروسية والفرنسـية، وقـد اعتـاد النـاس في بغداد أن يشـاهدوا بين الحيـن والحين رجلاً يركض في الأسـواق وهو ينادي: «أجانص، أجانص»[2]، فيشـتريها بعض منهم[3] ويفرحـون بمـا يـرد فيها من خبر الانتصار لجيش الإسـلام علـى الكفار، وكانوا يعتبـرون انتصـار ألمانيا انتصاراً للإسـلام أيضـاً لأنها حليفة الدولة العثمانية التي كانت تمثل في نظرهم الخلافة الإسلامية.

مرحلة الاحتلال الإنكليزي:

فـي 11 آذار 1917 سـقطت بغـداد بأيـدي الإنكليـز، وأراد الإنكليـز إصـدار جريـدة فيهـا اسـمها «الأوقات البغدادية»، أسـوة بـ«الأوقـات البصرية»[4]، ولكن

---

(1) أورد الباحث كامل صبري، كما في الهامش الآتي كلمة «أجانص» وقال إنها تعني الأخبار والصحيح ما قاله الوردي.

(2) يقول الباحث كامل صبري إن هذا الشخص هو توفيق أجانص، وهو من أشهر الشخصيات البغدادية في جانب الرصافة، وأجانص معناها (الأخبار). فهو مغرم بنقل الأخبار من محل إلى آخر، ومن شخص إلى آخر لدرجة أن جميع الموجودين بين باب المعظم والسيد سلطان علي وأصحاب الدكاكين والمصانع يعرفون الخبر نفسه، و(توفيق) من سكان محلة الطوب في باب المعظم، وفي آخر أيامه صار وكيلاً لقبض الرواتب التقاعدية للشيوخ والمسنين، الذين لا يقدرون على مراجعة دائرة التقاعد التي كانت عبارة عن غرفة واحدة في شعبة المحاسبات في وزارة المالية، ويديرها السيد (محمد حسين النواب) والد الدكتور ضياء النواب، إذ كان عدد المتقاعدين قليلاً جداً. وبهذه الوكالات استطاع توفيق أن يلتقط الأخبار التي كان يحصل عليها من البيوت ما لا يستطيع أحد التقاطه. لذلك أطلق عليه أحد الصحفيين لقب (توفيق أبو هافاس)، و(هافاس) هي وكالة الانباء الفرنسية، وكان توفيق بسيطاً حسن السلوك يقضي حوائج الناس بقدر ما يستطيع، وكان رجاؤه ووساطته لدى المسؤولين الكبار في الحكومة لا ترد.

(3) في الأصل: البعض منهم.

(4) يقول المؤرخ عبد الرزاق الحسني إن حكومة الاحتلال أوعزت إلى سليمان الزهير بإصدار جريدة باسمه، فصدرت البصرة تايمس في أوائل عام 1915، ثم حلت (أوقات ما بين النهرين – Times of Mesopotamia) محلها في أواسط عام 1921، بينما يشير روفائيل بطي إلى أن البصرة تايمس ظهرت (مكتوبة باللغات الأربع العربية والتركية والفارسية والإنكليزية)، وأصدر جيش الاحتلال إلى جانبها مجلة أسبوعية مصورة تحت أسم (العراق في زمن الحرب) لنشر (صور الوقائع الحربية في العراق

الأب أنستاس ماري الكرملي[1] أشار عليهم أن يسموها «العرب» وفي 4 تموز 1917 صدر العدد الأول من جريدة «العرب» وكانت كجريدة «الأوقات البصرية» مليئة بذمّ الأتراك ومدح الإنكليز، وكان فيلبي يرأس تحريرها، ويساعده الكرملي فيها.

أخذ الكثيرون من شعراء العراق وكتّابه ينشرون في جريدة «العرب» بتواقيع مستعارة فهم كانوا يخشون من عودة الأتراك فينتقمون منهم وكانت الجريدة تعطي مكافآت لمن ينشر فيها من منظوم ومنثور، فانثال الناظمون والناثرون عليها من كلّ حدب وصوب.

الملاحظ أن أكثر الذين كانوا ينشرون نتاج قرائحهم في جريدة «العرب» كانوا يفعلون ذلك في جريدة «صدى الإسلام» ولا حاجة بنا لذكر أسمائهم ولا لوم عليهم فيما فعلوه، إذ هم كانوا مضطرين إلى ذلك بحكم ظروفهم، ولو كنا في مثل ظروفهم لفعلنا فعلهم.

مع صور الشخصيات العراقية الموالية، ولاسيما صور شيوخ القبائل ومناظر ومشاهد لهذه البلاد). أما فائق بطي فقد كرر ما سبق لوالده روفائيل أن قاله، مع إضافة لما قاله الحسني، إلا إن د. مليح صالح شكر في كتابه (تاريخ الصحافة العراقية)، يقول إنه أجرى بحثاً دقيقاً بشأن استنتاج الحسني بأن الزهير أصدر (الأوقات البصرية) فلم يجد له سنداً، لأن جيش الاحتلال هو الذي أصدرها ووضع أحد ضباطه محرراً لها، ولم تنتقل إلى الزهير إلا بعد عامين من إصدارها.

(1) بطرس جبرائيل يوسف عواد والمعروف بالأب أنستاس الكرملي ولد في 5 أغسطس 1866 وتوفي في 7 يناير 1947. رجل دين مسيحي، ولغوي، عراقي لبناني. وضع كتباً مهمة وأبحاثاً جديدة عن اللغة العربية. كان يرى في الخروج على العربية خطأً لا يمكن قبوله أو التساهل فيه. وأسهم في عملية التعريب، وأصدر مجلتين وجريدة. ترك الكرملي عدداً هائلاً من الكتب لايزال معظمه مخطوطاً لم ير النور، ومن أهم كتبه المطبوعة: أغلاط اللغويين الأقدمين، ونشر في بغداد سنة 1932م، ونشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها، ونشر في القاهرة سنة 1938م، والنقود العربية وعلم النميات، ونشر في القاهرة سنة 1939م، وحقق عددا من الكتب، في مقدمتها: معجم العين للخليل بن أحمد، لكنه لم يكمله بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى، ونخب الذخائر في أحوال الجواهر لابن الأكفاني، والإكليل للهمداني. وبالإضافة إلى ذلك خلّف ما يزيد على أكثر من 1300 مقالة تمثل جزءا كبيرا من إنتاجه. حظي الكرملي بتقدير كثير من الهيئات والمجامع العلمية واللغوية، فانتخب عضواً في مجمع المشرقيات الألماني سنة 1911م والمجمع العلمي العربي في دمشق سنة 1920م واختير ضمن أول عشرين عالماً ولغوياً من مصر وأوروبا والعالم العربي يدخلون مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1932م.

مرحلة العهد الفيصلي:

كان العهد الفيصلي الذي امتد بين عام 1921 وعام 1933 متميزاً ببعض الخصائص التي تلفت النظر وتستحق التقدير، وليس هنا مجال الإسهاب في هذا الموضوع فقد أشبعته بحثاً في الجزء السادس من كتاب «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث»، ويكفي الآن أن أذكر شيئاً يسيراً منه.

كان الملك فيصل الأول واقعاً بين تيارين متضادين، فقد كان الشعب من جهة يطالب بالاستقلال والحرية، بينما كان الإنكليز من الجهة الأخرى يريدون تدعيم مصالحهم في العراق، وكان فيصل يدرك أن الانحياز المطلق نحو أحد الجانبين يؤدي إلى مخاطر يصعب عليه مواجهتها، وهو مضطر أن يسير في سياسته نحو مداراة كلا الجانبين، وهي سياسة عسيرة جداً وتحتاج إلى دهاء وحذق، والواقع أن فيصلاً لقي عناء غير قليل لأتباعه تلك السياسية، وكان ذلك من أسباب موته المبكر، فخسر العراق بموته خسارة لا تعوض!.

كانت الصحافة في العهد الفيصلي ذات طابع خاص تختلف به عما كانت عليه قبل ذلك أو بعد ذلك. وإني أدركت ذلك العهد وكنت من قراء الجرائد فيه، وأشهد أن الحرية الصحفية كانت حينذاك في مستوى يندر أن نجد له مثيلاً في أكثر البلاد النامية[1].

وصف أحد السياسيين الذين عاصروا الملك فيصل بأنه كان يسمح للأحزاب بأن تتصارع ولكنه كان يقف تجاهها كقائد الأوركسترا يشرف على العازفين وينظم عزفهم، ومن الممكن أن نصف الديمقراطية في عهد الملك فيصل بأنها كانت ديمقراطية موجهة، وقد رأينا كيف استغلت الأحزاب موت فيصل فأخذت تعبث بالبلاد كما تشتهي، إذ هي كانت تثير العشائر تارة وتثير الجيش تارة أخرى، وقد مرّ المجتمع العراقي من جراء ذلك بمرحلة صاخبة لا تخلو من لؤم.

---

(1) هذا ليس غريباً فقد ذكر لي الوردي أنّ الملك فيصل الأول كان يستدعي إليه رجال المعارضة ويطلب منهم أن يضغطوا عليه ليقول للانكليز إن هذه إرادة الشعب وليست إرادتي، وإني لا أستطيع الوقوف في وجه إرادة الشعب، فيحقق بهذه الطريقة الحصول على مزيد من السيادة.

كانت الصحف في العهد الفيصلي تمثل الأحزاب المتصارعة فيه، وكثيراً ما كانت تتصاول بالنقدات اللاذعة، غير أنها لم تكن تخرج في نقداتها على جادة الصواب إلا قليلاً.

إن نقدات الصحف لها وظيفة نفسية واجتماعية، إذ هي بمثابة تنفيس لما يعانيه الناس من تذمّر، وعندما تغيب نقدات الصحف عن الناس يتحول التذمّر فيهم إلى عقد مكبوتة.

حول الدهاء

وردت في التاريخ العربي أقوال كثيرة حول الدهاء، والمقصود به المقدرة التي يملكها بعض الأشخاص في التعامل مع الناس في مجال السياسة، ومن الممكن القول إن الدهاء لا يقتصر على مجال السياسة وحده، بل هو يشمل مختلف مجالات الحياة الاجتماعية[1].

فنحن قد نرى شخصاً بارعاً في معاملة الناس المحيطين به، ومن الممكن أن نصفه بالدهاء في نطاق البيئة المحدودة التي يعيش فيها، ولو أتيح لهذا الشخص أن يخرج من بيئته المحدودة ويدخل في مجال السياسة الواسع لربّما صار من الدهاة المشهورين الذين غيّروا وجه التاريخ، ولكن الظروف، أو الحظّ كما يسميه العوام، جعلته قابعاً في بيئته المحدودة ولم يستطع أن يستثمر مقدرة الدهاء كما ينبغي.

من الجدير بالذكر أن الدهاء يعتبر الآن نوعاً من الذكاء حسب النظرية التي جاء بها مؤخراً العالم النفسي هوارد غاردنر[2]، ففي رأي هذا العالم أنّ الذكاء سبعة أنواع وأن الدهاء – أي فن معاملة الناس – أحد هذه الأنواع السبعة.

كان الناس قديماً، ومازال الكثيرون منهم حتى الآن، يحصرون موهبة الذكاء

(1) كثيراً ما كان الوردي يوصيني بأن أوحي لمن يحدثني بأني أسمع ما يقول لأول مرة وأن لا أقاطعه، بل استفسر منه عن المعلومة التي يطرحها، حتى لو كانت المعلومة خاصة بي وأعرف تفاصيلها، وكان يقول إن هذه واحدة من خصال الداهية، ولا حاجة للقول إن الوردي كان يمارس هذه الحالة في حياته العامة.

(2) هوارد غاردنر، من مواليد 11 يوليو 1943 في سكرانتون بولاية بنسلفانيا. أحد مؤسسي مدرسة علم النفس التطوري وواضع نظرية الذكاء المتعدد.

فـي نـوع واحـد فيـه، فمـن نجح فيه قالوا عنـه إنه ذكي، أما مـن أظهر عجزاً أو قصوراً فيه فإنهم يعدونه غبياً لا خير فيه، وقد اتضح الآن خطأ هذه النظرة.

إن شـخصاً مـا قـد يكـون ذا درجة عاليـة في أحد أنواع الذكاء بينما هو ذو درجة واطئة في نوع آخر منه، ومشـكلة هذا الشـخص تكون على أشـدها عندما ينشـأ فـي بيئـة لا تقـدر ذكاءه العالـي، وهـو قد يكون مصيره الفشـل الذريع في حياته، ولو أنه كان قد نشأ في بيئة أخرى لربّما كان من العظماء اللامعين فيه.

خيـر مثـل يمكـن أن نأتـي بـه في هذا الصدد هو أديسـون الـذي يعتبر من أعظـم المخترعيـن في تاريخ البشـرية، أو أعظمهـم جميعاً، فقد كان هذا الرجل في طفولته يبدو عليه الغباء، وقد كتب مدير مدرسته تقريراً عنه إلى أهله يصفه بالتخلف العقلي وقد انقطع هو عن المدرسـة وصار يبيع الصحف في القطار، والظاهر أن ذكاءه المفرط في المدرسة كان أكثر مما ينبغي له، فضاق المعلمون به ذرعاً، ولكنه أتيحت له فيما بعد ظروف ملائمة أدت به إلى اكتشاف موهبته واسـتثمارها، فصـار مشـهوراً إلـى الدرجـة القصـوى، ولو أنـه كان قد عاش في مجتمع بدائي متخلف لظلّ كما كان في المدرسة محتقراً منبوذاً[1].

يمكن أن نقول مثل هذا عن الدهاة الذين اشتهروا في تاريخ الأمم، فالواحد منهم قد أتاحت له الظروف أن يستثمر موهبة الدهاء فيه على نطاق واسع فصار مشهوراً، ولنفرض أن شخصاً وهبه الله درجة عالية من الدهاء ولكنه كان دميماً، أو كان من أسـرة وضيعة معدمة، فهو كلّما حاول اسـتثمار موهبته الدهائية مع النـاس انثالـت عليـه الصفعـات و«الكفخـات»[2] من كلّ جانـب دون أن تترك له مجـالاً لكـي يقـول أو يفعـل كمـا يريد، وقـد رأينا من أمثال هـذا «الأغبر»[3] في مجتمعنا كثيراً.

ويمكن أن نأتي بمثل آخر في شخص موهوب بالدهاء ولكنه غير موهوب بالذكاء المدرسـي، وكان أهله يطمحون له أن يتفوق في دراسـته المدرسـية لكي

---

(1) كان الوردي كثير الاستشهاد بهذا المثل.

(2) الضرب بالكف على الرأس.

(3) العراقيون يصفون الفاشل بـ (الأغبر)، والأغبر لغة هو من علاه الغبار.

يكون طبيباً أو مهندساً مرموقاً، وتراه يكدح في المدرسة دون جدوى، ثم يلقى من لوم أهله وتوبيخهم ما لا يقدر على الصبر عليه، وربما أدى ذلك به إلى الانتحار أو الجنون.

كان المفروض في هذا الشخص أن يتوجه منذ طفولته نحو المهنة التي تلائم موهبته، فيدخل في مجال التجارة مثلاً أو أي مجال آخر يحتاج إلى فنٍّ معاملة الناس.

أعرف شخصاً كان يعد غبياً في المدرسة، ولكنه أصبح فيما بعد تاجراً مرموقاً، فهذا الشخص يجب أن يحمد ربَّه ألف مرّة لأنه أتيح له أن يعمل في المهنة التي هو مؤهّل لها.

العقلانية والدهاء:

لا يكفي في الموهوب بالدهاء أن تساعده الظروف على استثمار موهبته، بل يجب أن تكون له بالإضافة إلى ذلك ثقافة ملائمة وتجارب كافية.

إن الموهوب بالدهاء ربما نشأ في ثقافة عقلانية من النمط الذي كان سائداً عندنا في الجيل الماضي، فهذه الثقافة العقلانية تفسد موهبة الدهاء فيه، إذ هو يتعامل مع الناس في ضوء العقل والمنطق، يحاول إقناعهم أو التأثير فيهم بالأدلة العقلية، فهو في وادي وهم في وادي آخر.

ومما يلفت النظر أن ابن خلدون فطن إلى هذه النقطة قبل أن يفطن إليها علم الاجتماع الحديث بنحو ست مئة سنة، فهو قد عقد في كتابه «المقدمة» فصلاً عنوانه: «في أن العلماء من بني البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها»، وهو يقول في تفسير ذلك ما يلي: إن العلماء قد اعتادوا على النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أموراً كلّية عامة، أما السياسة فهي تتطلب غير ذلك إذ أن صاحبها يحتاج إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال، فإنها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من إلحاقها بشبه أو مثال وينافي الكلّيات التي يحاول العلماء تطبيقها عليها. إنّ العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالاتهم فيقعون في الغلط

كثيراً، ويفعل مثل ذلك الأذكياء العقلاء من غير العلماء إذ هم يفكرون على نمط ما يفكر به العلماء من حيث الغوص على المعاني والقياس فيقعون في الغلط.

ويقارن ابن خلدون هؤلاء العلماء والعقلاء بالفرد العامي الذي هو متوسط في ذكائه وسليم الطبع، فيقول إن هذا العامي أقدر على النجاح في السياسة منهم، فهو في نظر ابن خلدون ينظر في كلّ مادّة حسب ظروفها، ولا يكترث للقياسات والتعميمات، ولا يفارق في نظره المواد المحسوسة، ولا يجاوزها في ذهنه فهو في ذهنه كالسابح الذي لا يبتعد عن الشاطىء عند اشتداد الموج.

ويستخلص ابن خلدون مما ذكره النتيجة الآتية[1] حيث يقول: «ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس..».

التجارب والدهاء:

إن التجارب لا تقلّ في أهميتها للموهوب بالدهاء عن الثقافة الملائمة، فالإنسان مهما كان موهوباً بدرجة عالية من الدهاء لا يستطيع أن ينجح في التعامل مع الناس ما لم يكن قد مرّت به التجارب الكثيرة وتعلّم منها الدروس المفيدة.

حين ندرس سيرة الملوك القدامى لا نجد فيهم من الدهاة إلا عدداً محدوداً، فهم قد ورثوا الملك عن آبائهم في الغالب ونشأوا في القصور وفي أحضان العبيد والجواري، ولم يخالطوا الناس مخالطة واقعية إلا قليلاً، وهم عندما يتولون الحكم بعدئذ يحف بهم المتزلفون والمتملقون يزينون لهم أعمالهم ولذا فهم لا يستطيعون أن يفهموا الناس كما هم عليه في حقيقتهم بل يفهمونهم حسبما يشتهونه فيهم.

إننا يجب أن نستثني من هذه القاعدة الملوك المؤسسين، أي الذين أسسوا الأسر الحاكمة في التاريخ، فالواحد من هؤلاء خالط الناس قبل توليه الحكم، وهم كذلك قد عانوا ما عانوا عند كفاحهم في تأسيس الأسرة، ولذلك نراهم

---

(1) في الأصل: التالية.

من أبرع الناس في معاملة الناس.

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلدون تطرّق إلى هذه النقطة أيضاً في كتابه «المقدّمة»، فهو يضع لكلّ أسرة حاكمة عمراً محدوداً، إذ هي تبدأ قوية على يد مؤسسها ثم تبدأ بالضعف تدريجياً جيلاً بعد جيل، وقد وصف ابن خلدون مؤسس الأسرة بأنه «باني المجد» وأنه مدرك لما عاناه في بنائه ومحافظ على الخصال التي هي أسباب كونه وبقائه، وعندما يموت المؤسس يرث الملك من بعده ولي عهده، وهذا الوارث قد ينتفع من تجارب المؤسس عن طريق السماع، ولكن السامع بالشيء ليس كالذي يعانيه على حد تعبير ابن خلدون.

ويأتي ابن خلدون إلى وصف الأجيال التالية في الأسرة الحاكمة بعد المؤسس ووارثه، فيقول بأنهم نشأوا في أحضان الترف ولم يشاهدوا من الناس سوى التجلّة، وهم لا يعرفون الخصال التي مكّنت مؤسّس الأسرة من بناء المجد، وبهذا تنحدر الأسرة الحاكمة شيئاً فشيئاً نحو السقوط وعندما تقوم بعدها أسرة جديدة تمرّ بنفس الدورة التي مرّت بها الأسرة الأولى، وهكذا يسير التاريخ دورة بعد دورة..

بين المعاملة والإعلام

إن التعامل مع الناس ليس بالفن السهل، فهو كأيّ فنّ آخر لا يتقنه إلا القليلون.

إن الذي يريد التعامل مع الناس اعتماداً على الدليل العقلي وحده باعتبار أن الإنسان حيوان عاقل ينتهي أمره إلى الفشل في الغالب.

قلت مراراً وأعيد القول هنا أن هناك عدة عوامل لاشعورية تؤثر في الإنسان أهمها التراثية والجهل والعاطفة والأنوية والمصلحة فهذه العوامل يجب أن نضعها أمام أبصارنا عندما نريد التعامل مع الناس، وإذا غفلنا عنها ثم أخفقنا في التعامل معهم فيجب أن نضع اللوم على أنفسنا لا عليهم.

قد يواجهنا هنا سؤال مهم هو كيف نستطيع أن نعرِّف العوامل اللاشعورية في أحد الأشخاص، أو مجموعة من الأشخاص، لكي نتمكن من النجاح في التعامل معهم؟

لنأخذ على سبيل المثال شخصاً تريد أن تتعامل معه في مجال التجارة أو السياسة أو تريد أن تجذبه إليك أو تقنعه في رأي من الآراء فإنك يجب أن تدرس أولاً البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها لكي تعرف المعتقدات والقيم التي يؤمن بها، ثم تدرس بعدئذ اتجاه مصالحه الخاصة وعواطفه ومستوى ثقافته وما أشبه ذلك وهذا أمر عسير طبعاً، ولكنك كلّما زدت معرفة بتلك العوامل المؤثرة في الشخص ازداد نجاحك في التعامل معه وفي التأثير عليه.

لنفرض شخصاً اعتنق رأياً تحت تأثير البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها، ثم ارتبط الرأي بأنويته ومصلحته وعاطفته، فإن من الصعب جدّاً ومن المستحيل أحياناً، أن تقنع الشخص بتبديل رأيه حتى لو جئت له بأقوى الأدلة العقلية وأوضحها غير أن هناك ثغرة يمكن التسلل منها إلى عقله وهي الإتيان بالأدلة المنسجمة مع عوامله اللاشعورية، بعضها أو كلّها، وتراه عندئذ قد استجاب لك قليلاً أو كثيراً.

إن الدليل لا يؤثر في عقل الإنسان إلا بمقدار ما ينسجم مع العوامل اللاشعورية الكامنة في أعماق نفسه، فإذا كان الشخص مثلاً مؤمناً بعقيدة معينة فإن أقوى دليل تقدمه له هو الدليل المستند على نص وارد في أحد الكتب الدينية التي يعتقد بها أو على قول قاله أحد الأنبياء أو الأولياء الذين يقدسهم، أما الدليل الذي يستند على نص أو قول آخر فإنه لا فائدة فيه مهما كان في حد ذاته قوياً.

إن فن الإعلام وفن المعاملة ينبعان من مصدر واحد هو الطبيعة البشرية، فالذي يريد مخاطبة الجمهور والتأثير فيهم هو كالذي يريد التعامل مع الفرد، إذ هو يجب أن يخاطب عقولهم الكامنة بدلاً من مخاطبة عقولهم الواعية.

إن أول من لفت الأنظار إلى فن الإعلام في المجال السياسي الحديث هو غوبلز[1] الذي تولى وزارة الدعاية في ألمانية النازية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وينسب إلى هذا الرجل قول ما زال الناس يتداولونه حتى الآن هو:

(1) الدكتور جوزيف غوبلز 29 أكتوبر 1897 – 1 مايو 1945 – وزير الدعاية السياسية في عهد أدولف هتلر وألمانيا النازية، وأحد أبرز أفراد حكومة هتلر لقدراته الخطابية المتميزة.

«اكذب واكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس».

لا ندري هل قال غوبلز هذا القول أم لا، ولكننا مع ذلك يجب أن نعلم أن هذا القول في حاجة إلى توضيح، فالكذب في الإعلام والتكرار فيه لا يؤثران في الناس إلا إذا كانا منسجمين مع عواملهم اللاشعورية، أما إذا كانا مخالفين لتلك العوامل فإن مردودهما في الناس يكون عكسياً.

المعروف عن غوبلز أنه نجح نجاحاً كبيراً في فن الإعلام، ولم يقتصر نجاحه على الشعب الألماني وحده بل تجاوزه إلى بعض الشعوب الأخرى، فقد كانت إذاعة برلين خلال الحرب العالمية الثانية تحظى بتلهف الناس إلى سماعها في كثير من أنحاء العالم، وكنت أنا أحد المتلهفين إلى سماعها وكان هناك من أمثالي كثيرون في العراق والبلاد الأخرى.

إن السبب الأول في نجاح هذا الإعلام الغوبلزي هو أنه كان متجاوباً مع عواطف الناس ورغباتهم المكبوتة.

يجب أن لا ننسى أن الشعب الألماني كان عقب الحرب العالمية الأولى يشعر بالتذمّر الشديد تجاه الحلفاء ويعتبرهم ناكلين بوعودهم له وجاء هتلر ومعه غوبلز يضربان على هذا الوتر فاستجاب الشعب الألماني لهما بحماس شديد.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن الشعوب التي كانت تتلهف إلى سماع إذاعة برلين فقد كانت تلك الشعوب تشعر بالتذمّر أيضاً وقد وجدت في إذاعة برلين صدى لرغباتها المكبوتة على وجه من الوجوه.

يصح أن أقول عن فن الإعلان مثلما قلته سابقاً عن فن المعاملة من أنه فنّ صعب لا يتقنه إلا القليلون..

إن الإعلامي عندما يريد أن يبدأ حملته الإعلامية يجب أن يفهم نفسية الناس الذين يخاطبهم وما لديهم من معتقدات ومصالح وعواطف، أما إذا غفل عن ذلك فإن حملته الإعلامية ستكون ذات مردود عكسي، وكلّما ازداد حماساً وتكراراً في حملته كان المردود العكسي عليه أشدا!.

رأيت خلال الحرب العالمية الثانية منشوراً إعلامياً مصوراً وزعته السفارة

البريطانيـة فـي العراق، وكان هذا المنشـور يصـور هتلر[1] كأنه عملاق جبّار يمدّ أذرعـه الهائلـة للاسـتحواذ علـى العالم والواقع أن هذا المنشـور يكون له تأثيره الإيجابـي فـي النـاس لـو أنه وزع في بريطانيا أو فـي أي بلد غربي آخر، أما في البلاد الشرقية فإن تأثيره سلبي فالناس في الشرق كانوا يقدّرون أي عملاق جبار قادر على مغالبة الدور الاستعمارية الكبرى وكسر شوكتها وهذا هو الذي جعلهم يهيمون بحب هتلر ويطربون لانتصاراته..

يبدو أن الذي أصدر المنشـور الذي ذكرناه كان بريطانياً، فهو كان يتصوّر الناس في الشرق كالناس في بريطانيا، إنه لم يكن يعرف الفرق الكبير بين نفسية هؤلاء ونفسية أولئك..

كيف تعامل الناس؟

إن عنـوان المحاضـرة «كيـف تعامل الناس» هو عنوان يجذب القارئ، وفي هـذا الموضـوع صـدرت كتـب كثيرة في الخارج، وقد ترجـم بعض هذه الكتب إلـى اللغـة العربيـة كان أشـهرها كتاب ديـل كارينجي[2] الذي هـو بعنوان «كيف تكسـب الأصدقـاء وتؤثـر فـي الناس»، والغريب في هـذا الكتاب أن مؤلفه ليس عالماً أو باحثاً علمياً بل هو مجرد كاتب اعتيادي ولكنه استطاع أن يتغلغل في أعماق الطبيعة والبشرية عن طريق التجربة الشخصية في مخالطة الناس والتعامل معهم،وكان واقعياً صريحاً في أسلوبه فلم يلجأ إلى الخطابات والوعظيات التي ابتلي بها الكثير من الكتاب والمؤلفين، ولهذا راح كتابه رواجاً منقطع النظير.

إن كتـاب كارينجـي صـدر في أمريكا في عـام 1936، و{لكني} لم {أطلع} على الكتاب إلا في عام 1942، وذلك عندما {كنت أدرس} في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان {إطلاعي} على الكتاب بمثابة نقطة تحول في {حياتي} الفكرية لأنه هو الذي وجه {اهتمامي} نحو دراسة الطبيعة البشرية، وما زال {اهتمامي} منصبّاً في هذا الاتجاه حتى الآن – والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه!.

ويبدو لي {أني} لست الوحيد بهذه التجربة الفكرية التي مررت بها، فهناك

(1) مرت ترجمته سابقاً.

(2) مرت ترجمته سابقاً.

الكثيـرون مـن {أمثالـي} فـي هذه المرحلة الصاخبة من عصرنا، فما هو الواجب الذي يجب أن {نقوم} به في هذه المرحلة؟

أذكر في هذه المناسبة نكتة كنت قد ذكرتها في المحاضرة التي ألقيتها في قاعة الإدريسي ولا بأس أن أذكرها هنا مرّة أخرى.

خلاصة القصة أن صديقاً لي علم بأني سـألقي محاضرة عامة في موضوع «كيف تعامل الناس؟» فقال لي على سبيل المزاح أنك ينطبق عليك قول الشاعر العربـي «طبيـب يـداوي النـاس وهو عليل»، وكان يقصد مـن قوله هذا أني أقوم بتعليم غيري كيف يعامل الناس بينما أنا نفسي لا أعرف كيف أعامل الناس[1].

إن هذه الكلمة التي قالها الصديق لي وإن كانت قد قيلت على سبيل المزاح هي في الواقع لا تخلو من حق، فأنا كغيري من أبناء جيلي نشأت على مفاهيم مغلوطة في الطبيعة البشـرية وكيف نتعامل معها، وإني أعترف بأني قد تورطت في حياتي في كثير من الأخطاء الضارة من جراء تصديقي بتلك المفاهيم.

إني أرى من واجبي ومن واجب جميع الكتاب من أمثالي أن نكشف للناس مصدر الخطأ في المفاهيم التي نشأوا عليها، ونحذرهم من مغبة الوقوع في نفس الأخطاء التي وقعنا فيها قبلهم.

من المؤسـف أن أرى الكثيرين في مجتمعنا ما زالوا يعيشـون في قوقعتهم الفكرية القديمة، وقد آن الأوان لهم أن يخرجوا منها!.

إن الطبيعة البشرية كما يفهمها العلم الآن تختلف كلّ الاختلاف عما كان يفهمها الناس في الماضي.

قرأت مؤخراً بحثاً للباحث الاجتماعي كوفمان مفاده أن الحياة الاجتماعية لا تختلـف كثيـراً عـن التمثيلية التي يقوم بها ممثلون على المسـرح، فكلّ واحد منهم يؤدي دوراً مطلوباً منه تأديته، وهو يحاول أن يكون بارعاً في تمثيله لكي ينـال إعجـاب المتفرجيـن وتصفيقهم، إن الفرد فـي المجتمع كثيراً ما يضمر في أعماق نفسه مشاعر تختلف عن تلك التي يظهرها أمام الآخرين، فهو بهذا الاعتبار

(1) كان العلامة الدكتور حسين علي محفوظ يقول: إنّ علي الوردي أعظم عالم اجتماع، ولكنه لا يتقن فنّ العلاقات الاجتماعية.

ممثل يظهر غير ما يبطن، ولكنه يغالط نفسه أو يخدع نفسه من حيث لا يدري.

ذكرت {سابقاً} أن «الأنا» محور الشخصية البشرية، فكلّ فرد في أي مجتمع بشري يسعى دائماً نحو إظهار تفوقه ورفع مكانته في نظر الآخرين، فهو ينتعش حين ينال تقديرهم ويمتعض حين ينال احتقارهم.

لكـي نفهـم هـذا بوضـوح علينا أن نحضر إحدى الحفـلات التي تلقى فيها القصائد والخطب، فكلّ شخص يشارك فيها يشعر بأن الأنظار ترمقه لكي تعرف مبلغ تفوقه في إلقاء خطبته أو قصيدته، وهو عندما ينتهي من إلقائها تراه يمشي بين الحاضرين مرفوع الرأس، حاسـباً نفسـه كأنه كان الأهم والأفضل بالمقارنة مع غيره، إنه يبتهج عندما يسـمع تهنئة من أحد الحاضرين على جودة ما قال، وهو لا يدري أن غيره ربما نال من التهاني أكثر منه.

إن هذا الذي رأيناه في الحفلة لا يختلف في أساسـه النفسـي عما نراه في المقهى أو المجلس أو السوق أو الدائرة أو المدرسة أو الجامعة أو الملهى أو المرقص أو غيرها،فكلّ من يسـاهم في واحد من هذه الاجتماعات يقوم بدور فيه وهو يحاول إظهار تفوقه في هذا الدور بكلّ جهده، وكلّما كان المجتمعون أكثر عدداً وأقلّ ألفة كانت نزهة التمثيل فيهم أكثر وضوحاً.

إن الإنسان حين يختلي بنفسه يسلك سلوكاً يختلف عما يفعله أمام الناس، وهو لا يكاد يرى شخصاً ينظر إليه حتى يتغيّر سلوكه تبعاً لطبيعة ذلك الشخص من حيث علاقته الشخصية به أو مكانته الاجتماعية أو سلطته أو نفوذه.

أعـود إلـى موضـوع العنوان الذي بدأت به هذا الحديث، فإنك عندما تريد أن تعامل الناس يجب أن لا تنسى أنهم ممثلون، وأنك أنت ممثل مثلهم، فأنت تحـب أن يثنـي النـاس علـى إتقانك لدورك، ويجب أن تعلـم أنهم يحبون الثناء مثلك.

مشكلة الإنسان أنه يستثني نفسه من القاعدة العامة التي تشمل الناس غيره، إنه يخضع للقاعدة كما يخضعون، ولكنه لا يدري أو هو لا يريد أن يدري، فتراه شـامخ الأنف مزهواً بنفسـه ولكنه لا يكاد يلمح في غيره شـيئاً من الزهو حتى يشعر بالنُفرة منه أو الحقد عليه.

أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو ما اعتاد عليه بعض منا[1] في التسرّع في إعلان أي خطأ يقوم به غيره، بينما هو يغضب إذا أعلن غيره عن خطأ قام هو به.

حدثني صديق أنه كان يتحدث ذات مرّة في مجلس فنقل قولاً مأثوراً ورد ذكره في أحد الكتب الدينية، فانبرى أحد الحاضرين يعلن وجود خطأ فيه، وشاءت الصدفة أن يكون الكتاب الديني قريباً فتناوله الصديق وأخرج القول منه، واتضح أنه كما قال هو وليس كما قاله الشخص الآخر، وقد غضب هذا الشخص من جراء ذلك وترك المجلس ناقماً، وصار فيما بعد من أعدائه الحاقدين عليه.

إذا كان إعلان الخطأ الذي يقوم به أحد الناس غير مستحسن، فكيف يمكن إصلاح أخطاء الناس إذن؟

إن الذي يعلن أخطاء غيره أمام الناس لا يقصد الإصلاح فعلاً، بل هو يقصد إظهار التفوق في الغالب.

إن الذي يريد إصلاح الخطأ حقاً ينبغي أن لا يعلنه أمام الناس بل يؤجله إلى الوقت الذي يستطيع فيه أن ينفرد بالمخطئ ويناقشه في الخطأ بروح الإخلاص.

دلّت بعض الدراسات العلمية أن الذي يعلن أخطاء الغير أمام الناس هو أكثر خطأً من غيره.

فهو في الواقع قليل المعرفة وهو يريد أن يغطّي جهله بإعلان أخطاء الغير، وهو يفعل ذلك تحت تأثير دافع لاشعوري، ينبعث من داخل نفسه. إنّ الشخص الذي يتميز بسعة المعرفة ونضوج الفكر لا يسرع إلى تخطئة أحد إلا نادراً، فالناس يخطئون كثيراً في أحاديثهم، ولم يخلق الله أناساً لا يخطئون، ومن مصلحة العارف الناضج أن يتجنب تخطئة الناس جهد إمكانه فهو يعلم أن تخطئته لهم تجلب عداءهم له دون أن ينفعهم شيئاً، ومن طبيعة الإنسان أنه يصر على الخطأ حين يرى أحداً يتحداه فيه.

هذه هي طبيعة البشر منذ خلقهم الله على وجه هذه الأرض، وحتى قيام الساعة!.

---

(1) في الأصل: البعض منا.

{قلت في مناسبة سابقة إن الديمقراطية عادات وليست محفوظات}، فما معنى ذلك؟

إنّ خلاصة رأيي في هذا الموضوع هي أن الديمقراطية ليست محفوظات يتواعظ الناس بها، بل هي عادات اعتاد الناس عليها في سلوكهم الواقعي، وهذا الرأي كنت قد أعلنته على صفحات بعض الصحف في عام 1952 عندما جرى جدال حول الديمقراطية بيني وبين أحد أعوان العهد الملكي، ولعل من المجدي أن أعيد الآن بعض ما ذكرته آنذاك.

إننا حين نريد أن نعرف مستوى أي مجتمع من حيث أهليته للممارسة الديمقراطية علينا أن ندرس العادات التي اعتاد عليها الفرد في البيت والسوق والمقهى والمجلس والملهى والمتنزه وغيرها.

إن الحياة السياسية ليست سوى جزء لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية العامة وفي هذا يظهر مصداق الحديث النبوي القائل: «كيفما تكونوا يولى عليكم».

إن أهم مظهر للديمقراطية في المجتمع هو اعتياده على حرية الرأي، وكلّما كان الفرد فيه أكثر تسامحاً مع من يخالفه في الرأي، وأقلّ ميلاً إلى المشاجرة معه أو الحقد عليه، كان أقدر على ممارسة الديمقراطية في حياته السياسية.

إنّ الفرد في البلاد الديمقراطية المتقدّمة ينشأ على عادات الديمقراطية منذ طفولته، فهو إذا تناقش مع أحد في رأي لا يحبّ أن يتغالب معه أو يظهر تفوّقه الثقافي عليه، وهو كذلك لا يسرع إلى إهانة الشخص الذي يخالفه في الرأي أو الغضب عليه.

ولست أقصد من هذا أن جميع الأفراد في البلاد الديمقراطية هم من هذا الطراز، فقد عشت زماناً غير قليل في تلك البلاد وخالطت الناس فيها، فوجدت فيهم أفراداً غير قليلين اعتادوا على عادات غير ديمقراطية ولكن الأكثرية فيهم على خلاف ذلك.

يمكن القول بوجه عام إن الناس في البلاد المتقدمة لا يختلفون عن غيرهم في البلاد الأخرى من حيث طبيعتهم البشرية إنما يختلفون من حيث

القيم الاجتماعية والعادات التي نشأوا عليها منذ طفولتهم.

كنت في أيام شبابي وكهولتي مولعاً بالتجوال في الأسواق وبارتياد المقاهي الشعبية، وقد كنت أشعر أن دراسة أي مجتمع لا يكفي فيها أن تستمع إلى الخطب التي تلقى فيه، أو تقرأ المقالات التي تنشر فيه، بل يجب أن تذهب إلى الناس في شؤونهم اليومية لكي تفهمهم كما هم في الواقع وليس كما يتحذلقون به في خطبهم ومقالاتهم.

والآن بعد أن أدركتني الشيخوخة تركت ارتياد المقاهي وصرت أرتاد المجالس الخاصة، وهي مجالس ذات قيمة علمية لا يستهان بها.

هناك فائدتان رئيسيتان أجنيها من المجالس الخاصة، أولاهما في الحصول على المعلومات التي لا يمكن الحصول عليها من مصدر آخر، فكلّ من يحضر المجالس لابدّ أن تكون له وجهة نظر معينة في الأمور كما تكون له ذكريات وتجارب واطلاعات خاصة لا نعرفها، وحين أستمع إلى أحاديث المجالس ألتقط منها فوائد غير قليلة، وقد اعتدت بعد خروجي من كلّ مجلس أن أسجّل في مذكراتي ما سمعته من المعلومات التي قيلت فيه، وقد تجمّع عندي من هذه المعلومات الشيء الكثير.

أما الفائدة الثانية التي أجنيها من المجالس فهي في تفهّم المستوى الثقافي والحضاري للمجتمع ومبلغ أهليته للديمقراطية فالمحاضرون في المجلس يمثلون المجتمع وعاداته إلى درجة لا يستهان بها، وهم على درجات متفاوتة من حيث مستواهم الثقافي والحضاري، وهم يمثلون فئات المجتمع أو طبقاته الفكرية.

وضع أحد الباحثين ثلاثة قواعد يقصد بها تقييم أي مجلس من حيث تمثيله للعادات الديمقراطية في المجتمع، وهي على النحو الآتي[1]:

1. إذا تكلّم أحد الحاضرين في المجلس ساد السكوت على الآخرين فلا يتكلّم أحد منهم إلا بعد انتهاء المتكلّم من كلامه.
2. إذا وجد أحد الحاضرين خطأً في كلام غيره فإنه لا يسرع إلى إعلان الخطأ

(1) في الأصل: التالي.

أو تصحيحه أمام الحاضرين بل يؤجّل ذلك إلى ما بعد انتهاء المجلس في حديث خاص بينه وبين المخطئ.

3. إذا حدث جدال بين اثنين من الحاضرين فإنّ الجدال يظل موضوعياً فلا تدخل فيه القضايا الشخصية ولا يقول أحدهما للآخر «أنت كذا!».

من الجدير بالذكر أن هذه القواعد لا يمكن تطبيقها تطبيقاً تاماً في أي مجلس مهما كان مستواه الثقافي والحضاري، إن الكمال في كلّ الأمور لا يمكن أن يصل إليه أي مجلس أو أي إنسان مهما كان، ولكننا مع ذلك نستطيع أن نقول إن المجلس كلّما كان أكثر التزاماً بهذه القواعد كان مستواه الثقافي والحضاري أرفع والكمال لله وحده على كلّ حال!.

إني حضرت بعض المجالس في البلاد المتقدمة وقارنتها بمجالسنا فوجدت الناس هنا كالناس هناك كلّهم بشر ولكن الفرق بينهم في الدرجة لا في النوع.

أذكر فيما يلي بعض النماذج الشخصية التي اعتادت على العادات غير الديمقراطية في المجالس هنا وهناك:

1. لاحظت في أحد الحاضرين أنه يتكلّم في كلّ موضوع مهما كان، فهو موسوعي على طريقة الفارابي أو أفلاطون ولكنّه يعيش في العصر الحديث الذي لا يلائم منهج الموسوعية، إنه لا يكاد يجد أحداً يتكلّم في أي موضوع حتى يبدأ عقله بالبحث عن نقطة يأخذ بها زمام الحديث، وهو لو أتيح له لاحتكر المجلس له وحده غير أنه يجد في المجلس من ينافسه في ذلك فلا يترك له حرية الكلام كما يشتهي[1].

2. لاحظت في شخص آخر أنه لا يكاد يسمع متكلّماً ينطق بكلمة هي مغلوطة في نظره حتى يجابهه بقوله إنها مغلوطة ويحاول ذكر وجه الصواب فيها حسب رأيه، والملاحظ أن هذا الشخص قد يكون أكثر خطأ من غيره ولكنه يغضب إذا جابهه أحد بخطئه.

---

(1) كان يحضر في مجلس الدكتور عبد الرزاق محيي الدين رجل من هذا النوع، والغريب أنه كان لا يُظهر للناس أنه موسوعي في العلوم كلّها، وإنما كان يظهر معرفته بأسرار المهن كلّها، على الرغم من أن بين من يحضر في هذه المجالس أناس من ذوي الاختصاص والخبرة.

وهو قد يعمد في بعض الأحيان إلى توجيه سؤال وهو يعرف جوابه، ولكنه يقصد منه أن يجيبه أحد الحاضرين بجواب غير صحيح فيسرع هو إلى ذكر الجواب الصحيح بغية إظهار تفوّقه وسعة معرفته.

3. لاحظت في شخص ثالث أنه كثير المقاطعة للمتكلّمين في المجلس، وهو لا يستطيع أن يصبر إلى ما بعد انتهاء المتكلّم من كلامه، وإذا قيل له: انتظر قليلاً إلى ما بعد انتهاء المتكلّم من كلامه، فإنه يرفض الانصياع لهذه النصيحة ويظل يواصل كلامه،، وإذا لم يجد أحداً يستمع إليه التفت إلى الجالس بجواره ليتحدث إليه، وبذا يصبح هذا الجالس في موقف حرج لا يدري هل يستمع إلى جاره أو إلى المتكلّم الأول.

4. لاحظت في شخص رابع أنه حين يسمع سؤالاً موجهاً إلى أحد الحاضرين يسرع هو من جانبه إلى الجواب عليه في نفس الوقت الذي يتكلّم فيه المسؤول، وبذا يضيع الجواب على السائل لأنه يسمع اثنين أو ثلاثة يجيبون على نفس السؤال، وإذا كان السائل ضعيف السمع مثلي فإن المشكلة تكون أعوص![1].

5. لاحظت في شخص خامس أنه إذا تجادل مع أحد الحاضرين في موضوع معين، ثم وجد نفسه أنه على وشك أن يغلبه مجادله فإنه يعمد إلى تحويل الجدل إلى موضوع شخصي ويأخذ بتوجيه الاتّهام إلى المجادل ويصفه بما لا يليق لكي يتخلّص من مغبة المغلوبية في الجدل[2].

---

(1) حضرت مرة جلسة على نهر ديالى عقب محاضرة ألقاها الوردي، وجلس الوردي في مكان قريب إلى المكان الذي جلست فيه النساء وجلس إلى جواره شخص من هذا النوع، كان الوردي يُسأل فيجيب، فتدخل ذلك الشخص مقاطعاً الوردي مرة ومرتين وثلاث، فما كان من الوردي إلا أن يقول: أنا عندي حكاية واحدة سأرويها ولن أنطق بعدها، فقال له الجميع: اروها يا دكتور.. قال: كان لرجل حمار يعاونه في قضاء كلّ حاجاته، ولكن هذا الحمار أخذ يرفض من صاحبه أي طلب، فما كان من صاحبه وقد انزعج من تصرفه إلا أن يعرضه في سوق الحمير، فإذا جاء الناس لتفحص أسنانه، قال لهم صاحبه: احذروا لأنه يعضّ، وإذا أرادوا مسك ذيله قال لهم إنه سيرفسكم، وإذا أرادوا الركوب عليه لتجربته قال لهم: إنه سيوقعكم من على ظهره ويدوس عليكم بحوافره.. فقيل له: ولماذا تريد بيعه وفيه كل هذه العيوب؟.. أجابهم: إني لا أريد بيعه.. ولكني جئت لعرضه ولأريكم بأي حمار ابتلاني القدر.. وأشار إلى ذلك الشخص، مثيراً ضحك الجميع عليه.

(2) حدث هذا مع الوردي في عدد من المجالس التي يحضرها ومنها مجلس الدكتور عبد الرزاق محيي الدين، الذي كان حقيقة معرضاً تتوفر فيه جميع الشخصيات التي وصفها الوردي هنا.

أعود فأقول إن هؤلاء الأشخاص الذين وصفتهم موجودون عندنا كمثل ما هم موجودون في البلاد المتقدمة ولكن عددهم يقلّ ويكثر تبعاً للمستوى الثقافي والحضاري في المجتمع، وتبعاً لانتشار العادات الديمقراطية فيه.

إني قلت في عام 1952، وأعيد القول الآن إن العادات الديمقراطية لا يمكن تعويد الناس عليها بالخطب والمقالات، بل بالممارسة الفعلية لها.

إن ما فعلته حكومتنا في تطبيق الديمقراطية في العراق هو الطريقة العملية لتعويد شعبنا على ممارسة الديمقراطية عمليا، ويجب أن نضع أمام أبصارنا عند ممارسة الديمقراطية أننا سنواجه في بداية الأمر كثيراً من المشاكل وسوء الاستعمال، فالعادات التي ذكرناها لا تختفي من الناس فجأة، بل هي تحتاج إلى مدة غير قليلة، ولكن ذلك يجب أن لا يمنعنا من ممارسة الديمقراطية، فهذه الممارسة مهما كانت صعبة في بداية الأمر فهي لابدّ أن تؤدي في نهاية المطاف إلى ما نبتغيه من الوصول إلى المستوى الحضاري والديمقراطي اللائق بنا[1].

ليس هناك في هذه الدنيا نظام نافع كلّ النفع دون أن يخالطه شيء من الضرر وقد قيل قديماً: «ولابدّ دون الشهد من إبر النحل»[2].

الإنسان والنحلة

{تحدثت سابقاً حول طبيعة البشر وكيف أنهم مجبولون على التنازع والتعاون معاً، وهم في ذلك يختلفون عن النحل والنمل وغيرهما من الحشرات الاجتماعية التي يسيطر عليها التعاون فقط من غير تنازع.}

{وهنا سأقارن بين الإنسان والنحلة وأتناول أوجه التشابه والاختلاف بينهما}

(1) لا ندري هل أن هذا الكلام موجه إلى الحكومة التي كانت موجودة في عام 1952، أم إلى الحكومة التي كانت موجودة في تسعينات القرن الماضي، ولكن من المؤكد أنه كان رسالة للحكومة الموجودة وقت نشر هذا المقال والتي كانت تخطط للتعددية الحزبية وإطلاق الحريات الصحفية ونشر الديمقراطية لولا الظروف التي جابهتها بعد دخول القوات العراقية إلى الكويت وما نتج عن ذلك.

(2) من بيت للمتنبي وهو:

تُريدينَ لُقيانَ المَعَالي رَخيصَةً ... وَلا بُدّ دونَ الشّهدِ من إبَرِ النّحلِ

إن الله خلق نزعتي التنازع والتعاون في البشر لحكمة له فيهم فلو كان المجتمع البشري يسوده التعاون التام من غير تنازع لصار كمجتمع النحل أو النمل يظل على حاله ملايين السنين دون تغيّر أو تطوّر، ولو أنه كان يسوده التنازع من غير تعاون لصار كالحيوانات التي تعيش في الغابات حيث يأكل القوي منها الضعيف.

إن الإنسان يختلف عن النحلة من ناحية ويشبهها من ناحية أخرى، فالنحلة لها غريزة تدفعها نحو بناء الخلية وجمع العسل، أما الإنسان فليست لديه غريزة تدفعه نحو عمل شيء معين، بل هو مدفوع بدافع غامض هو دافع «الأنوية» الذي يجعله يسعى دائماً نحو رفع مكانته في نظر الآخرين من أفراد مجتمعه.

إن النحلة لا تشعر بالأنوية، أي أنها لا تهتمّ بتقدير غيرها من أبناء نوعها لها عندما تقوم بعملها المعيّن فهي تقوم بعملها كالآلة التلقائية، وهي مجبولة على ذلك بحكم الغريزة الثابتة فيها وإذا وقف في طريق عملها حائل شعرت بالتوتّر وبدأت بالكفاح من أجل التغلّب على ذلك الحائل بمقدار جهدها.

أما الإنسان فهو كثير الاهتمام بتقدير الآخرين له على كلّ عمل يقوم به وتراه عندما يقوم بعمل ما يتطلع إلى نظرات الآخرين نحوه أو إلى ما سوف يقولون عنه بعد إنجاز عمله، وهو يحاول بكلّ جهده القيام بما يعجبهم وتجنب ما يسخطهم.

إن الإنسان يسعى دائماً لكي يكون شيئاً مذكوراً، على حد تعبير جون ديوي[1]، وهو لذلك يظلّ راكضاً لاهثاً طيلة حياته، فإذا نال المكانة التي يبتغيها أخذ يسعى نحو مكانة أرفع منها، ولا يتوقّف طموحه إلا بالموت، فيستريح به ويريح!.

إنّ المجتمعات البشرية تختلف فيما بينها في نوع المكانة العالية التي يسعى الأفراد نحوها، فهناك مجتمعات يكون التقدير فيها للقويّ الشجاع الذي يغلب الغير دون أن يغلبه أحد، وهناك مجتمعات أخرى يكون التقدير فيها لصاحب

---

(1) جون ديوي 1859–1952 (John Dewey) فيلسوف وعالم نفس أمريكي يعد من أوائل مؤسسي الفلسفة البراغماتية.

المنصب والنفوذ، أو صاحب الثروة، أو الباحث العلمي، أو الشاعر المشهور، أو غيرهم. فالفرد الذي ينشأ في مجتمع من هذه المجتمعات يتجه طموحه منذ صباه الباكر نحو نيل المكانة التي يقدّرها الناس ولا يبالي بغيرها، وبذا يسير المجتمع نحو الارتفاع أو الهبوط تبعاً للقيم الاجتماعية السائدة فيه والتي يجري تقدير الأفراد بها.

وفي هذا يختلف المجتمع النحليّ عن المجتمع البشري، فالمجتمع التحلي لا ينتج غير العسل لا يعرف غيره، أما المجتمع البشري فهو ينتج أشياء متنوعة منها النافع ومنها الضار، ولهذا يكون المجتمع البشري في حاجة إلى مصلحين ومجددين يرشدونه إلى ترك الضار وإبقاء النافع، إن المجتمع الذي لا يظهر فيه المصلحون والمحدثون يبقى جامداً، أو يسير في طريق الفناء.

وجه التشابه:

إن وجه الاختلاف الذي رأيناه بين الإنسان والنحلة يقابله وجه آخر يمكن اعتباره وجه تشابه بينهما.

إن النحلة تسعى طيلة حياتها نحو هدف معين هو جمع العسل، ويجب أن لا ننسى أن الإنسان مثلها يسعى طيلة حياته نحو هدف معين، ولكن هذا الهدف لم تعينه الغريزة الطبيعية بل عينته القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع.

انظر إلى الشخص المتهالك على تضخيم الثروة لديه، أو المنكبّ على تحصيل العلم، أو المغامر لاكتشاف المجهول، أو المخترع الذي يسجن نفسه في مختبره، أو المتهالك على المنصب الرفيع أو الشهرة العريضة أو غيرهم من شتى أصناف البشر، ماذا يريدون؟ إنهم يدرون أن الهدف الذي يسعون إليه لا ينفعهم بعد موتهم، ولكنهم مع ذلك يظلّون راكضين لاهثين حتى ساعة موتهم ومعنى هذا أنهم لا يختلفون في أساس طبيعتهم عن النحلة التي تكدح في جمع العسل، فكلّهم مدفوعون بدافع خارج عن إرادتهم، ولكن النحلة مدفوعة بغريزتها الثابتة بينما هم مدفوعون بدافع «الأنا» الذي يختلف هدفه باختلاف الزمان والمكان.

شاع بين الناس قولهم: «الذكر للإنسان عمر ثان» وهذا قول يمكن اعتباره

مـن الأوهـام التـي تجعل الإنســان يركض وراء المجد والشـهرة بـلا حدود، إن الإنســان كما يقول العوام في العراق سـوف يأكله الدود بعد موته ولا فرق في ذلك بين أن يكون الإنسان مشهوراً أو مغموراً، أما حساب الله بعد الموت فهو يقوم على أساس آخر هو العمل الصالح، وليس للشهرة أي أثر فيه، وربما نال المغمور منزلة عند الله أرفع من منزلة المشهور[1].

حكمة الله

يعجبني في هذا الصدد المثل العربي القديم هو قولهم: «الإنســان بلا أمل كالنحلة بلا عسل»، فهذا المثل يشير إلى التشابه بين النحلة والإنسان في مسعاهما الدائب الذي لا يقف عند حد، ومن الممكن القول إن كلاً من النحلة والإنسان يسعى نحو هدف وثاني لا يعرفه، إذ هو مسير فيه لا مخير، فالنحلة تسعى نحو جمع العسل بينما الإنسان يسعى نحو عمارة الأرض وتطوير المجتمع البشري.

ورد في القرآن قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وقد فسر بعض المفسرين هذه الآية بأن المقصود منها عبادة الله عن طريق الإخلاص في العمل والدأب من اجل الكسب الحلال، وليس المقصود منها التفرغ للعبادة الشعائرية وحدها.

والواقع أن هذا التفسير للآية تؤيده قرائن عديدة وردت في السنة النبوية، أذكر بعضها فيما يلي:

يـروى عـن النبـي (ص) أن جماعـة مـن أصحابه مدحوا لـه رجلاً فوصفوه بكثرة العبادة وقالوا إنه «يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر»، فسـألهم النبي عـن الـذي يقـدم لـه مـا يحتاج إليه من طعام وشـراب، فأجابـوا بأنهم هم الذين يقدمون له ذلك، فقال النبي لهم: «كلّكم خير منه».

معنى هذا الحديث أن الكاسب الذي يطلب الرزق ويكافح من أجله أفضل من العابد الذي يشـغل نفسـه بالعبادة وحدها وقد وردت أحاديث نبوية أخرى

---

(1) كان الوردي كلما جاء مثل هذا الحديث يردد ساخراً ومنتقداً قول حاتم الطائي:

أمـاويّ أن المـال غـاد ورائـح ويبقى من الأحاديث والذكر

تؤيد هذا المعنى هي قوله (ص):

1. «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال».
2. ''إن الله يحب المؤمن المحترف».
3. ''الدين المعاملة».
4. ''الكاسب حبيب الله».
5. ''طلب الحلال جهاد».
6. ''إن الله يحب عبده تعباً من طلب الحلال».
7. ''إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج، بل تكفرها الهموم في طلب المعيشة».
8. ''من بات كالاً من طلب الحلال بات مغفوراً له».
9. ''أفضل الأعمال الكسب الحلال».

إن هذه الأحاديث تدل على أن عبادة الله لا تقتصر على القيام بالشعائر المعروفة كما يزعم بعض الملتزمتين النصوصيين بل هي تشمل أيضاً عمل الإنسان الدائب في مهنته أو مجاله الذي تخصص فيه، بشرط أن يكون صادقاً في عمله مخلصاً ينفع الناس كمثل ما ينفع نفسه.

معنى هذا أن الفلاح والعامل والموظف والمهندس والمعلم والطبيب والبائع والحرفي كلّهم يعبدون الله إذا بذلوا الجهد في عملهم وأخلصوا فيه.

والملاحظ في بعض الناس أنهم يعبدون الله على الطريقة الشعائرية المعروفة بينما هم في حياتهم العملية يعتدون على الناس أو يخدعونهم أو يغشونهم، إنهم يتصوّرون الله كأنه أحد السلاطين القدامى الذين كانوا يقربون المتزلفين والمتذللين بين أيديهم ولا يبالون بما يفعل هؤلاء بالرعية.

لقد آن الأوان لكي نقوم بثورة اجتماعية تعود بها إلى القيم الدينية الأصيلة، إن الشعار الذي ينبغي ان نرفعه للناس في المرحلة الراهنة هو «أيها الناس اعبدوا ربكم بالإخلاص في عملكم وبذل الجهد فيه».

حول التنازع(1)

{تحدثت} في موضوع التفكير الطوبائي، وقد {وردتني} حول هذا الموضوع بعض الردود والأسئلة من القراء، وكان من ضمن الأسئلة سؤال {وجدته} شديد اللهجة ولم {أعرف} هل كان صاحب السؤال قد قصد به الجدّ أو الهزل، وهذا هو السؤال كما {وردني} بنصه:

(إلى الدكتور علي الوردي.. إنك في حديثك السابق تقول بأن الدعوة إلى التآخي بين الناس دعوة طوبائية، وهذا قول منك لا نستسيغه، فماذا تريد منا أن نفعل، وهل تريد منا أن ندعو الناس إلى التخاصم والتنازع؟ لقد صبرنا عليك وعلى أقوالك (الخربوطية) طويلاً.. فإلى متى؟!!).

وقد عرضنا السؤال على الدكتور الوردي فكتب لنا جواباً عليه ما يلي:

أيها القارئ الصريح أشكرك على صراحتك التي لا أدري هل هي جدّية أم هزلية، وأرجو أن تكون هزلية بعون الله!..

إنك قد أسأت فهم حديثي السابق فإني لم أقصد به الدعوة إلى التخاصم والتنازع، بل أردت أن أقول بأن التنازع أمر طبيعي في البشر لا مفرّ منه، فليس في مقدور البشر أن يكونوا متعاونين من غير تنازع أو متنازعين من غير تعاون، فالتنازع والتعاون مترابطان في الطبيعة البشرية لا ينفكّ أحدهما عن الآخر، والذي يطلب من البشر أن يكونوا متعاونين تعاوناً تامّاً لا تنازع فيه إنما هو مفكر طوبائي لا يختلف في منطقه الفكري عن أولئك المفكرين القدامى الذين كانوا يحلّقون في عالم المثل عالياً ويغفلون عن واقع البشر الذين يعيشون بينهم.

أعود فأقول إن التنازع بين البشر أمر محتوم لا مفر منه فهو يختلف في صوره وأنماطه غير أنه لا يمكن أن يختفي نهائياً من حياة البشر، ونحن ينبغي أن لا نعجب حين نرى البشر يتنازعون، بل الأحرى بنا أن نعجب حين نراهم جميعاً في صفاء تام لا تنازع فيه.

ليس في مقدور الإنسان أن يعيش منعزلاً عن غيره من البشر انعزالاً تاماً كما أنه ليس في مقدوره أن يتعاون مع غيره من البشر تعاوناً مطلقاً بلا حدود.

إنّ الإنسان لديه حاجات لا يمكن إشباعها إلا عن طريق التعاون مع الآخرين، ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يستمرّ في تعاونه مع الآخرين حتى النهاية، ولابدّ أن يجد نفسه في بعض الأحيان مدفوعاً نحو التنازع معهم على وجه من الوجوه.

الملاحظ في الطفل أنه يميل إلى التعاون والتنازع معاً منذ بداية شعوره بالأنا، فهو إذا شاهد قريناً له من الأطفال ابتشّ له وانس بصحبته وصار يتعاون معه في اللعب غير أنه لا يستمرّ في ذلك فترة طويلة، إذ سرعان ما نراه قد اندفع للتشاجر معه لسبب من الأسباب وصار الطفلان يتشابكان بالأيدي، وقد يضرب أحدهما الآخر أو يختطف ما في يده بالقوة.

إن الإنسان ليس حيواناً محضاً ولا إنسان محضاً، بل هو حيوان وإنسان في آن واحد فهو إنما يتعاون مع غيره لأنه مضطر إلى ذلك فهو لا يستطيع أن يعيش منفرداً كالحيوان، ولابدّ له من مجتمع يربّيه ويساعده على تكوين طبيعته البشرية. فالإنسان إذن يتعاون مع الجماعة التي ينشأ فيها وترتبط مصالحه وعواطفه بها ولكنه لا يكاد يلمح من بين جماعته أحداً ينافسه أو يختلف معه على مصلحة له مادية أو معنوية حتى تنتفض من أعماقه طبيعته الحيوانية فيكشّر عن أنيابه وتبرز مخالبه الخفية.

إن الحياة الاجتماعية تجعل الإنسان في أكثر الأحيان مضطراً إلى أن يكتم غيظه ويداري خصمه ويجامله، فلا ينقضّ عليه، كما ينقضّ السبع الضاري على فريسته، إنه يتمنّى أن يفعل ذلك ولكنه يخشى من كلام الناس، أو يخشى من عقاب السلطة القائمة، ولولا ذلك لفعل بخصمه مثلما يفعل الذئب عند افتراسه للنعجة إذ هو يلتهمها بلذة ثم يضطجع مطمئناً كأنه لم يفعل شيئاً[1].

---

(1) ذكرت في الطبعة الثانية من كتاب(من وحي الثمانين) حكاية رجل معمم سلّم على الوردي، وكنت أسير بصحبته بانحناءة وتودد، وعندما ودعنا وذهب قال لي الوردي: إنّ هذا الرجل يشعر أن فوقه قوة هي قوة القانون فتراه ينحني عندما يحييني ويتودد إليّ، ولكن إذا زالت هذه القوة وحدث انفلات أمني، فإن هذا الرجل الذي تراه ينحني لي ويتودد إليّ سيكون أول شخص يتقدم لقتلي.. وفي قول الوردي هذا مغزى كبير وعميق أدركناه بعد احتلال العراق في عام 2003.

إن تـلازم التعـاون والتنـازع في المجتمع البشـري هو الـذي جعله يختلف عن مجتمع النحل والنمل وغيرهما من الحشـرات الاجتماعية، فالنحلة تتعاون دائمـاً مـع أبنـاء نوعهـا ولا يمكـن أن يظهر لديها أي ميل للتنازع معهم وسـبب ذلك أن النحلة إنما تجري في حياتها الاجتماعية تحت تأثير الغريزة وهي بذلك كالآلة الصماء تعمل على وتيرة واحدة لا تتغيّر، أما الإنسان فليس لديه مثل هذه الغريـزة، بـل هـو مدفوع في حياته الاجتماعية بدوافع أخرى، وهي دوافع تؤدي إلى التعاون والتنازع معاً.

الجانب الآخر:

أرجو من هذا القارئ العزيز أن يعلم أن التنازع ليس شراً كلّه كما يقول به المفكـرون الطوبائيـون، فالتنازع لـه وظيفته في الحياة الاجتماعية، ومن هنا جاء الحديث النبوي الشريف القائل «اختلاف أمتي رحمة».

إن التنازع هو الذي جعل المجتمع البشري يختلف عن مجتمع النحل أو النمل أو غيرهما من الحشرات الاجتماعية فإن المجتمعات الحشرية تظل على حالها دون تغيّر على مدى ملايين السنين، أما المجتمع البشري فهو لو قام على أساس التعاون وحده لصار كالمجتمع الحشري جامداً ساكناً لا يعرف من دنياه غير ما ورثه من الآباء.

إنّ كلّ تجديد أو إصلاح في البشر لابدّ أن يحدث تنازعاً بينهم فالأكثرون منهـم يتعصّبـون لمـا وجـدوا عليه آباءهم، على نحو ما ذكره القرآن. أما الأقلّون منهم فهم الذين يؤيّدون الدعوة الإصلاحية الجديدة.

وعند هذا ينشـب الصراع بينهم وحين تنجح الدعوة الجديدة وتنتشـر بين الناس تكون هي بدورها في حاجة إلى ظهور من يجدّد فيها وهكذا يستمرّ النزاع بين البشر إلى ما لا نهاية له.

لعل من المناسب أن أذكر هنا ما جرى من جدل بيني وبين أحد المفكرين الطوبائيين في عام 1954 عندما أصدرت كتاب «وعاظ السلاطين» فقد ذكرت فيه الحديث النبوي القائل: «اختلاف أمتي رحمة» فردّ عليَّ المفكر الطوبائي بكتاب قال فيه ما نصه:

«أ محمد (ص) الذي بذل كلّ جهوده ومنتهى مساعيه لتوحيد الأمة، بل البشرية جمعاء، فأمرها (ص) بالاتفاق على رأي واحد، وعقيدة واحدة، ودين واحد، وكتاب واحد، وقبلة واحدة، وحزب واحد.. أترى أن محمداً (ص) هذا المفكر العظيم يناقض نفسه بنفسه ويخالف القواعد الاجتماعية العامة فيحبّذ الاختلاف ثم يصفه بأنه (رحمة)، حاشا وكلا لصاحب تلك التعاليم الخالدة الذي أرسل رحمة للعالمين أن يدعو إلى الاختلاف والشقاق وقد عرف الجميع ما في الاختلاف من الضعف والهوان والدمار والتفكك والانحلال وتفسخ الأخلاق وانعدام النظام.

إن هذا الكاتب يعتقد أن الاختلاف بين الناس يؤدي إلى الضعف والهوان والدمار والتفكك والانحلال وتفسخ الأخلاق وانعدام النظام، وكان جوابي له أن ما تقوله صحيح ولكنك يجب أن لا تنسى أن عدم الاختلاف يؤدي من الجهة الأخرى إلى الركود والجمود وبقاء كلّ قديم على قدمه.

إن التنازع كأي شيء في هذه الدنيا له جوانبه الإيجابية والسلبية معاً، فهو يضرّ المجتمع من جهة وينفعه من الجهة الأخرى.

ظهر في الفكر الإسلامي في العصر الحديث رجلان مصلحان أحدهما سنّي هو الشيخ محمد عبده[1]، والآخر شيعي هو السيد محسن الأمين[2]، وقد جوبه كلّ منهما بالشتم المقذع والاتهام وإني أتذكر الضجة التي حدثت في العراق في عام 1929 عندما أصدر السيد محسن الأمين كتاباً بعنوان «رسالة التنزيه لأعمال الشبيه» حيث انتقد فيه ما كان يجري بين العوام من طقوس ومواكب تشوه سمعة الإسلام وتضرّ المسلمين. وإني ما زلت أحتفظ بالكتاب الذي صدر في ذلك الحين وبجميع الكتب والفتاوى التي صدرت ضدّه، وقد نظم أحد خطباء المنابر[3] بيتاً من الشعر وصف فيه السيد محسن بأنه «متزندق»

(1) السيد محسن الأمين العاملي الحسيني 1865–1952 من علماء المسلمين الشيعة وهو لبناني الاصل.

(2) وردت ترجمته سابقاً.

(3) هو السيد صالح الحلي وكان أشهر خطباء زمانه، وقد كان كلّما يرقى المنبر يقول منشداً:

يا راحلاً إما مررت بجلق ... فابصق بوجه أمينها المتزندق

معرضاً بالسيد محسن الأمين العاملي، وانتهى الأمر بالسيد صالح أن منعته مرجعية السيد أبي الحسن من ارتقاء المنبر الحسيني فقعد في بيته حسيراً إلى أن توفاه الله.

وطلب من الناس البصق في وجهه.

إن الحركات الإصلاحية من النوع الذي قام به الشيخ محمد عبده والسيد محسن الأمين وغيرهما لابدّ أن تثير التنازع بين النفس فريق يؤيد هذه الحركات وآخر يقاومها، ولو أننا اتبعنا ما يقول به الطوبائيون من ترك التنازع لصار الدين ألعوبة بأيدي السلاطين والعوام يلعبون به كما يشتهون، وهذا يصدق على جميع قضايا المجتمع كمثل ما يصدق على الدين.

حول التفكير الطوبائي(1)

إن الطوبائية هي تعريب للمصطلح الإنكليزي «utopianism» والمقصود به تصوّر حالة مثالية كاملة لا نقص فيها للمجتمع البشري ودعوة الناس لتحقيقها في حياتهم.

يمكن القول إنّ معظم المفكرين القدامى كانوا قد اعتادوا على التفكير الطوبائي عند دراستهم للمشاكل الاجتماعية وكيفية إصلاحها فهم يضعون خطة مثالية للمجتمع ويطلبون من الناس إتّباعها. وهم حين يجدون الناس لا يسمعون كلامهم ينهالون عليهم باللوم والتقريع قائلين لهم: إننا قدمنا لكم المنهاج الذي تسعدون به غير أنكم لم تسمعوا نصيحتنا فذوقوا جزاء عملكم.

إن أكثر المواعظ والخطب الرنانة التي زخرت بها العصور القديمة هي من هذا القبيل، فهي تطلب من الناس ما لا طاقة لهم به ولهذا ظلّ الخطباء يمطرون رؤوس الناس بمواعظهم مئات السنين دون جدوى[1]، وكانت من نتائج هذه المواعظ الطوبائية أنها خلقت في بعض الأفراد ازدواج الشخصية حيث صاروا يعظون الناس بالمثاليات ولكنهم في سلوكهم الواقعي باقون على ما كانوا عليه، وهم ينطبق عليهم ما ورد في القرآن الكريم **﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾**[2].

أنقل فيما يلي نموذجاً للتفكير الطوبائي وجدته في كتاب صدر في العراق قبل ثلاثين سنة تقريباً حيث يقول المؤلف فيه ما نصه:

«بلى إن المسلمين لو وفقوا لإدراك أيسر خصال الأخوة فيما بينهم وعملوا بها لارتفع الظلم والعدوان من الأرض، ولرأيت البشر إخواناً على سرر متقابلين

(1) في حوار أجريته معه قال لي الوردي: إن المواعظ المثالية التي هي مخالفة للقيم الاجتماعية السائدة في المجتمع لا تؤثر إلا في القليل من الناس، فأن أكثر الناس يظلون متمسكين بالقيم الاجتماعية في سلوكهم بالرغم من المواعظ التي تلقى عليهم. ومنهم من يصاب بازدواج الشخصية إذ هو يجري في أفعاله تبعاً للقيم السائدة بينما هو في أقواله وعظي مثالي.

(2) الصف: 3.

وقد كملت لهم السعادة الاجتماعية، ولتحقق حلم الفلاسفة الأقدمين في المدينة الفاضلة، فما احتاجوا إلى الحكومات والمحاكم، ولا إلى الشرطة والسجون، ولا إلى قانون للعقوبات وأحكام للحدود والقصاص، ولما خضعوا لمستعمر ولا خضعوا لجبار، ولا استبدّ بهم الطغاة، ولتبدّلت الأرض غير الأرض وأصبحت جنة النعيم ودار السعادة».

إن المشكلة الكبرى لدى أصحاب التفكير الطوبائي أنهم يغفلون عن الطبيعة البشرية التي جبل عليها الإنسان، وتراهم يضعون خطة مثالية بعيدة عما تقتضيه تلك الطبيعة، إنهم يضعون ثقتهم المطلقة في العقل البشري ويحسبون أنه المرشد لجميع أفعال الإنسان وأفكاره وهم لا يدرون أن العقل - كما أشرنا إليه سابقاً - ليست وظيفته إدراك الحق والحقيقة، بل إن وظيفته هي مساعدة الإنسان في تنازع البقاء.

إن الإنسان حين نراه يلهج بالحق والحقيقة ويترنم بمدحهما يجب أن نعلم أنه إنما فعل ذلك لأنه وجد الحق والحقيقة في مصلحته أو ضدّ مصلحة خصمه، وهو لا يكاد يراهما وقد صارا ضدّ مصلحته حتى يتنمّر لهما ويأتي بالأدلّة العقلية والنقلية لتفنيدهما، إن الإنسان الذي يحبّ الحقّ والحقيقة ولو كانا ضدّ مصلحته إنما هو إنسان نادر، أي أنه مستثنى من القاعدة العامة.

النواميس البشرية:

يمكن القول بوجه عام إنّ الإنسان يخضع في تفكيره وسلوكه لقوانين تشبه قوانين الطبيعة من بعض الوجوه، وهي التي نسميها «النواميس البشرية»، ولكن مشكلة الإنسان أنه إذ يخضع لتلك النواميس لا يدري أنّه خاضع لها، بل يحسب نفسه حرّاً مختاراً وأنه في أفعاله وأفكاره يسير حسبما يملي عليه عقله الواعي وإرادته الحرّة، وهذا من جملة الأوهام التي ابتلي بها الإنسان وجعلته يخطئ في معرفة نفسه وفي معرفة الآخرين.

للفيلسوف المعروف سبينوزا[1] تشبيه جميل في هذا الشأن، فهو يشبّه

(1) باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza) فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن السابع عشر. ولد في 24 نوفمبر 1632 في أمستردام، وتوفي في 21 فبراير 1677.

الإنسان بالحجر الذي يقذف به في الهواء. فالحجر لابدّ أن يسقط في الموضع الـذي تحـدده القوانيـن الطبيعية من حيث وزنه، والقوة التي قذفت به، والعوامل التـي تؤثـر عليـه أثنـاء ارتفاعه وسـقوطه، ولكن الحجر لـو كان له عقل يفكر به لشعر بأنه سار في الاتجاه الذي رغب فيه وأنه سقط في الموضع الذي اختاره.

إن هذا التشبيه الذي جاء به سبينوزا قبل ما يزيد على الثلاثة قرون لا يخلو من مبالغة ولكنه لا يخلو من صواب في الوقت نفسه.

إن الإنسـان جزء من الطبيعة، وهو لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن الحجر الذي يسقط على الأرض ولكن الفرق بين الإنسان والحجر جاء من كون الحجر يمكن وضعه تحت الدراسـة التجريبية الدقيقة، واكتشـاف القوانين التي تسـيطر عليـه فـي تحرّكـه وسـكونه. أما الإنسـان فمـن الصعب جدّاً، أو من المسـتحيل أحيانـاً، وضعـه تحت الدراسـة التجريبيـة الدقيقة فهو مركب عجيب تفاعلت في تكوينه عناصر وعوامل متعدّدة يصعب حصرها، إن العلم الحديث قد تمكّن من اكتشـاف بعض العوامل التي تدخل في تكوين الإنسـان وتسـييره، ولكن الطريق ما زال طويلاً أمامه في هذا المجال، ومن يدرينا فلعلّ العلم في نهاية المطاف سيجد الإنسان كالحجر تماماً إذ هو يخضع في جميع حركاته وسكناته لقوانين صارمة، على نحو ما ذكره سبينوزا!.

مناقشة الفارابي:

إنّ الفارابـي مفكّـر عظيـم، وهـو من الأفـذاذ الذين ينـدر مثيلهم في تاريخ الفكر البشري، ونحن الآن حين نعلن تقديرنا له ينبغي أن لا ننسى أنه كان كغيره من عظماء البشر له جوانب سلبية كمثل ما له من جوانب إيجابية.

الفارابي في تفكيره الاجتماعي كان طوبائياً، وقد ظهرت طوبائيته بوضوح فـي كتابـه المشـهور «المدينة الفاضلـة»[1] الذي نحا فيه منحى أفلاطون في كتابه

(1) المدينة الفاضلة كما تم التعارف عليها هي أحد أحلام الفيلسوف المشهور «أفلاطون» وهي مدينة تمنى أن يحكمها الفلاسفة ظناً منه أنهم لحكمتهم سوف يجعلون كل شيء في هذه المدينة معيارياً، وبناءً على ذلك ستكون فاضلة يجد فيها المواطن والمقيم والزائر أرقى أنواع الخدمات وأكملها وبأسلوب حضاري بعيداً عن التعقيد وبعيداً عن الروتين ومن غير تسويف وبعيداً عن سوء التعامل،

«الجمهورية»[1].

وضع الفارابي في كتابه منهاجاً مثالياً عالياً جدّاً لإصلاح البشر، فقد أتم الصفاء والهناء، وفي رأي الفارابي أنّ من أهمّ خصائص هذا المجتمع أن يكون له حاكم صالح ينظّم شؤونه ويسوسه بالعدل، وقد ذكر الفارابي الصفات المثالية التي يجب أن تتوافر في هذا الحاكم حيث يكون تامّ الأعضاء فاهماً ذكياً فصيحاً معتدلاً صدوقاً عادلاً قوي العزيمة محباً للعلم معتزاً بكرامته.

وبعد أن ينتهي الفارابي من تعداد الخصال الرائعة التي يجب أن تتوافر في الحاكم يقول: إذا تولى أمر المدينة - أي المجتمع - حاكم لا يتصف بهذه الخصال فإن المدينة سوف تتعرض للهلاك بعد مدّة.

مشكلة الفارابي وأمثاله من المفكرين الطوبائيين أنهم يقبعون في أبراجهم العاجية ويتأملون، وإذا فكروا برأي لإصلاح المجتمع فإنهم لا يهمهم أن يكون هذا الرأي عملياً وممكن التحقيق في هؤلاء البشر الذين يعيشون بينهم، إنّهم يكتفون بأن يكون الرأي رائعاً في حدّ ذاته، أمّا أمر تطبيقه عملياً فهم لا يقلقون أنفسهم به.

دعنا نختبر الفرضية التي جاء بها الفارابي لإصلاح المجتمع وهي اختيار حاكم له يجمع في نفسه الخصال المثالية، فنحن نعرف أن البشر لا يمكن أن يتفقوا كلّهم على رأي واحد في أي أمر من الأمور، وهم لابدّ أن يختلفوا فيه

وتصور فيها افلاطون الدولة وحدة حية تتكون من أعضاء والفرد خلية فيها (يشبهها بالإنسان).

(1) الجمهورية: حوار سقراطي ألفه أفلاطون نحو العام 380 قبل الميلاد، يتحدث عن تعريف العدالة، والنظام، وطبيعة الدولة العادلة والإنسان العادل. وهذا الكتاب هو المؤلف السياسي الرئيس لأفلاطون تتكون الدولة المثالية فيه، من وجهة نظر أفلاطون، من ثلاث طبقات، طبقة اقتصادية مكونة من التجار والحرفيين، طبقة الحراس وطبقة الملوك الفلاسفة. يتم اختيار أشخاص من طبقة معينة ويتم إخضاعهم لعملية تربوية وتعليمية معينة، يتم اختيار الاشخاص الأفضل ليكونوا ملوكا فلاسفة، حيث أنهم استوعبوا المثل الموجودة في علم المثل ليخرجوا الحكمة. ربط أفلاطون طبقات المجتمع مع فضائل اجتماعية معينة، مثلا طبقة التجار والحرفيين مرتبطة بفضيلة ضبط النفس، طبقة الحراس مرتبطة بالشجاعة وطبقة الملوك الفلاسفة مرتبطة بالحكمة، وفضيلة العدالة مرتبطة بالمجتمع كله، ودعا لفصل مهام الطبقات. كتب أفلاطون هذا الكتاب على لسان أستاذه سقراط، متناولاً فيه قضايا تخص الدول والمجتمعات الشرقية والغربية منذ فجر التاريخ الإنساني وحتى يومنا هذا، ويناقش في بداية الكتاب فكرة العدالة، وكيف نبني دولة عادلة أو أفرادا يحبون العدالة.

ويتنازعوا.

لـو فرضنـا أن الفارابـي وجـد الشـخص الصالح الذي يتصـوّره وطلب من النـاس اختيـاره حاكمـاً، فهل هم سيسـتجيبون كلّهم لـه ويوافقون على رأيه؟ إن الذي يعرف طبيعة البشر لابدّ أن يتوقع ظهور معارضين لا يرضون عن الشخص الذي اختاره الفارابي، ويأخذون بالبحث عن معائبه ومثالبه، ويبالغون فيها، كما هو ديدن الناس دائماً حين يبغضون شخصاً.

ولو فرضنا أن الناس جميعاً قد رضوا بهذا الشخص فكيف يستطيع هو أن يصل إلى مركز الحكم، فنحن نعلم أن مركز الحكم ليس شـاغراً وجاهزاً لكي يتولاه هذا الشخص المختار، وليس من طبيعة الحكام الذين يتولون الحكم فعلاً أن يتنازلوا لهذا الشخص عن كرسي الحكم ويقولوا له: «تفضل اجلس عليه بدلاً منا فأنت أصلح به منا». إن التقوقع الأنوي الموجود في كلّ إنسان لا يسمح له أن يتنازل لغيره عن شيء يملكه[1]، إذ هو يعتبر نفسه أولى بهذا الشيء من غيره.

الخلاصة:

خلاصة القول إن البشر جُبلوا على طبيعة لا يمكن تغييرها وهم كانوا كذلك منذ خلقهم الله على وجه هذه الأرض، وسيبقون كذلك حتى قيام الساعة، فالبشر مختلفـون متنازعـون بطبيعتهـم وليـس في مقدورهم أن يتّفقـوا جميعاً على رأي واحد حتى ولو جاءهم هذا الرأي من السماء. وقد رأينا ما فعل الناس بالأنبياء الذين يقدسـونهم اليوم فهم إنما يقدسـونهم لأنهم نشـأوا في بيئة تقدسـهم ولو أنهم نشأوا في بيئة تعبد الأوثان لحاربوا الأنبياء كما حاربهم أسلافهم من قبل.

---

(1) في حوار لي مع الوردي قال: إن الإنسان يأخذ صورة عن نفسه أفضل مما هي حقيقتها قليلا أو كثيراً. فهو يبالغ في ذكر محاسنه وينسى مساوئه، وهو يفعل العكس من ذلك تجاه خصومه ومنافسيه. وهذا هو ما يسمى (التقوقع الأنوي) وهو كالحسد يختلف في الأفراد شدة وضعفا تبعا لاختلاف تكوين الشخصية فيهم. إن التقوقع الأنوي قد يكون في أحد الأفراد شديداً أكثر مما ينبغي له. وهذا هو ما يسمى (النرجسية) أو (جنون العظمة). وإذا كان المصاب بهذا الداء ذا مكانة منخفضة في المجتمع صار موضع سخرية الناس وتندرهم. أما إذا كان ذا نفوذ ومكانة عالية حفّ به المتزلفون والمنافقون ودفعوا به إلى مالا يحمد عقباه.

حول تغيّر القيم الاجتماعية

الواقع أن تغيير القيم ليس بالأمر السهل، بل هو من أصعب الأمور، ولست أدّعي أنّي أعرف الطريقة الكافية والوافية في هذا الشأن، ولو كنت أعرف كيف أغيّر قيم الناس لصرت في حالة أفضل من هذه الحالة التي أنا فيها.

إننا حين ندرس ما فعله النبي محمد (ص) أو غيره من الأنبياء في جهودهم الإصلاحية ندرك أنهم لم يكتفوا بإلقاء المواعظ على الناس، بل كانوا هم أنفسهم قدوة عملية للناس في سلوكهم.

إن كلّ نبيّ لا يتبعه في بداية دعوته إلا القليلون من الناس، وهؤلاء القليلون يقتدون بالنبي في أفعاله كمثل ما يقتدون به في عقيدته الجديدة، وعندما تنجح دعوة النبي أخيراً، ويدخل في دينه أتباع كثيرون، يكون الأتباع الأولون بمثابة القدوة للأتباع الجدد، وهذا لابدّ أن يؤدّي إلى تغيير القيم الاجتماعية فيهم قليلاً أو كثيراً.

أذكر على سبيل المثال حادثة بسيطة حدثت في المدينة في زمن النبي محمد (ص)، فقد تشاجر رجلان أمام النبي وشتم أحدهما الآخر قائلاً له: «يا ابن السوداء».. فغضب النبي من الشاتم وقال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

إن هذه الحادثة صغيرة ولكنها من الناحية الاجتماعية ذات مغزى كبير، فهي تدلّ على أن النبي لم يأت بعقيدة جديدة فقط، بل هو أتى أيضاً بقيم اجتماعية جديدة مناقضة للقيم التي كانت سائدة في الجاهلية.

كانت قيم الجاهلية تقدّر الفرد تبعاً لحسبه ونسبه ولانتمائه القبلي، وجاء الإسلام يدعو إلى تقييم الفرد حسب عمله الشخصي فالفرد قد يكون ابن سوداء ولكنه قادر أن يتفوّق بعمله الصالح على أبناء الأشراف.

حدث مرّة في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب أن جاء إليه في مقرّه نفر من الذين كانت لهم مكانة عالية في الجاهلية، وطلبوا الإذن بالدخول عليه،

فلم يأذن لهم ثم جاء بعدهم نفر من الذين كانوا في الجاهلية من المستضعفين والعبيد وارتفعت مكانتهم في الإسلام، فأذن لهم عمر بالدخول.. معنى هذا أن الخليفة جرى في معاملة الناس على أساس القيمة الشخصية لكلّ واحد منهم، وليس على أساس الحسب والنسب أو المكانة الاجتماعية التي كانت لهم سابقاً.

وهناك قصة أخرى تشبه هذه القصة في مغزاها الاجتماعي جرت في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، فقد بلغ الخليفة أن عامله في البصرة واسمه عثمان بن حنيف ذهب إلى وليمة من تلك الولائم الباذخة التي تتصف بالتباهي والإسراف والتي يُدعى إليها الأغنياء دون الفقراء، فكتب إليه الخليفة ما نصه:

«أما بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطيب لك الألوان وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو وغنيّهم مدعو.. ألا وأنّ لكلّ مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وأنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفّة وسداد..».

إنّ هذه القصة تدلّ على أنّ الولائم الفخمة التي يتباهى بها الناس لا يمكن تغييرها بالكلام المجرّد، بل هي يمكن تغييرها عن طريق القدوة العالية، وأعني بذلك أنّ أصحاب المكانة العالية في المجتمع هم الذين يغيّرون قيمهم، فيكونون بذلك قدوة لغيرهم من الناس.

حول المرحلة الراهنة:

قد يواجهنا في هذا الموضوع سؤال هو فيما يخص المرحلة الراهنة والتي نعيش فيها، فقد كانت لدينا في العهد العثماني قيم عشائرية معينة، ثم جاءت إلينا الحضارة الحديثة بقيم أخرى تختلف عنها أو منافية لها من بعض الوجوه، وصار كثير من الناس يسيرون على القيم الحضارية الحديثة، بينما ظلّ آخرون متمسكين بالقيم العشائرية القديمة، فماذا نصنع مع هؤلاء أولئك؟ هل نتركهم يفعلون بأنفسهم ما يشاؤون أم نحاول توجيههم؟ وما هي الطريقة التي يمكن توجيههم بها؟!..

إنّ هذا السؤال يحتاج إلى توضيح قبل الإجابة عليه، فالناس الآن لا يصحّ تصنيفهم إلى فريقين على نحو ما ورد في السؤال، أي محافظين باقين على القيم العشائرية القديمة، ومجددّين أخذوا بالقيم الحضارية الحديثة، فالواقع أن أكثر الناس في العراق هم بين بين، إذ هم في ظاهرهم حضاريون وفي باطنهم عشائريون.

فأنت الآن قد ترى أفندياً مثقفاً يتقمّص أحدث الأزياء ويسكن أحدث المساكن، ويتحدث عن أحدث النظريات والأفكار العلمية، ولكنه ما زال يتباهى بالولائم الفخمة، ويصرّ على أن يكون هو الذي يدفع النقود في المقهى أو المطعم، ويتّبع قيم النخوة في الوساطات، ويلحّ في الدعوة إلى تناول الطعام أو غيره.

إننا الآن في حاجة ماسّة إلى الكشف عن مكامن هذه الازدواجية فينا، وأن نحاول إظهار عيوبها ومخالفتها للحضارة الحديثة التي نسير اليوم في طريقها.

لست أقصد بهذا أن نتبع الأسلوب الوعظي في مكافحة هذه ا لازدواجية فينا، بل يجب أن نتّبع طريق الإعلام المؤثر، وأعني به الإعلام الذي يتغلغل في أعماق الناس بدلاً من مخاطبة عقولهم الواعية.

إنّ كلّ واحد من العاملين في مجال الفنون والأدب والكتابة يمكن أن يكون له دوره في الإعلام المؤثر، فهو لا يُمطر الناس بالنصائح والمواعظ العالية بل هو يعرض عليهم مناظر من الأفعال المتناقضة التي يقومون بها في حياتهم اليومية حين يكون أحدهم عشائرياً تارةً وحضارياً تارةً أخرى.

وهنا يجب أن لا ننسى أهمية التلفاز في مجال الإعلام المؤثر، فهو قادر أن يعرض على الناس صوراً من تناقضاتهم اليومية، كما يعرض النتائج السيئة التي تنتج عنها، ويجعل الناس يضحكون على أنفسهم بها.

حين نشهد زحام الناس على ركوب الباص، أو في الحصول على سلعة، أو في دخول مكان، ونلاحظ عدم التزامهم بالنظام فيه ندرك ما في أعماق نفوسهم من نزعة التغالب والشطارة.. ولكننا حين نتحدّث إلى الفرد منهم في الأمور العامّة نجده قد انقلب حالاً إلى ناقد اجتماعي من الطراز الأول.

المطلوب من التلفاز وغيره من وسائل الإعلام أن يعرض علينا صوراً من هذه الظواهر الاجتماعية لكي نعرف أنفسنا بها ونضحك عليها!..

ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**...﴾[1]..

فنحن ما دمنا باقين على عاداتنا القديمة فليس من السهل علينا أن نتقدم في طريق الحضارة الحديثة!.

بين العقل والعلم

إن هذا الموضوع قد تحدّثت عنه في مناسبات سابقة وربما كان من المجدي أن أتحدّث عنه مرّة أخرى لعل فيه شيئاً من الفائدة للقراء.

إني لاحظت في هذا السؤال رأياً طالما لاحظته لدى الكثيرين وهو أنهم يخلطون بين العقل والعلم، فالسائل هنا يعتبر إصابة العين أمراً لا يقبل به العقل ولا العلم، والذي أريد أن ألفت النظر إليه هو أنّ العقل شيء والعلم شيء آخر، وكلّ منهما له منهج يختلف عن منهج الآخر. فالعقل قد يرى رأياً لا يرضى به العلم، وكذلك قد يأتي العلم برأي لا يقبل به العقل.

ومن الجدير بالذكر أني اقصد بالعقل هنا المنهج العقلاني الذي اتبعه الفلاسفة القدامى في تفكيرهم ولا يزال الكثير من مفكرينا وكتّابنا يجرون عليه حتى الآن، فهم إذا سمعوا بأمر غير مألوف لديهم، أو هو مخالف لما نشأوا عليه أو اعتادوا عليه أسرعوا حالاً إلى تكذيبه وإلى اعتباره غير مقبول عقلاً وعلماً، ولهذا نرى الكتّاب منهم يبدأون مقالاتهم أحياناً بعبارة «مما لا شك فيه» أو «مما اتفق عليه العلماء» أو «مما لا يتجادل فيه اثنان» أو ما أشبه.

في خلال المائة سنة الماضية جرى أكثر الناس على تكذيب كلّ اختراع وصل خبره إليهم لأول مرّة كالتلغراف والحاكي والطائرة والمذياع والتلفاز وما أشبه، فهذه أمور لم تستطع عقولهم تعليلها واعتبروها مستحيلة، وعندما شاهدوها عياناً ظل بعض منهم[2] يكذّبها أو يحاول تفسيرها بالشكل الذي يلائم

(1) الرعد: 11.

(2) في الأصل: البعض منهم.

مألوفاته السابقة.

ولا حاجة بي إلى إعادة قصة جدّي السيد محسن في عام 1910 عندما سمع بخبر العربة التي تطير في الهواء، والتي سميت بعدئذ «الطيّارة» فهو قد اعتبرها مستحيلة لا يقبل بها العقل وأخذ يلوم أصحابه الذين أوصلوا خبرها إليه وقال لهم: «إن الله أعطانا العقل لكي نميز به الأمور»[1].

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد أن أحد علماء بريطانيا المشهورين في أوائل هذا القرن، وهو اللورد كالفن، كذّب خبر الطائرة عند سماعه بخبرها لأول مرّة، على نحو ما فعل جدّي السيد محسن فهو قال: «إن الطيران بآلات أثقل من الهواء مستحيل من وجهة النظر المادية، وأن ليس في مقدور البشر بلوغه على الإطلاق».

إن كالفن في موقفه هذا نسي المنهج العلمي الذي يجب أن يتّبعه في النظر إلى الأمور وصار كغيره من الناس ينظر حسب المنهج العقلاني. إن المنهج العلمي الحديث قائم على أساس التجريب والدراسة الموضوعية ولا يبالي بالمفاهيم والمألوفات والمعلومات السائدة بين الناس، وهذا هو الذي جعل العلم الحديث يغيّر نظرياته وفرضياته بين حين وآخر، فإنّ البحوث العلمية تتسع وتتطوّر باستمرار وهي تكتشف في كلّ يوم أموراً لم تكن معروفة من قبل، وهذا لابدّ أن يؤدي إلى تغيّر النظريات العلمية تبعاً لتغيّر نطاق البحوث بمرور الزمن.

حول إصابة العين:

إن موضوع إصابة العين يمكن أن نأتي به نموذجاً لتبيان الفرق بين المنهج العقلاني والمنهج العلمي في النظر إلى الأمور، فقد اعتاد المفكرون العقلانيون عندنا وفي مختلف بلاد العالم إلى النظر في إصابة العين على منوال ما فعله

(1) يرى الوردي أن الفرد الذي يوصف بـ (العقل) عادة هو الذي يملك المقدرة على الانسجام مع القيم الاجتماعية السائدة في مجتمعه. أما الذي يوصف بـ (الجنون) فهو الذي يندفع من دوافعه اللاشعورية ورغباته المكبوتة من غير اهتمام بالناس حوله وما يقولون عنه والواقع أن كل إنسان لا يخلو من شيء من الجنون قليلاً أو كثيراً. فالعاقل الكامل لا وجود له بين البشر. أما الحد الذي يفصل بين العاقل والمجنون فهو اعتباري نسبي يختلف باختلاف المجتمعات وقيمها الاجتماعية.

القارئ الذي وجه السؤال لي، إذ هم اعتبروها من الأمور التي هي غير مقبولة عقلياً وعلمياً ولكن العلم أخذ أخيراً يخضع إصابة العين وغيرها من القدرات الخارقة للدراسة الموضوعية، وخرج من ذلك بنتائج تختلف كلّ الاختلاف عمّا يقول به المفكرون العقلانيون سامحهم الله.

في عام 1882 اجتمع عدد من العلماء في بريطانيا وألّفوا جمعية كان الغرض منها دراسة القدرات الخارقة التي يتناقل الناس أخبارها ويتجادلون حولها بين مصدّق ومكذّب، وقال رئيس الجمعية في خطابه الافتتاحي ما نصه:

«إننا نسمع كثيراً عن الخوارق التي يقوم بها بعض الأفراد ويرويها شهود ثقاة ولكننا نلوي أعناقنا عنها هازئين، إنّ من الفضيحة حقاً أن يشهد العالم المتمدّن هذا الجدال القائم بين من يروي تلك الخوارق وبين من يكذّبها ولو أن عشر هذه الخوارق التي يتناقل الناس أخبارها صحيحة لكانت قيمتها العلمية ذات أهمية لا تقدّر، إن الهدف الأول لهذه الجمعية هو البتّ في أمر هذه الأخبار التي يتناقلها الناس في كلّ زمان ومكان ووضعها تحت مشرط العلم الذي لا يتطرق إليه الشك، فنحن نريد سواء في ذلك المؤمنون منا وغير المؤمنين، أن نضع حداً لهذه الفضيحة التي يعانيها العالم المتمدّن الآن، إننا نريد أن نعلم علم اليقين عما إذا كانت هذه القصص المرويّة صحيحة أم لا، وفي كلّ حادثة نسمع عنها سوف لا نألو جهداً في أن نتحرّى مدى الصدق فيها، فنحن نريد أن نعلم ولا نريد أن نبرهن على شيء علمناه سابقاً، إن غايتنا هي الحقيقة بغض النظر عما إذا كانت نتيجتها سلباً أو إيجاباً».

إنّ هذه الجمعية قد نجحت في عملها نجاحاً كبيراً فهي قد فحصت كثيراً من الحالات التي يتناقل الناس أخبارها حيث وضعتها على بساط التجريب والدراسة الموضوعية، فأظهرت زيف بعض منها[1]، كما أظهرت صدق بعضها الآخر[2]، ومن يراجع الآن مركز هذه الجمعية في لندن يجد في أضابيرها ما يُذهل ويُدهش..

(1) في الأصل: البعض منها.
(2) في الأصل: البعض الآخر.

وقد شجّع نجاح هذه الجمعية على تأسيس جمعيات مماثلة في بلاد أخرى، ولدينا الآن في العراق جمعية من هذا النوع أتوقع لها النجاح.

خلاصة ما أردت قوله {هنا} أننا يجب أن نتعلم منهج العلم الحديث في النظر إلى الأمور، ونترك المنهج العقلاني القديم الذي اعتدنا عليه، ولست أعني بذلك موضوع إصابة العين وحده، بل جميع المواضيع التي تثير المجادلات بيننا.

إنّ الحضارة الحديثة لا تنحصر في المظاهر المادية فقط، بل هي تشمل طريقة التفكير أيضاً.

ويؤسفني أن أقول إن بعض كتابنا ومفكرينا ما زالوا قابعين في قوقعتهم العقلانية التي ذهب زمانها ومن يشهد المجادلات التي تنشب بينهم أحياناً يدرك مبلغ التقوقع العقلاني فيهم!.

حول النقد

مناقشة ناقد(1)

{نشرت هذه الجريدة في 30/ 10/ 1989 مقالة للأستاذ محمد إدريس العبد الله ينتقد فيها آرائي التي تحدثت عنها في صفحة (في النفس والمجتمع) من هذه الجريدة، فهو قد وصفني أني أعمد إلى إقصاء أبسط البداهات وعدم مراعاة الأوليات حين قلت ما قلت عن طبيعة الإنسان}.

إني عندما قرأت مقالة الأستاذ الناقد أدركت أنه لم يقرأ جميع المقالات التي نشرتها جريدة «الاتحاد» لي، بل هو قرأ بعضها ولم يتسن له أن يقرأ بعضها الآخر[1] منها، ولو أنّه كان قد قرأ جميع المقالات لما وجّه إليَّ مثل هذا الانتقاد الشديد - سامحه الله.

إنّه يقول عني إنّي أتّبع النظرة الأحادية في تفسير المجتمع وهي التي تقول بأن المجتمع يقوم على التنازع وحده، وهذه نظرة أنا بريء منها كلّ البراءة، ولكن الأستاذ يلصقها بي ثم يبدأ بمهاجمتها من أجل مهاجمتي حيث يقول في ذلك ما نصه:

«ثابت أن التنازع طبيعة في المجتمع، ولكن هل هو كلّ طبيعة المجتمع؟ الجواب: كلا، فهناك التوافق والانسجام وهو ما عبّر عنه الفكر البنائي والوظيفي في علم الاجتماع».

الواقع أني استغربت حين قرأت هذه ا لعبارة من الأستاذ الناقد، فهو يقول إن طبيعة المجتمع فيها التعاون والتنازع معاً، وهذا هو ما قلته أو قريب منه في المقالة التي نشرتها في جريدة «الاتحاد» في 6/ 3/ 89، وفيما يلي أنقل نص ما قلته في المقالة المذكورة لكي يطلع عليها القرّاء الذين لم يطّلعوا عليها في حينها، وهي:

«... فالتنازع والتعاون مترابطان في الطبيعة البشرية لا ينفكّ أحدهما عن

(1) في الأصل: البعض الآخر.

الآخـر، إنّ الإنسـان لديـه حاجات لا يمكن إشـباعها إلا عـن طريق التعاون مع الآخرين، ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يستمرّ في تعاونه حتى النهاية.. ولابدّ أن يجد نفسه في بعض الأحيان مدفوعاً نحو التنازع معهم على وجه من الوجوه.. إنّ تلازم التعاون والتنازع البشري هو الذي جعله يختلف عن مجتمع النحل والنمل وغيرهما من الحشـرات الاجتماعية.. فإنّ المجتمعات الحشـرية تظل على حالها دون تغيّر على مدى ملايين السنين. أما المجتمع البشري فهو لو قام على أسـاس التعاون وحده كالمجتمع الحشـري لصار مثله جامداً سـاكناً لا يعرف من دنياه غير ما ورثه من الآباء»..

حول التراثية:

أنتقـل بعـد هـذا إلـى نقطة أخـرى هاجمني بها الأسـتاذ الناقـد وهي حول التراثية.

إنـي أقصـد بالتراثية هنا مجموعة المعتقدات والعادات والمفاهيم والتقاليد والقيم التي يتميز بها مجتمع عن آخر، فالفرد الذي ينشأ في تراثية منعزلة مغلقة يخضع لتنويم يمكن أن نسميه «التنويم الاجتماعي»، فهو تحت تأثير هذا التنويم ينظر إلى الأمور من خلال تراثيته التي نشأ عليها، وهو لا يشعر بهذا التنويم، بل يتصوّر أنّه حرّ في تفكيره وأنّ الحق واضح لديه، وإذا بقي الفرد في كبره تابعاً فـي تراثيتـه المنعزلـة لا يعـرف غيرها فإن التنويم الاجتماعي يظل مسـيطراً على ذهنه، ولا ينقشـع عنه التنويم إلا إذا اتصل بتراثيات أخرى، وكلّما كان اتصاله أكثر كان انقشاع التنويم عنه أكبر.

إنّ هـذا هـو مـا قلتـه في كتبي ومقالاتي كما يعرفـه الذين قرأوها وأني في الواقع لم آت به من نفسي، بل نقلته عما جاء به علم الاجتماع الحديث.

ويبـدو أن الأسـتاذ الناقـد لا يقبـل بـه. فهو يرى أن التعصّـب التراثوي أمر شعوري وليس لاشعورياً، إنه يقول في ذلك ما نصه:

«فالتـراث أمـر يعيـه الفـرد ويدركه، فكلّ جماعة لهـا تقاليد وعادات كنمط للسلوك وكمفاهيم للتفكير تنتقل إليها عبر الأجيال وهي تتلقاها بوعي وتحافظ عليها، والأستاذ الفاضل (يقصدني أنا) يقول: «إنّ الإنسان محكوم بالتراث وأنه

لـو كان قـد نشـأ فـي تراثيـة أخرى لكان تفكيـره من نمط آخر، فلو سـلمنا بهذا لـكان المجتمـع سـاكناً لا يتقـدّم ولا يتأخّر، فهناك إضافة إلـى الماضي التراثي، الجديـد المسـتحدث والوافد من مجتمعـات أخرى يؤثر في الوعي الاجتماعي. إضافـة إلـى أنّ الفكـر لا يتحـدّد في صيغه العليا بالمجتمـع، فمبادئ العقل هي فوق الزمان والمكان. فالمنطق ومقولاته والرياضيات ومعادلاتها هي في الصين نفسها في أمريكا..».

أرجو أن يسمح لي الأستاذ الناقد أن أقول إنّ هذه العبارات التي جاء بها لا تختلـف كثيـراً عـن تلك التي اعتاد عليها العقلانيون القدامى، وإنّي أحبّ في هذه المناسبة أن أقدّم إليه هذا السؤال: «إذا كنت قد نشأت في بيئة تعبد الأوثان كمـا كان أهـل الجاهليـة يفعلـون ولـم تعرف غيرها، ثم جاء نبي كمحمد يدعوك إلى ترك الأوثان وعبادة الله الواحد القهّار، فماذا كنت تصنع؟..».

لعلّك تجيبني بأنك تسرع إلى تلبية دعوة النبي حالاً لأنّ لديك عقلاً يرشدك إلـى الإيمـان بصحـة دعوته. فالأوثان يصنعهـا الناس بأيديهم ثم يعبدونها، وهذا أمر لا يقبله العقل أبداً.

إنّ قولـك هـذا إنمـا تقوله الآن لأنّك نشـأت في بيئة تقـدس النبيّ وتحتقر عبـادة الأوثـان، ولـو أنـك كنت قد نشـأت في بيئة وثنية لكنت مـن أعداء النبي والمستهزئين بدعوته في الغالب.

إنّـي لا أسـتبعد أن تكـون مـن الملبّيـن الأولين للدعـوة النبوية، ولكن هذا احتمال ضعيف، فقد اتّضح الآن أن كلّ دعوة نبوية أو إصلاحية لابدّ أن يقاومها فـي بدايـة أمرهـا الأكثـرون، ولا يتّبعهـا إلا الأقلّون، وفي هـذا مصداق لما ورد فـي القـرآن الكريـم: ﴿**يَـا حَسْـرَةً عَلَـى الْعِبَـادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِـنْ رَسُـولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**﴾[1]..

إنّ النبـي محمـداً (ص) علـى عظمـة شـخصيته وعظمة ما جـاء به لم يتبعه خلال السنوات التسعة الأولى من دعوته سوى أربعين شخصاً، أي أنّ الناس لم يدخلوا في الدعوة الجديدة إلا بمعدل واحد في كلّ ثلاثة أشهر تقريباً.

---

(1) يس: 30.

يجب أن لا ننسى أنّ المجتمع البشري كلّما كان أكثر انعزالاً وانغلاقاً كان التنويم الاجتماعي أقوى تأثيراً على أفراده ولذا قد يصح القول إنّ النبي لو كان قد ظهر في قرية ثانية منعزلة لما اتّبعه أحد، ولكن ظهوره في مكة هو الذي أدى إلى تلبية أولئك القليلين له. ومن الجدير بالذكر أنّ المجتمع المكّيّ كان مفتوحاً نسبياً، إذ هو كان مركزاً تجارياً من جهة ومركزاً للحجّ من جهة أخرى.

إنّ التنويم الاجتماعي لا يخضع لإرادة الإنسان إلا ضمن حدّ محدود، وهناك عوامل شتى تلعب دورها فيه، كالذكاء وسعة الثقافة وتنوعها والاتصال الاجتماعي، إضافة إلى ما في البيئة التي يعيش فيها الإنسان من انغلاق أو انفتاح..

في النجف:

في 10/10/89 ألقيت محاضرة في النجف بناءً على دعوة من اتحاد الأدباء فيها، وقد تطرّقت في المحاضرة إلى العقل البشري والعوامل اللاشعورية التي تؤثر فيه، وقد ناقشني في ختام المحاضرة أحد الأساتذة هناك وذكر «العقل السويّ» وقال عنه إنه يستطيع أن ينظر إلى الأمور نظرة موضوعية دون أن يتأثر بالعوامل اللاشعورية.

إنّ ما قاله هذا الأستاذ المناقش يشبه ما يقوله الأستاذ الناقد في موضوع الإنسان الذي يملك عقلاً سوياً يسمو به عن التأثّر بالعوامل اللاشعورية كالتنويم الاجتماعي والعاطفة والمصلحة والجهل وما أشبه ذلك، ولكنّ المشكلة التي نواجهها هنا هي أين نجد هذا الإنسان صاحب العقل السوي؟. فكلّ إنسان يحسب عقله سوياً وأنه لا يتأثر بالتراثية التي تنشأ فيها ولا بالعاطفة أو المصلحة أو غيرها، بينما هو في حقيقة أمره متأثر بها قليلاً أو كثيراً.

وصف القرآن البشر بأن أكثرهم لا يعقلون، وأن أكثرهم للحق كارهون[1]، وهذا هو الذي جعل أكثر الناس يقاومون كلّ دعوة إصلاحية جديدة تخالف ما

(1) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: 63]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: 70].

نشأوا عليه، أي ما وجدوا عليه آباءهم حسب التعبير القرآني[1].

إن هـذا نامـوس بشـري عـام يظهر مصداقيته في كلّ زمان ومكان، فالبشـر في الحاضر كالبشـر في الماضي وكالبشـر في المسـتقبل، ومن يريد أن يتعامل مع الناس يجب أن لا تفوته هذه الحقيقة.

إنّ الشـخص الـذي يتعامـل مع الناس على أسـاس أنّهـم كلّهم أو الأكثرية منهم من أصحاب العقل السوي لابدّ أن يكون مصيره الفشل الذريع في الحياة - مع الأسف الشديد..

(1) ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 52–53]، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22].

كلّنا بشر(1)

ليس القصد من هذه المناقشة أن أغلب الأستاذ الناقد أو أن أكيل له الصاع صاعين على نحو ما جرت عليه العادة في المناقشات العقلانية القديمة، إنما القصد منها أن يطّلع القارئ على أوجه النظر حول طبيعة البشر، وربما انتفع منها في حياته العلمية على وجه من الوجوه.

إن الأستاذ الناقد ينقل عبارة مني من أجل انتقادها وهي قولي عن الإنسان إنه «كثيراً ما يندفع في حياته حسبما تملي عليه دوافعه اللاشعورية ولكنه يتصوّر أنه سائر في سبيل الحق والحقيقة أو في سبيل الله أو المصلحة العامة».. وهو يعلق على هذه العبارة قائلاً ما نصه:

«إن إنسان الدكتور الوردي، هذا الإنسان المسكين المأسوف عليه أجدر شيء يعمله هو أن ينتحر، فمكافأته ظلم وعقابه ظلم، إنه لا يدري أنه مسكون بأشباح لاشعورية تريه كلّ شيء بالمقلوب، أما العالم فأجدر شيء به الفناء، وما هي فائدة المصلحين والأنبياء إذن..».

وحين يقارن الأستاذ الناقد الطفل أو البدائي بالشخص البالغ أو المتحضّر يقول: «إن النسبة لا تقاس، فالطفل والبدائي يصدر سلوكه عن عقوبة غريزية تأخذ شكل ردود أفعال (ميكانيكية) منفعلة غير واعية، أما الرجل المتحضّر فيصدر عن إرادة واعية مدركة لنتائج الأقوال والأفعال فيعمد إلى التروي والأناة..».

يؤسفني أني لا أستطيع أن أرد على الأستاذ الناقد بتفصيل، لأن مقالاتي السابقة المنشورة في هذه الصفحة تتضمن رداً مفصلاً على ما قال بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وسوف أكتفي الآن بذكر بعض النقاط الموجزة منها – والله المستعان على كلّ حال!.

أرجو من الأستاذ الناقد أن يعلم أن الإنسان هو الإنسان في كلّ زمان ومكان تحركه العوامل اللاشعورية من حيث يدري أو لا يدري ولكن الفرق بين إنسان

وآخر هو في الدرجة فكلّما كان الإنسان أكثر نضجاً ووعياً وثقافة وانفتاحاً كان تأثير العوامل اللاشعورية فيه أقلّ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يتحرر منها تحرراً تاماً، فهو إذا تمكن من التحرر من التنويم الاجتماعي مثلاً لا يتمكن من التحرر من العاطفة أو المصلحة أو الأنوية أو التجارب المنسية أو العقد النفسية أو غيرها.

بين البدائي والمتحضّر:

إننا شهدنا ما فعل المتحضّرون في الحرب العالمية الثانية[1] فلم نجد فرقاً في الطبيعة البشرية بينهم وبين البدائيين، فهم جميعاً يتقاتلون ويتناحرون، وكلّ فريق منهم يعتقد أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه ولكن الفرق بينهم هو في نوع السلاح الذي يستخدمونه في تناحرهم.

إن القصف الجوي الفظيع الذي سلطه الألمان على المدن البريطانية في أول الحرب، والقصف الأفظع منه الذي سلطه الحلفاء على المدن الألمانية فيما بعد، وما جرى على مدينتي هيروشيما ونيكازاكي من جراء إلقاء القنبلة الذرية عليهما، يدل على أن الإنسان لم يتغيّر في طبيعته، بل تغيّرت أسلحته فقط.

وحين نقرأ ما كتبه كبار الساسة الذين ساهموا في إدارة تلك الحرب، نجد كلّ واحد منهم يضع اللوم فيها على الخصوم، ويبرئ نفسه وقومه منه، وهم في ذلك لا يختلفون في تفكيرهم عن البدائيين حين يتقاتلون، أو الأطفال حين يتشابكون بالأيدي ويتشاتمون.

زرت ذات يوم مدرسة للأطفال لكي أسجل أحد أحفادي فيها، فشهدت في غرفة المديرة حادثة ما زالت واضحة في ذاكرتي، وفحواها أن طفلين تشاجرا وجيء بهما إلى المديرة لكي تحكم بينهما ولكي تعاقب المعتدي والواقع أني عندما استمعت إلى ما قاله كلّ طفل منهما، من حيث تبرئة نفسه، وإدانة خصمه وجدت أنه لا يختلف في أساس تفكيره عن جدل قبيلتين بدائيتين تتشاجران، أو

---

(1) الحرب العالميّة الثانية هي نزاع دولي مدمّر بدأ في 7 يوليو 1937 في آسيا و1 سبتمبر 1939 في أوروبا وانتهى في عام 1945 باستسلام اليابان. قوات مسلحة من حوالي سبعين دولة شاركت في معارك جوية وبحرية وأرضية.

دولتين متحضّرتين تتنازعان.

إني عشت في طفولتي في بيئة كان النزاع بين المحلات[1] فيها غير قليل، كما كان النزاع بين الأفراد في المحلة الواحدة غير قليل أيضاً، وكثيراً ما كنت أشاهد شجاراً عنيفاً بين النساء في أحد الأزقة، فهو يبدأ بمشاتمة بسيطة بين طفلين، فيضرب أحدهما الآخر، ويذهب المضروب إلى أمه يشكو إليها من اعتداء خصمه عليه، وتخرج الأم صارخة مولولة، وهي تذكر الاعتداء الذي وقع على طفلها وتبالغ فيه، بينما هي تنسى الاعتداء الذي قام به ابنها، ومثل هذا تفعل أم الطفل الآخر، وقد يشتد الشجار بينهما إلى الدرجة التي تدعو إلى مشاركة الرجال فيه، وربما أدى ذلك إلى نشوب معركة دامية يسقط فيها بعض القتلى والجرحى[2].

إن هذا الذي يحدث في المناطق المتخلفة لا يختلف في أساسه الاجتماعي والعقلي عن الذي يقع بين أرقى الدول في زماننا هذا كلّهم بشر ولا يختلف بعضهم عن بعض إلا في الأساليب والوسائل التي يستخدمونها في تنازعهم أو تعاونهم.

حول الجهل:

إن الجهل هو أحد العوامل اللاشعورية التي تؤثر في الإنسان من حيث لا يدري بها، ولكن الأستاذ الناقد لا يوافق على هذا الرأي، ففي رأيه أن الإنسان يدري أنه جاهل عندما يكون جاهلاً، إلا إذا كان مصاباً بما يسميه المناطقة «الجهل المركب»[3]، فهو عند ذلك لا يدري أنه جاهل.

(1) كان يسمى الكسار إذ يغير رجال محلة على المحلة المجاورة لهم اثر شجار بسيط يتطور ويسقط في هذه الغارة جرحى وربما قتلى من الطرفين، ولسنا نحتاج إلى القول إن هذه الحالة تختفي متى ما كانت الدولة قوية.

(2) كانت مثل هذه المعارك تكثر إبان العهد العثماني وخفتت نوعاً ما خلال العهد الملكي في العراق، ويبدو أنها ليست خاصة بالعراق، وإنما بجميع البلدان المتخلفة بصفة أو أخرى.

(3) يعرف المناطقة الجهل بأنه: «عدم حضور صورة الشيء في الذهن»، وهو ينقسم إلى قسمين: بسيط ومركَّب، والبسيط هو: «أن يجهل الشيء وهو عالم بجهله»، لكن الجهل المركب هو: «أن يجهل الشيء وهو لا يعلم بجهله»، فهو إذاً غافل عن جهله ولا يدري بأنّه جاهل فيرى نفسه عالماً به، فيتركب جهله من جهلين: ويقول بعض الحكماء: «إنَّ من قُدرات الإنسان ومميَّزاته هو أنَّه يتمكَّن من التوجُّه والانتباه إلى علمه وجهله فيعلم بأنَّه يعلم ويعلم بأنَّه لا يعلم»، وأمّا الحيوانات إن كانت تعلم فهي لا تعلم بأنَّها تعلم كما أنَّها حينما تجهل لا تعلم أنَّها لا تعلم.

إني أوافق الأستاذ على رأيه هذا ولكنه أريد أن أسأله، كم من الناس من يدري أنه جاهل ويعرف حدود جهله ومعرفته؟

إن أكثر الناس الذي عرفناهم وخالطناهم هم من أولئك الذين لا يعرفون حدود جهلهم ومعرفتهم إلا قليلاً، ولا يجوز أن نستثني أنفسنا من ذلك فكلّنا بشر والعصمة لله وحده.

من الجدير بالذكر أننا جميعاً جاهلون، ولكن على درجات متفاوتة فالعالم الكامل عند الله وحده، ولم يخلق الله إنساناً يعرف كلّ شيء في هذا الكون الهائل المليء بالألغاز، ولكن المشكلة في أكثر البشر الذين نعرفهم، ونحن منهم، أن كلّ واحد منهم يتصوّر نفسه أكثر علماً مما هو عليه في الحقيقة..

إنّ كلّ واحد من الناس يعرف حدود معرفته حين يسأل أصحاب المهن والاختصاصات في مجال مهنهم واختصاصهم، إذ هو يسأل الطبيب في موضوع الصحة، أو المحامي في موضوع القانون، أو المهندس في موضوع البناء، أو النجّار في موضوع الأثاث، ولكنه لا يكاد يناقش في موضوع اجتماعيّ أو نفسيّ أو سياسيّ أو تاريخيّ أو دينيّ حتى يتحوّل فجأة إلى عالم لا حدّ لعلمه.

والواقع أني عانيت من هذا معاناة لا حدّ لها، فقد ابتلاني الله بأن يكون اختصاصي في علم الاجتماع والطبيعة البشرية، وهذا موضوع يظنّ كلّ شخص أنّه عالم فيه، وقد يحدث أحياناً أن أحضر في المجالس التي اعتدت على ارتيادها، وأذكر للحاضرين نظرية علمية جديدة ولكنّها مخالفة للمفاهيم التي نشأوا عليها، فأرى بعضاً منهم[1] ينبري لمعارضتها وتفنيدها على الرغم من كونها ليست في مجال اختصاصه، وهو يأتي بمختلف الأدلة «العقلية» لتبيان وجه الخطأ منها.

إنّ هذا أمر كثير الحدوث في مجالس المتعلّمين وغير المتعلّمين، وفي بلادنا وبلاد غيرنا، إنما هو يختلف شدّة وعنفاً تبعاً لاختلاف المستوى الحضاري والثقافي في الناس.

إنّ كلّ إنسان – كما أشرت إليه آنفاً – هو عالم وجاهل في آن واحد وعلى درجات متفاوتة، ولكنّ مشكلة الإنسان أنه لا يعرف حدود علمه بدقّة إلا نادراً..

(1) في الأصل: البعض منهم.

ملاحق الكتاب

دراسات اجتماعية

الرأي العام والغوغاء(1)[1]

د. علي الوردي

الـرأي العـام ظاهـرة اجتماعية حديثة النشـأة لم تكن موجـودة في العصور القديمـة إلا نـادراً، فهـي قـد ظهـرت مع ظهور الديمقراطيـة الحديثة وقد كثرت حولهـا البحـوث العلميـة، واختلفـت فيها آراء الباحثين، ومن المؤسـف أن نرى هذا الموضوع غير مدروس دراسة وافية في اللغة العربية مع أنه من المواضيع التي لها مساس مباشر، وصلة وثيقة بكيان المجتمع العربي ومستقبله.

ومـن الصعـب أن نأتـي الآن بتعريـف وافٍ للـرأي العـام، فهـو كغيـره من المواضيـع الاجتماعيـة الأخـرة لا يـزال موضع الأخذ والرد بيـن الباحثين، وقد تنوعت حوله التعاريف.

وعلى أية حال نستطيع أن نقول في تعريف (الرأي العام) على وجه التبسيط والاختصار: إنه الرأي الذي يسيطر على مجتمع ما حول قضية من القضايا العامة بعد أن يتناقش أفراد المجتمع حولها ويتجادلوا فيها.

معنـى هـذا أن حريـة الجدال والمناقشـة حول القضايـا العامة هي من أهم مستلزمات الرأي العام فإذا لم تكن هناك حرية للمناقشة في مجتمع صعب ظهور الـرأي العـام فيـه. وهـذا هـو الذي جعلنـا نقول بأن الرأي العـام ظهر مع ظهور الديمقراطية الحديثة.

ففي العصور القديمة كانت الدولة القاهرة هي المسيطرة، على الناس، وهي التي كانت تملك الحق المطلق في أن تبت في القضايا العامة. أما الرعايا فكان المفروض فيهم في الغالب أن يسمعوا، ويطيعوا ما يأمر به الحاكم، ومن حاول

(1) نشرته مجلة المناهل المغربية – العدد (4) – 1 نوفمبر 1975 – الصفحات 199 – 206.

أن يبدي اعتراضاً أو رأياً مخالفاً حلت به العقوبة الرادعة. وقد تعود الرعايا على ذلك جيلاً بعد جيل بحيث صاروا يستغربون حين يرون رجلاً منهم يعلن رأياً مخالفاً لـرأي الحاكـم، وهـو قد يصفونـه بقلة العقل والتبصر، وقـد يتبرأون منه ويتهربون من صحبته لئلا يقعوا في التهلكة.

مـن الممكـن القـول إن نوعـاً سـاذجاً مـن الـرأي العـام كان موجـوداً فـي المجتمعات القبلية التي لا سيطرة للدولة القاهرة عليها. وهذا النوع من الرأي العام لا يزال موجوداً كما كان قديماً وهو الذي نراه الآن سائداً في أكثر الشعوب البدائيـة والبدويـة. فهنـاك حيـن تثـار قضية عامة في القبيلـة كان يهددها عدو أو تحل بها كارثة، يجتمع كبار السن المحنكون مع رئيس القبيلة ليتناقشوا ويبحوا القضية من نواحيها المختلفة، وكثيراً ما يشـترك معهم في المناقشـة معظم أفراد القبيلـة، فيتسـع الجـدال ويطول وقد ينتهي الأمـر أخيراً إلى اتخاذ الرأي الغالب وهو الرأي الذي يتبناه رئيس القبيلة، ويقود القبيلة على أساسه.

ممـا يجـدر ذكـره فـي هـذا الصـدد أن الـرأي العـام الموجـود فـي البـلاد الديمقراطيـة الحديثـة يختلـف مـن بعض الوجـوه عن الرأي العـام القبلي الذي تحدثنا عنه آنفاً. فالمجتمع القبلي يخضع للعادات والتقاليد، والقيم الاجتماعية كل الخضوع، وإذا تناقش أفراده حول أية قضية عامة فإن مناقشته مهما تشعبت فهي لا تخرج عن نطاق العادات والتقاليد، إنها مناقشـة مقيدة ومحدودة، ومن النادر أن تكون حرة طليقة. وهذا هو الذي جعل بعض الباحثين ينكرون وجود الرأي العام في المجتمع القبلي.

يقولـون إن الحريـة مـن مستلزمات ظهور الرأي العام فـي المجتمع. وهم يعنـون بهـا الحرية السياسـية، والحريـة الاجتماعية معاً، فلا يكفي في نظرهم أن يكون المجتمع حراً من استبداد الدولة القاهرة فقط، بل يجب أن يكون أيضاً حراً من استبداد العادات والتقاليد.

بين الأنصار والخصوم

أصبـح الـرأي العـام مقدسـاً فـي نظر بعـض المفكرين، وبعـض الأحزاب السياسية الحديثة. فهؤلاء يعتقدون أن الرأي العام لا يخطيء أبداً، وأن الجماهير

إذا نادت برأي فلابد أن يكون ذلك الرأي حقاً مطلقاً لا يعتوره الباطل.

ولكن هذا الاتجاه في تقديس الرأي العام ظهر له خصوم ذهبوا إلى النقيض منه، نخص بالذكر منهم (نيتشه) الألماني، و(باريتو) الإيطالي و(غوستاف لوبون) الفرنسي و(أورتيغا) الأسباني. ومن المناسب أن نذكر هنا خلاصة لرأي أحد هؤلاء وهو (غوستاف لوبون).

يقول غوستاف لوبون: إن المفكرين صاروا في العصر الحديث يمجدون الجماهير، ويتملقون إليهم أكثر مما كانوا يتملقون قديماً إلى السلاطين المستبدين. إن الجموع الغوغائية أصبحت اليوم هي الحاكم المطلق في توجيه السياسة العامة، وأصبح السياسيون والإداريون، والمفكرون يخضعون لها، ويخشون غضبها. وهذا من معالم هرم الحضارة الحديثة، وقرب انهيارها كما انهارت الحضارات السابقة قبلها.

إن الحضارة في رأي لوبون هي من صنع أقلية صغيرة تملك المواهب النادرة، ولكن الغوغاء لا يفهمون ذلك، فهم يعتقدون أنهم بناة الحضارات، وأنهم قادرون على كل شيء. وقد زاد عدد المنافقين المتزلفين لهم. وشعر رجال السياسة بالجبن تجاههم، وبذا أصبحت العبودية للغوغاء سنة سائدة على الجميع، وصار الغوغاء كالجراثيم يعملون دوماً في سبيل انحلال الحضارة.

المذهب الوسط

استعرضنا مذهبين متعاكسين في طبيعة الرأي العام، فالمذهب الأول يمجده ويعزو إليه الصواب دائماً، والثاني يشجبه ويعده غوغائياً يخضع للعاطفة بدلاً من العقل. ولا حاجة بنا إلى القول بأن كلا هذين المذهبين لا يخلو من غلو وتطرف.

فالرأي العام ليس دائماً ذا طبيعة غوغائية كما يقول خصومه، وليس مصيباً دائماً كما يقول أنصاره. إنه كما يقول أحد علماء الاجتماع بين بين، أو هو ذو طبيعة مزدوجة تسيطر عليه النزعة الغوغائية، والنزعة العقلية في آن واحد، وهو قد يندفع نحو هذا الجانب أو ذاك على درجات متفاوتة حسب اختلاف الظروف والعوامل المؤثرة فيه.

حين نشهد الرأي العام في بعض البلاد المتقدمة التي مارست الديمقراطية زمناً طويلاً، نرى فيه الشيء الكثير من الاتزان والنزعة العقلية ولكن هذا لا يعني أن الرأي العام في تلك البلاد يخلو من النزعة الغوغائية خلواً تاماً. الواقع أن النزعة الغوغائية موجودة في كل تجمع بشري مهما كان، إنما هي تقل وتكثر تبعاً لعوامل شتى.

خلاصة ما يمكن قوله في الرأي العام هو أنه عبارة عن تفاعل اجتماعي تدخل فيه العوامل العاطفية، كما تدخل فيه العوامل العقلية. إن العقل والعاطفة يؤثران معاً في الإنسان سواء كان فرداً أو جماعة. ومن المستحيل على الإنسان أن يتخلص من تأثير العاطفة عليه، وهو من الجانب الآخر لا يمكن أن يكون خاضعاً للعاطفة كل الخضوع إذ لابد أن يرجع إلى عقله أحياناً ليوازن بين وجهات النظر، ويدرس ويتحرى في ضوء المنطق الموضوعي.

عوامل شتى

لا يسعنا المجال هنا استيعاب العوامل التي تؤثر في تقوية النزعة الغوغائية في الشعوب. يكفي أن نشير إلى بعضها من باب التمثيل لا الاستيعاب.

1- العامل التربوي

ونقصد به الطريقة التي ينشأ عليها الفرد في حياته البيتية والمحلية، والمدرسية، فإذا تعود الفرد في طفولته على احترام آراء الغير، وعلى االمجادلة الهادئة، وعلى الإيمان بحق كل إنسان في أن يعتنق ما يشاء من مذاهب وأفكار، صار في كبره عزوفاً عن الاندماج في الغوغاء، وعن الانجراف معهم من غير وعي. أما إذا تعود على العكس من ذلك فسوف يكون في كبره شديد الوطأة على مخالفيه في الرأي، ويعتبرهم خونة، أو زنادقة حسب العقلية السائدة في زمانه، ويشعر بأن الواجب يقضي عليه بسحقهم سحقاً.

2- العامل السياسي

إذا كان الشعب قد مارس الحياة الديمقراطية البرلمانية زمناً طويلاً، فإن

ذلـك مـن شـأنه إضعـاف النزعة الغوغائية فيه قليلاً أو كثيـراً، وعلى العكس من ذلك إذا توالت الانقلابات فيه، فإن كل انقلاب جديد يعد بمثابة مدرسة لتعليم التمارين الغوغائية فيه.

3- العامل النفسي الاجتماعي

قد تتخذ الحكومة في بعض البلاد أحياناً أسـاليب من شـأنها تقوية النزعة الغوغائية في رعاياها.

وأوضـح مثـل علـى ذلك، ما فعلته الحكومة النازية في ألمانيا قبل الحرب الثانيـة، وفـي أثنائهـا. فقـد اسـتعملت الأناشـيد، والهتافـات، والخطـب النارية، والمسـيرات، والرايـات، والطبـول لإثـارة الجماهيـر نحو هـدف معين فاندفعت الجماهيـر بتأثيـر هـذا الحمـاس العام كأنها وحش هائـل لا تفهم من دنياها غير ما يوحى إليها.

4- العامل الثقافي

إذا ولع شعب بالشعر أو الأدب اللفظي أدى ذلك إلى تقوية النزعة الغوغائية فيه. إن الشـعر ذو طابع عاطفي في الغالب، وهو يصنف الأمور إلى صنفين لا ثالث لهما: حق أو باطل، حسن أو قبيح، أبيض أو أسود ومعنى هذا أن الشعر يعلـم الإنسـان علـى إعطـاء الأحكام القاطعة فـي الأمور، والتحمـس لها وعدم التشكيك فيها. وعلى العكس من ذلك يكون المنهج العلمي الاستقرائي إذ هو يعلم الإنسـان أن لا يطلق حكماً على أمر قبل أن يتحقق منه تحققاً اسـتقرائياً، وهـو يبقـى مـع ذلـك غير مقتنع اقتناعاً تاماً، فلربما ظهر له في ما بعد ما يدعوه إلى تغيير رأيه.

التنويم الاجتماعي

إن الإنسـان يخضع في حياته الاجتماعية لتنويم يشـبه التنويم المغناطيسـي من بعض الوجوه، ويمكن أن نسمي ذلك «التنويم الاجتماعي» وكما أن الأفراد يختلفـون فـي مبلـغ تأثرهم بالتنويم المغناطيسـي، فهم يختلفون كذلك في مبلغ

تأثرهم بالتنويم الاجتماعي.

نجد بعض الناس إذا سيطر عليه إيحاء اجتماعي معين اندفع فيه اندفاعاً حماسياً عجيباً، فهو يكاد يكون أعمى وأصم لا يبصر ولا يسمع إلا في نطاق ذلك الإيحاء، وقد لا يبالي أن يسير كالخروف إلى المجزرة وكأنه سائر إلى جنة الفردوس. وهناك شخص هو على العكس من ذلك قلما يتأثر بالايحاء الاجتماعي السائد بين الناس، وقد يستهجن الكثير مما اعتاد الناس عليه من هتافات أو شعارات شائعة. إن أكثر الناس هم على درجات متفاوتة بين هذين النموذجين المتناقضين.

حين تقع ظاهرة غوغائية يتجمع فيها أولئك الذين لديهم قابلية شديدة للتأثر بالتنويم الاجتماعي، وهؤلاء لا يمكن أن نخاطبهم عقلياً أو نجادلهم في شيء. فالجدال معهم لا ينتج سوى إثارة عدائهم عليك. فإنهم لو كانوا قد توصلوا إلى رأيهم عن طريق التفكير الموضوعي لكان في مقدورك أن تجادلهم وتقنعهم، إنما هم قد توصلوا إليه من جراء وقوعهم تحت تأثير التنويم الاجتماعي على طريقة «طار الجمل طرنا معه». فإذا قلت لهم إن الجمل لا يطير، قالوا لك إن الجمل يطير رغم أنفك، وهم يرونه طائراً بالفعل.

نجدهم في بعض الأحيان يمجدون شخصاً ما ويصعدون به إلى السماء مدحاً وعشقاً. وبين عشية وضحاها ينقلبون عليه فيصبح في نظرهم من أسفل الناس، وألعنهم. وقد يفعلون مثل ذلك بالنسبة للمبادىء. فهم تارة مع هذا المبدأ. وتارة أخرى مع المبدأ المضاد له. والويل لمن يخالفهم في كلتا الحالتين.

تصنيف الغوغاء

يمكن تصنيف الغوغاء إلى صنفين رئيسيين أحدهما هو الصنف العنيف وذلك حين يتجمهر جمع غفير من الناس هائجين صاخبين فيعمدون إلى الاعتداء والحرق، والقتل والتحطيم، وهنا نجد الفرد المشترك في التجمهر ينسى نفسه، وينجرف مع التيار، وهو عندئذ يكون خاضعاً كل الخضوع للتنويم الاجتماعي، فإذا صاح الجمهور صاح، وإذا هجموا هجم، وقد يقوم حينذاك بأعمال فظيعة حتى إذا انتهى منها وانفض الغوغاء أصيب بالدهشة وربما ندم على ما فعل. إنه

أثناء التجمهر يتخذ شخصية ثانية غير شخصيته الاعتيادية ويندفع بها كالمجنون لا يدرك حقيقة ما يعمل.

أما الصنف الثاني من الغوغاء فهو هادئ من حيث مظهرة الخارجي ويشمل قطاعاً واسعاً من السكان. فهم يذهبون إلى أعمالهم، ويحيون حياتهم الاعتيادية ولكنهم عندما يفكرون في قضية عامة نراهم لا ينظرون إلا من خلال التنويم الاجتماعي المسلط عليهم. فهم يقيسون الأحداث والأشخاص بمعيار ما لقنوا به وأوحي إليهم. ومن صفاتهم أنهم إذا شهدوا جمهوراً صاخباً من الغوغاء يحرق ويقتل ويعتدي أيدوه بألسنتهم أو بقلوبهم، وقد لا يتردد بعضهم من الانضمام إليه فعلياً.

يمكن القول إن العلاقة بين هذين الصنفين من الغوغاء هي كالعلاقة بين البراكين الثائرة، والمواد المنصهرة في باطن الأرض. فالمواد المنصهرة موجودة في كل مكان تحت سطح الأرض، وهي هناك في حالة كمون، وتحفز. فإذا وجدت نقطة ضعيفة في سطح الأرض اندفعت من خلالها منفجرة مدمرة.

معنى هذا أن النزعة الغوغائية موجودة لدى الكثير من الناس غير أنها كامنة فيهم وهي تتحين الفرصة للانفجار.

إننا حين نشهد حادثة غوغائية مدمرة لا يجوز أن نلقي اللوم على المشاركين فيها وحدهم، فهم ليسو سوى نتيجة محتومة لما في المجتمع من تحفز كامن نحو الاعتداء الغوغائي ولولا هذا لما حدثت تلك.

من أوراق علي الوردي
حول معنى الحضارة(1)

بعد أن استقر الرأي على أن يكون اسم هذه المجلة «الحضارة» أصبح من الجدير بنا أن نعرف شيئاً عن ماهية الحضارة أو تعريفها. وهذا هو من المواضيع التي يبحثها علم الاجتماع. ولهذا اتصلنا بالدكتور علي الوردي، وهو الاختصاصي بعلم الاجتماع لكي يتحدث لنا، وقد جرى بيننا وبينه حوار طويل ننشره فيما يأتي[1] على شكل سؤال وجواب.

الحضارة ومعناها

أول نقطة جرى الحديث حولها مع د. الوردي هي لفظة «الحضارة» ومعناها في اللغة العربية وفي الاصطلاح العلمي. فقد اعتاد كتابنا ومؤلفونا على ذكر هذه اللفظة بمعناها اللغوي تارة وبمعناها الاصطلاحي تارة أخرى، وقد فعلوا مثل هذا في لفظة «الثقافة» وللوردي رأي في هذا الموضوع جدير أن نطلع عليه. فهو يقول ما يأي[2]:

هناك في علم الاجتماع مصطلح علمي له أهمية كبيرة ومن المؤسف أن نرى كتابنا ومؤلفينا قد اختلفوا في ترجمته إلى اللغة العربية. وكان ذلك سبباً في إرباك القاريء وتشويشه، وهذا المصطلح هو «CULTURE» فهذا المصطلح ترجمه بعض الكتاب إلى «ثقافة» بينما ترجمه البعض الآخر إلى «حضارة»، ولهذا فإن القاريء العربي حين يقرأ في الكتب والمجلات والصحف لفظتي الثقافة والحضارة لا يعرف ما هو هل المقصود منها هو المعنى اللغوي أو المعنى الاصطلاحي.

(1) في الأصل: يلي.
(2) في الأصل: كذلك.

ويؤسفني أن أرى أن المجمع العلمي العراقي غير مهتم بهذا الموضوع مع العلم أن كلاً من «الثقافة» و«الحضارة» كثيرة التداول في كتابات الناس وأقوالهم وأصبح من الواجب وضع حدّ لهذا الغموض والارتباك.

إن المجمع اللغوي المصري ارتأى في وقت سابق ترجمة مصطلح «CULTURE» إلى «ثقافة»، وإني أخذت بهذا الرأي في عام 1965 عندما أصدرت كتاب «دراسة في طبيعة المجتمع العراقي».. ولكني وجدت بعدئذ أن لفظة الثقافة لا تصلح لهذا المصطلح، لأنها تحمل معنى عاماً يعرفه قراء العربية، وهو معنى يختلف كل الاختلاف عن المقصود علمياً، وهذا لابد أن يؤدي إلى التباس المعنى على القراء.

عرض للمجمع العلمي

إني وجدت بعد بحث طويل ترجمة لمصطلح «Culture» هي «التراثية». وإني أعرض هذه الترجمة على المجمع العلمي العراقي وإلى غيره ليقولوا قولهم فيه. وفي رأيي أن لفظة «التراثية» تؤدي إلى نفس المعنى الذي يؤدي ذلك المصطلح العلمي كما يعرفه المختصون في علم الاجتماع والانثربولوجيا.

وهنا نعود إلى لفظة «الحضارة» ماذا نعني بها؟

إني أفضل أن تكون هذه اللفظة ترجمة لمصطلح علمي آخر، أي المدنيّة وما يدعوني إلى ذلك أن العرب منذ قديم الزمان جروا على اعتبار الحضارة مناقضة للبداوة وهذا رأيناه واضحاً في شعر المتنبي وفي مقدمة ابن خلدون وغيرهما. ومعنى ذلك أن «الحضارة» في اللغة العربية تعطي معنى «المدنية» أو قريباً منه. ولهذا لا يجوز استعمالها لتعطي معنى آخر لما فيه من ارباك للقاريء العربي وضياع للمعنى عليه.

*** بعد أن عرفنا مقصدك من مصطلح «التراثية» و«الحضارة» نريد أن نعرف ما هو الفرق بينهما من الناحية العلمية؟**

- المقصـود بالتراثيـة هـو مجموعـة المعتقدات والقيـم والتقاليد والعادات والمفاهيم التي يرثها الإنســان في حياته الاجتماعية وينشــأ عليها. أما الحضارة فهي مجموعة التقنيات والعلوم التي يحاول الإنســان من خلالها الســيطرة على الطبيعة والانتفاع منها.

بين التراثية والحضارة

ومن الفروق الرئيسية بين التراثية والحضارة أن الأولى تسبغ على الإنسان طمأنينة نفسية، بينما الثانية تنفع الإنسان مادياً وتضره نفسياً.

فنحـن حيـن نـدرس الشـعوب البدائيـة التـي لم تظهـر الحضـارة فيها نجد أفرادهـا يغلـب عليهـم اليقين والعقيدة الجازمـة. فهم يرثون من آبائهم معتقدات تفسر غوامض الكون تفسيراً لاشك فيه، وهم يجدون فيها حلاً نفسياً للمشاكل والمصائـب التـي تحـل بهـم. أمـا الشـعوب المتحضـرة، ولاسـيما المتقدمة في حضارتهـا فـإن الطمأنينـة النفسـية تضعف في الكثير من أفرادهـا. فهم يمتلكون وسائل عديدة لإشباع حاجاتهم المادية. أما حاجاتهم النفسية فهي غير مشبعة في الغالب، ولهذا يكثر بينهم الانتحار والكآبة والانحراف والجريمة[1].

وهنـاك فـرق آخـر بين التراثية والحضارة، فالحضارة في تقدم مسـتمر نحو الأفضل من حيث الإشباع المادي.

فحين ننظر مثلاً إلى وسـائل المواصلات خلال المئة سـنة الماضية نجدها قد سـارت في تحسـنها خطوات هائلة ومازالت في تحسـن مسـتمر لا يقف عند حـد. ويمكـن أن نقـول مثل هـذا عن جميع أجزاء الحضـارة كالإذاعة والطباعة والبناء والآلات المختلفة. فالعقل البشـري يبتكر في كل يوم شـيئاً جديداً منها. والصانعون يتنافسون في الحصول على كل مخترع جديد فيها.

---

(1) أعلنت منظمة الصحة العالمية «العاشر من سبتمبر» من كل عام يوماً عالمياً لمكافحة الانتحار، وقالت في تقرير نشرته إن عملية انتحار تتم كل 40 ثانية، وهو ما يمثل نحو مليون وفاة تحدث سنوياً في العالم، ومن المتوقع أن يرتفع هذا العدد إلى 1.5 مليون بحلول العام 2020 وأن شخصاً يحاول الانتحار كل ثلاث ثوان، فيما أشار الخبراء إلى أن الانتحار يشكل ما يقرب من نصف الوفيات العنيفة في العالم، إذ ظهر نحو 6003 حادثة انتحار ووفيات غامضة في بريطانيا وأيرلندا في العام 2003 وهو ما يفوق عدد حوادث الطرق بأكثر من ثلاث مرات..

أما التراثية فهي من طبيعة أخرى، إذ هي لا تقبل التغيير، وإذا أظهر فيها من يريد التغيير قاومته واضطهدته وربما قتلته وقضت عليه وعلى أفكاره الجديدة. وقد أوضح القرآن ذلك في عدد من آياته نذكر فيما يلي بعضها:

1. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[1].
2. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾[2].
3. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[3].
4. ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[4].

الواقع إني حين أقرأ القرآن أشعر كأن التاريخ البشري يجري أمام بصري. فإن الصراع العنيف الذي جرى بين الدعوة المحمدية الجديدة والتراثية التي كانت سائدة في زمانه لا يختلف في جوهره عن الصراعات التي رأيناها طيلة التاريخ البشري منذ بدء الحضارة فيه حتى يومنا هذا.

إن كل شيء جديد لابد أن يقاومه الناس قليلاً أو كثيراً. وتختلف شدة المقاومة حسب اختلاف الظروف في كل مجتمع، وحسب طبيعة الشيء الجديد. وقد رأينا ذلك بوضوح في المجتمع العراقي عندما كان المجتمع راكداً في العهد العثماني ثم جاءت الحضارة الحديثة إليه تدريجياً. وبدأ الصراع بين المحافظين والمجددين فيه يتوالى حيناً بعد حين.

---

(1) البقرة: 170.

(2) لقمان: 21.

(3) الأعراف: 28.

(4) الزخرف: 22–24.

مما أذكره من أيام صباي ذلك الصراع الشديد الذي نشب في عام 1924 بين دعاة الحجاب ودعاة السفور. فقد كان دعاة الحجاب كثيرون ويؤيدهم العوام. أما دعاة السفور فكانوا قليلين تمثلهم فئة من الشبان المثقفين الذين تحرروا من قوقعة تراثيتهم وأخذوا ينظرون في الأمور نظرة تعقل وتفهم.

عنوان الشرف

إن الحجاب مضر بالمجتمع ومضر بالمرأة التي هي نصف المجتمع من جهة والتي ينشأ الأطفال تحت رعايتها من الجهة الأخرى ولكن المحافظين اعتبروا الحجاب عنوان الشرف ومن صلب الدين وكل من هو ضده لابد أن يكون عديم الشرف أو زنديقاً. وما هي إلا مدة غير طويلة حتى رأينا بنات الحجابيين سافرات وقد خرجن من البيت إلى عالم التعليم والوظيفة والمهن المختلفة.

ومن الطرائف التي أذكرها في هذا الصدد أن عوني بكر صدقي كان معلماً في مدرسة الكاظمية الإبتدائية في ذلك الحين. وكان من دعاة السفور يكتب ويناضل من أجله. فحرض المحافظون عليه العوام وذهبت فئة من العوام تريد تأديبه ولكنهم لم يعثروا عليه بل عثروا على رجل يشبهه فأشبعوه صفعاً ولكماً. وقد حدثني بذلك هو بنفسه في أواخر أيامه حيث التقيت به وسألته عن أحداث تلك الأيام[1].

رأي نهائي

*** أراك في حديثك هذا تمدح التراثية تارة وتذمها تارة أخرى. فهي حسب قولك تمنح الإنسان طمأنينة نفسية. ولكنها من الجهة الأخرى تقاوم كل شيء جديد ولو كان نافعاً. والرجاء منك أن تعطينا رأيك النهائي فيها.**

– إن الرأي العلمي ليس فيه مدح أو ذم. إنما هو تقرير موضوعي للأمور. هذا مع العلم أن كل أمر في هذه الدنيا لا يخلو من جوانب إيجابية وسلبية.

---

(1) سبق للوردي أن استشهد بهذه الحادثة في ثنايا هذا الكتاب.

والمنهج العلمي حين يذكر تلك الجوانب بنوعيها الإيجابي والسلبي لا يقصد المدح أو الذم إنما هو يقصد ذكر ما هو واقع.

لقد اعتدنا في حياتنا الاجتماعية أننا إذا أحببنا شيئاً جعلناه كله خيراً لا شر فيه. أما إذا كرهناه جعلناه كله شراً لا خير فيه. وهذا أسلوب لا ينسجم مع المنهج العلمي كما لا يخفى.

إن التراثية تمنح الطمأنينة النفسية ولكن الطمأنينة تحتاج إلى الثبات والاستقرار واليقين. وهذه أمور لا يمكن توافرها في الحضارة المتغيرة القائمة على أساس الشك العلمي والبحث الدائم الذي لا يقف عند حد.

إن المحافظين الذين يقاومون كل جديد لهم وظيفتهم في الحياة الاجتماعية. ومن الممكن اعتبارهم سدنة الكيان الاجتماعي وحماته. فهم يقاومون الجديد النافع. ولكننا يجب أن لا ننسى أنهم يقاومون الجديد الضار أيضاً. فليس كل جديد نافع. وطالما ظهر في المجتمع أفراد يدعون إلى بعض المبادئ الإباحية أو الغوغائية. وهنا يظهر تجاههم محافظون ليدافعوا عن الكيان الاجتماعي.

إن التراثية من طبيعتها مقاومة الجديد، كما أشرنا إليه، ولكننا لا ننسى في الوقت نفسه أن التراثية قوام المجتمع وسبب استمراره فالتراثية كما قلنا هي مجموعة من المعتقدات والقيم والتقاليد التي ينشأ عليها الإنسان في بيئته الاجتماعية وهذه هي التي تجعل الإنسان حيواناً اجتماعياً.

فلولاها لعاد الإنسان إلى طبيعته الحيوانية الأولى وصار الناس يأكل بعضهم بعضاً.

إن التراثية يمكن تشبيهها بطبيعة «الرفض» الموجودة في البدن الحي. إذ هي ترفض كل جسم غريب يدخل في البدن سواء كان قلباً مزروعاً أو جرثومة ضارة. فالرفض في البدن يضره وينفعه في آن واحد. لأنه يمنع من قبول القلب المزروع أو الكلية المزروعة من جهة، وهو يمنع من دخول المكروبات أو الفيروسات التي تسبب الأمراض من الجهة الأخرى.

إن التراثية تقاوم دعوات المصلحين والمجددين وهي في الوقت نفسه تقاوم دعوات الإباحيين.

*** هل في مقدور المجتمع البشري أن يجمع في نفسه محاسن التراثية والحضارة معاً؟**

- الواقع إن كل مجتمع فيهشيء من التراثية وشيء من الحضارة. ويختلف كل مجتمع عن آخر في نسبة ما فيه من كل منهما.

إن المجتمعات البدائية التي تخلو من الحضارة لابد أن يكون فيها شيء من الحضارة، كالأدوات التي يستعملونها في الصيد والالتقاط، ولكن هذه الأدوات يصعب التجديد فيها. فهي يرثها الأبناء عن الآباء دون أن يفكروا في تحسينها وإذا ظهر مخترع بينهم يحاول تحسينها رفضوه باعتبار أن الشيء الذي ورثوه عن الآباء هو الأصلح والأحسن.

وتأتي مقابل ذلك المجتمعات الحضارية المتقدمة فالتراثية في هذه المجتمعات موجودة ولكنها ضعيفة الأثر بالمقارنة إلى المجتمعات البدائية. وفيها يكثر المصلحون والمبدعون والمخترعون كما يكثر المجرمون والمنحرفون والإباحيون.

إنك تسأل هل يمكن أن يكون المجتمع جامعاً لمحاسن التراثية والحضارة دون أن تكون فيه مساوئهما؟ وإني أجيبك عليه بقولي إن البشر ناقص بطبيعته، وليس في مقدوره أن ينال الكمال في أي عمل يقوم به مهما كان فالكمال لله وحده - كما قيل قديماً.

المفكر الدكتور علي الوردي

الدكتور عبد الستار عزّ الدين الراوي
نائب رئيس جمعية العراق الفلسفية

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد رئيس الجلسة المحترم..

السادة الأعزاء..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

لعلّ أمانة الثقافة والإعلام في الاتحاد العام للكتاب والمؤلفين في العراق، وهي تقيم احتفاليتها العلمية، على شرف الأستاذ الدكتور علي الوردي، وتصمم على أن يكون تكريمه في رحاب المكتبة الوطنية، كانت تدرك بحسّها الثقافي مقام الكلمة في فكر عالم الاجتماع الكبير ووجدانه.

فالمكتبة والوردي يتجاوران، يتصافحان، ويتعانقان، يصحبك معه في حواري بغداد.. وتحت شرفات بيوتاتها.. تطل عليك الشناشيل، ويشنف أسماعك القبانچي.. وملا رشيد.

إذ يتاح لي شرف المساهمة في هذه الاحتفالية حول فكر الوردي ومنهجه، فالأمر ينصرف عندي إلى أبعد من تمثيل جمعية العراق الفلسفية التي أتشرّف بنيابتها.. وإلى أبعد من موقف ثقافي عابر يوضع بين قوسين بارزين، حيث نكتفي بتأطير السجايا، وتوصيف الطباع، وتعداد الخصائص والسمات.. فالرجل بإجماع ذوي الرأي والاختصاص:

- أول عين نقدية تفوت إلى العراقي والحياة على عمق الامتدادات.
- علم عراقيّ، عربيّ الألوان، إنسانيّ القسمات، فكتبه مراجع، وآراؤه مصادر، واسمه في كبريات دوائر المعارف والموسوعات، وأعماله تقرأ بأكثر من لغة، من لغات العالم.

- وهو باحث مدقق.
- موسوعيّ الفكر، تنوّعت على صفحاته شتّى المعارف، ومختلف العلوم، ووصل الحال ببعض اهتماماته المعرفية، إلى حدٍّ يقترب من التخصص، وقد يفوقه أحياناً.

الفلسفة، علم النفس، التحليل النفسي، الباراسيكولوجي، الأدب، النقد، التاريخ، المأثورات الشعبية.. فالكتاب كان حبّه العميق، الأثير على قلبه.

ففي السنوات الأولى خصّص رفاً (للكتب والمجلات التي كان يبتاعها من سوق السراي) في دكان العطارة بالكاظمية الذي عمل فيه أجيراً.. ثم مالكاً.

فولعه للقراءة، وهوايته استقصاء المعارف، وراحته الدائمة، سفر يسترخي بين يديه.

وجد نفسه، منذ السنوات الأولى من حياته بين الناس، في السوق يبيع العطارة، أخذته الدنيا والتقطت عينه المرئيات الكثيرة.. فكان ابن الأرض، والمجتمع والإنسان.. وترجم هذه المشاهد كلّها (أقاصيص وحكايات ونوادر ومأثورات) في كتاباته.. ذات النكهة العراقية الأصيلة والعبق البغدادي العريق.

والوردي رائد الدراسات الميدانية، وهو أمر تفصح عنه معطيات بحوثه، ونتائج دراساته الاجتماعية، فنسيجها يبدأ من الواقع وينتهي بالناس.

فهو يلتقط الشذرات الحيّة، (الأوضاع، الهموم، الأماني، الأحلام) ويترجم ذلك كلّه بـ(حكمة مأثورة) أو (مقولة شعبية) تعبّر عن حرارة الحدث، وتعطيه شكله ومضمونه.. الزمان، المكان، الإنسان.

وهو أستاذي، إذ حضرت واستمعت إلى محاضراته، مثلما كان معلماً لأجيال كثيرة تمتد على جبهة النصف الأخير من القرن العشرين.

- مرشداً حين يقتضي الحال أن يعمّق حريّة الآخر، وحسن اختياره.
- وهو صديق لأبنائه ممن سعدوا بصحبته في رحلة العلم في جامعة بغداد.. يملأ حضوره القلب، حديثه عذب، أسلوبه سلس، وفكره مستنير، ورأيه أصيل.. هكذا الرجل الذي أسرنا بكلماته التلقائية، وشفافيته الإنسانية، وطباعه اللينة.. حتى ليكاد المرء منّا أن يشمّ فيه عطر العراق، ويبقى المذاق

بغدادياً ساحراً.

- وإن اختلفت معه في رأي، فإن رحابته تمنحك قدراً من الحرية.

وتأتي بساطته المتواضعة هذه وفاء.. من تلميذ لمعلمه، طبقاً لمقولة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (من علّمني حرفاً فقد ملكني عبداً).. فإن شاء باع وإن شاء اكتفى.. وإن شاء أطلق.. فهو أبي في الدين.

تطوّره الفكري:

المرحلة الأولى (الشرارة):

تعدّ (شخصية الفرد العراقي)، أولى تجاربه العلمية في ميدان البحث الاجتماعي، وقد اتّسمت بقدر كبير من الحماسة الفكرية، والإيقاع الصاخب والآراء المباشرة، فأفاض في عرض حججه وشواهده، ولم يدع شذرة في قاع التاريخ، أو متناول اليد إلا واتكأ عليها.

وإذا كانت الحماسة الفكرية قد غلبت على (مقدماته ونتائجه)، تحت سحر اكتشافه الذاتي، الذي توصّل إليه وارتاح إلى نتائجه وهو يوثق ازدواجية السلوك الاجتماعي للفرد العراقي، فإنّ هذه النظرية كانت جواباً عن سؤال وجّهه إلى والده منذ أن كان طفلاً عن تناقض القول مع الفعل، فوجد ضالّته التي بحث عنها طفلاً وصبياً، فكان أن ضمته الفكرة وشدّته إليها، فلم يستطع الانفكاك من أسرها..

وقد أثارت نظريته أو قل شرارته.. عاصفة عاتية من الآراء والأفكار والرؤى والتعليقات ولعلّ هذه التجربة على ما فيها، وما شابها من تأويل، تعبر عن شخصية الوردي المتفجرة في ذلك الوقت شاباً في الثامنة والثلاثين من عمره، مليئاً بالأفكار الجديدة.. واضعاً أمامه عالمين (المثل والواقع) فحاول محاكاة عالم المثل.. باحثاً عن أسباب الوجع الوطني، حاملاً هموم الناس.

ولم تثنه العاصفة الآتية من شرارته، لم يخفض رأسه لتمرّ من فوقه، بل آثر أن يضاعف وقودها وعدّتها عبر الهواء مباشرة (صورة وصوتاً) فاتقدت مرّة أخرى شرارته.. بذات الحماس الفكري الذي عرف به.. وبأسلوبه الوصفي المباشر.

المرحلة الثانية (الاحتجاج):

التي عبر فيها عن احتجاجات متتالية عبر مدوناته الأربع:

- وعاظ السلاطين.
- مهزلة العقل البشري.
- أسطورة الأدب الرفيع.
- الأحلام بين العقيدة والعلم.

وتتسم هذه المرحلة وهذا المنهج بـ:

- التقاط ظواهر اجتماعية، حضارية غائبة عن الكثيرين من المفكرين والكتاب.
- الطابع النقدي الذي حاول من خلاله تشريح (الظواهر).. وتعليل الأسباب.

ترجمة لا شعورية لا (مثل) التي يسعى إليها.

- إثارة الأسئلة..

المرحلة الثالثة (التأسيس):

وفيها قدم عمليه الرائعين:

آ. منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته.

ب. دراسة في طبيعة المجتمع العراقي.

وفي هذه المرحلة (الخمسينية) من عمره، حاول الانفلات عن أسر (حماسته) والتقليل من مباشرته المنهجية.. ولعلنا نتلمس هنا:

- الاقتراب العلمي (فحصاً وتدقيقاً) لمقدماته.. والتأني في بناء النتائج.
- احتكامه إلى (العقل النقدي).. والتقيد بمعطيات الظاهرة.
- التزامه الحياد الموضوعي في عرض الفكرة.. ومحاولة تحليلها في إطارها (المعرفي)..

المرحلة الرابعة (التكوين وجني الثمار): الستينات (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث):

آ. اعتصر أربعة قرون من الوجود العراقي.

ب. محاولة الإجابة عن:

- الذي كان!
- من نحن؟!
- ماذا نريد؟!
- وإلى أين؟!

ج. وضع الإنسان العراقي أمام مرآة (مواجهة الذات)!

د. إذا كانت (الفكرة) – المُثُل قد احتوته في (الشرارة) والاحتجاج، وانفلت من أسرها في (التأسيس)، فإنه في (اللمحات)، كان ملماً بها.. بعد طول اعتكافه على دراستها، فكان متأنياً، صبوراً في الإحاطة بأبعادها وتمثل عللها، وبيان حقائقها.

وعلى حاشية اللمحات، قل موسوعته: لا يفوت الباحث ملاحظاته النقدية العميقة على الماركسية، المادية التاريخية والمادية الجدلية، حيث تعتبر محاولته هذه من بين المحاولات العلمية المميزة، فتخطى المناهج المغلقة العقيمة بشكليها الـ(مع أو ضدّ) دون قدر من استيعاب أو برهان، أو تمثل لماهيتها، أو الإلمام الكافي باعتماداتها الفكرية.. فالتزم الوردي منهجاً موضوعياً صارماً، قائماً على الفحص التاريخي لأصولها، والمراجعة الفكرية المعمقة، لمقولاتها، وصلتها، بالواقع.. وآليات عملها..

ولعلّنا ندرك الآن خطورة رؤيته لمستقبل الماركسية في التطبيق العملي، عقب خروج روسيا من معطف غورباتشوف. أما إشاراته الفلسفية فهي مبثوثة في تأصيل الكثير من الفكريات التي تكشف عن ثقافة رصينة تبدّت في تناوله الفلسفي البالغ الخصوبة والثراء وهو يكرس مبحثاً قائماً بذاته لموضوعة العقل.. عدا ما أفاض فيه وعلق عليه، من ضروب الخلاف بين المدارس الكلامية والفلسفية..

والأمر ذاته فيما دوّنه من آراء ومواقف في التاريخ، أو قل فلسفة التاريخ، ليس من خلال عرض آراء المفكرين وعلماء التاريخ والفلاسفة.. وإنما عبّر رؤيته للظواهر وفهمه للأحداث، وتفسيره المتنوع لها.. وهو يحث القارئ على أن يستعين بالخارطة ليقرأ بعيون ثابتة ليفهم الوقائع طبقاً لعلاقة (الكاتب) بـ(المتغيّر)..

هكـذا يمضـي الوردي في موسـوعة (اللمحـات) التي يبلغ مجموع أوراقها /3500/ صفحة، التي وضع فيها: تاريخه ومجده..

.. إنه عمل رائع..

منهجه العلمي:

إن محاولة وضع محددات أساسية لمنهج الوردي، يرتبط بالضرورة بتطوّره الفكري، عبر المراحل الأربع التي أشرنا إليها وهي:

- الشرارة.
- الاحتجاج.
- التأسيس.
- التكوين والمعطيات.

ولعل حماسـة الوردي وتلقائيته الشـديدة، واسترسالاته التي طبع عليها في أحاديثـه ومؤلفاتـه، تنصـرف بكليتها إلى المرحلتين الأولـى والثانية، فيما كادت تختفـي فـي منطـق ابن خلدون.. وتظهر ظلالهـا في (طبيعة المجتمع العراقي).. أما في اللمحات فتبدو باهتة أحياناً وتختفي أخرى، حيث تحكمه صرامة قاسية في التعامل مع الأحداث، بأسلوب مفتوح لا يخفي وراءه شيئاً..

وثمـة بديهيـة يقررهـا الـوردي منذ البدايـة وهي أن الباحـث حسـب تعبيره «كالقاضـي يفتـرض فيـه أن يكون محايداً بين الجانبين (المؤيدين والمعارضين)، أما الداعية فمهمته أن يحرّك التاريخ.. أما الباحثون فيدرسونه»..

فالمنهج الذي أسير عليه في هذا الجزء الخامس من اللمحات هو ذاته الذي سرت عليه في الأجزاء السابقة، وسوف أواصله في الأجزاء اللاحقة..

والذي يتلخص بمحددين أساسيين هما:

- ذكر الأحداث كما وقعت من غير تحيّز لها أو عليها.
- الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة المجتمع الذي وقعت فيه تلك الأحداث.

هـل يعنـي هـذا التأكيد أنه لن يكـون إلا (ناقلاً) طبقاً لما تتضمنه الأحداث من وقائع وتفاصيل، أي أن دوره لن يكون أكثر من عدسة لاقطة تنحصر مهاماته في نقل صورة الحدث وتسجيل زمانه ومكانه أو توثيقها.. ثم تبويبه وسرده على

نحو متسلسل يحافظ على وحدة الوقائع!! ويضمن انسيابية المشاهد!!

الـوردي بحكـم تكوينـه الاجتماعـي، وفي الطبع (المجلسـي - الحكمي)، يمتلك براعة متناهية الدقة في التقاط صورة الأحداث، وبراعة تفوقها في العرض والتبسيط.. بلغة سلسلة معروفة ولكنه لم يشأ أن يكون (التسجيل) أو (التوثيق) حرفيتـه، بـل اختـار منذ البداية أن يتمسـك بـ(العلّية)، طبقـاً لمنطق التحليل وما يحتّمه من رد النتائج إلى أسبابها، مزوّداً بطاقة هائلة من (الشواهد) و(المرئيات) و(الوثائـق الاجتماعيـة)، ليحكـم الظواهر بمنطق علمي نقـدي، عقلاني، يرفض التفسيرات العائمة، ويقضي بتهافت (التبرير) أياً كان مصدره.. صادقاً مع نفسه، متفانياً مع الحقائق التي يؤمن بها.. وربما وحده، ولا أحد سواه، كان شجاعاً، وهو يعلم سلفاً بأن أحداً لن يقف إلى جواره أو يأخذ بيده..

هذه البسـالة الفريدة، لها ما يفسـرها فهي لا تعني امتلاكه ناصية العلم، أو انفـراده بالمعرفـة، بـل هـو يرى بالنص (بأن كتبي لا يمكـن أن تخلو من أخطاء علمية، شأنها شأن أي عمل من أعمال البشر)..

هكذا تجتمع في منهجه جملة من الخصائص العلمية:

- نسبية المعرفة: الحقائق ليست نهائية بل هي جزئية.
  النتائج أولية..
- النقدية: نقد الذات.
  قبول الرأي الآخر..

وفـي إطـار المنهـج يقـول الوردي: لا أكتم القارئ إننـي ترددت طويلاً في إصـدار هـذا الجـزء (ثـورة العشـرين) لأنـي أعلم أن هـذا المنهج يثيـر امتعاض الكثيريـن مـن القـرّاء الذين اعتادوا على (منهـج) التمجيد والحماس، فليس من الهين عليهم أن يروا منهجاً آخر يتبع في دراسة ثورة العشرين..

وهنا يبرز تساؤل تحتمه ضرورة البحث وهو:

«إذا كان الكثيرون من القراء (أغلبهم) يمتعضون من هذا المنهج!».. فإلى أية شريحة كان الوردي يوجه لمحاته السبع؟!..

هل للنخبة؟!..

أم لجمع من المثقفين؟!..

أم للمختصين؟!..

أم للتاريخ..

إنه الوردي يوجه لمحاته – أو قل رسالته إلى المستقبل..

مقدمة في فكره ومنهجه(1)

الدكتور علي الوردي
ومجلة «العيادة الشعبية»

أ. د. إبراهيم خليل العلاف
أستاذ متمرس - جامعة الموصل

1

قبل أن نتحدث عن إسهام الأستاذ الدكتور علي الوردي عالم الاجتماع العراقي الكبير في الكتابة لمجلة «العيادة الشعبية» البغدادية، دعونا نقول كلمة عن هذه المجلة الرائدة التي أصدرها طبيبان شقيقان هما: الدكتور اسماعيل ناجي، والدكتور خالد ناجي واللذان كرسا حياتهما لخدمة الفقراء ومعالجتهم صحياً من خلال عيادة أسمياها (العيادة الشعبية) في بغداد سنة 1948 واستمرت بالعمل حتى سنة 1958. وكانت مخصصة لمعالجة الفقراء من الناس، وباشتراك شهري للعائلة الواحدة لا يتجاوز آنذاك الـ(150) فلساً.. وكان مقرها في رأس القرية بشارع الرشيد.

كما أصدرا مجلة باسم: (العيادة الشعبية) سنة 1947، وذكرت السيدة زاهدة إبراهيم في كتابها: (كشاف الجرائد والمجلات العراقية) الذي صدر عن وزارة الإعلام العراقية سنة 1976، أن هذه المجلة كانت كما جاء في ترويستها: «مجلة طبية صحية صاحبها إسماعيل ناجي (طبيب) ومديرها المسؤول هاشم العاني (محام)، وقد صدرت ببغداد سنة 1948 واستمرت في الصدور حتى 17 كانون الأول / ديسمبر سنة 1954».

جاء في ترويسة مجلة «العيادة الشعبية» أنها: «مجلة طبية ثقافية أدبية تصدر شهرياً مؤقتاً بغداد – رأس القرية شارع الرشيد 296ج–1 تلفون 6474 وهي مسجلة بدائرة البريد برقم 379.. والاشتراكات في العراق 250 فلساً وخارج العراق 350

فلساً. صفحاتها في كل عدد لم تكن تتجاوز الـ35 وهي بالحجم الصغير ومطبوعة على ورق جرائد وفيها رسوم ورسوم كاريكاتيرية لـ«حميد المحل» وفيها إعلانات مدفوعة الثمن، صاحبها ورئيس تحريرها الدكتور اسماعيل ناجي، ويعاونه شقيقه الدكتور خالد ناجي ومديرها المسؤول المحامي هاشم العاني وتبغي «نشر الثقافة الشعبية الصحية بين الناس وتعمل من أجل التخلص من الفقر والمرض والجهل».

ذكر الأستاذ جعفر الخليلي في كتابه: (هكذا عرفتهم) أن الناس أقبلوا على «العيادة الشعبية» حتى ضاقت بهم، وكانت بنايتها مؤلفة من خمس غرف وصالون (وبالكونة)، حيث خصص الأخيران للانتظار، فيما شغل الدكتور إسماعيل ناجي جانباً من تلك العيادة لفحص ومعالجة الأمراض الباطنية، وشغل أخوه الدكتور خالد ناجي الاختصاصي المعروف جانباً منها للجراحة. وكان يداوم في إحدى غرف العيادة السيد عبد الأحد، وهو من الأكفاء في عمليات التحليل الكيماوي الطبي.. وكان في العيادة من يقوم على مساعدة الدكتور إسماعيل، وشقيقه الدكتور خالد من مضمدين ومعينين. وقد تحدث الدكتور إسماعيل ناجي يوماً في إذاعة بغداد عن عيادته فقال إن فكرة العيادة: «راودتني بوحي من هذه العلل الاجتماعية، وإنها لكثيرة في مجتمعنا تطاردنا مصبحين ممسين في كل جانب من جوانبنا، ولقد فكرت ملياً في هذا الجانب، جانب الحاجة إلى تعميم المعالجة وتيسيرها للفقراء وكان من السهل أن أجد من يعاونني لإخراجها، ولقد كان يحز في نفسي ويؤلمني أن أرى الأمراض تفتك بالطبقة الوسيطة والفقيرة عندنا، في حين قطعت الشعوب أشواطاً بعيدة في تحقيق مشاريع الضمان الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية، وتوفير الوقاية والعلاج الطبي للطبقة الفقيرة»، وكان رب الأسرة يدفع 150 فلساً في الشهر لتتم معالجة سائر أفراد أسرته مجاناً.

كان الدكتور خالد ناجي، من أوائل الذين وقفوا إلى جانب شقيقه، سواء بالعيادة الشعبية أو المجلة. ويعد مشروع المجلة من أوائل مشاريع الصحافة الصحية في الوطن العربي إن لم يكن أول مشروع صحي عربي مجاني، والمشروع لم يقف عند ناحية واحدة من نواحي العلاج وإن رسالته أوسع من ذلك، فهو كما يعنى بالعلاج الباطني، فانه يولي جل اهتمامه بضروب أخرى

من العلاج، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، العمليات الجراحية، والأمراض النسائية، وأمراض العيون والأنف والإذن والحنجرة، كما أن للمشروع فرعاً للتحاليل المرضية كافة. أما عملية الختان والتلقيح ضد الأوبئة كالجدري والحصبة والتيفوئيد والهيضة وما شاكل فكل ذلك يقوم به المشروع مجاناً..

وقد اتسعت شهرة المجلة، فقررت وزارة التربية اقتناءها والسماح بدخولها إلى المدارس، كما أقدم عدد من الكتاب والباحثين والمفكرين على الكتابة فيها ولعل من أبرز هؤلاء الدكتور هاشم جواد الدبلوماسي العراقي المعروف، والدكتور صائب شوكت عميد الكلية الطبية، والدكتور كمال السامرائي الطبيب النسائي العراقي المعروف، فضلاً عن الأديب المشهور عبد المجيد لطفي، والشيخ محمد رضا الشبيبي رئيس المجمع العلمي ووزير المعارف (التربية) الأسبق، والدكتور صبري القباني الطبيب السوري وصاحب مجلة (طبيبك) فيما بعد، والأستاذ جعفر الخليلي الكاتب والباحث والصحفي المعروف والذي يقول إن حركة المجلة توسعت حتى أنها سبقت جميع صحف العراق ومجلاته آنذاك في كمية المطبوع الشهري والانتشار.

وممن كتب فيها أيضاً الدكتور هاشم الوتري والأستاذ علي حيدر الركابي والدكتور شوكت الدهان والأستاذ فؤاد مراد الشيخ والأستاذ خالد الدرة المحامي والدكتور صادق علاوي والأستاذ يوسف يعقوب مسكوني والدكتور داؤد سلمان علي والدكتور صفاء خلوصي والدكتور غازي حلمي والأستاذ هاشم جواد والأستاذ ديزموند ستيوارت (كان أستاذاً في كلية الآداب والعلوم – بغداد) وعنوان إحدى مقالاته: «حاجتنا الماسة إلى الطب الاجتماعي».. وممن كتب فيها أيضاً الدكتور جابر جاد عبد الرحمن أستاذ الاقتصاد السياسي المصري وعميد كلية التجارة والاقتصاد – بغداد والأستاذ هوك كونيل والأستاذة افتخار الوسواسي والدكتور علي الوردي والدكتور مصطفى شريف والدكتور علي الحمامي والأستاذة أميرة نور الدين والشيخ محمد رضا الشبيبي والدكتور عبد الجبار العماري والدكتور يوسف حسني والأستاذ عبد المجيد لطفي والأستاذ حميد جواد والأستاذ فؤاد جميل والدكتور يوسف حسني ياشار والأستاذ توفيق

السويدي والأستاذ مهدي الملاك والدكتور مكي الواعظ والأستاذ صادق البصام والأستاذ تحسين عبد الجبار المحامي والصيدلي عزيز الخياط والدكتور وجيه زين العابدين والأستاذ خليل كنة والأستاذ جلال شاكر والدكتور عبد الإله حافظ والدكتور عبد الحميد عبد المجيد والأستاذ عبد الاحد سليم والأستاذ عبد الرزاق الظاهر والدكتور محمود الأمين والأستاذ محمد منير آل ياسين والأستاذ محمد صديق شنشل والدكتور شفيق البابا والأستاذ نجيب محيي الدين والدكتور عبد السلام فهمي والأستاذ شريف يوسف والأستاذ مهدي الملاك والأستاذ يوسف يعقوب مسكوني والأب يوسف سعيد والأستاذ والدكتور سليمان حزين والدكتور أ. ج. كرونين والأستاذ رفعت سعيد يولجو والدكتور فخري صالح الدباغ والأستاذ راشد لامي والأستاذ صالح مهدي الشريدة والأستاذ عبد الجبار فهمي والأستاذ ثابت فرحان العاني والأستاذ سليم طه التكريتي، وغيرهم.

(2)

رحم الله الأستاذ الدكتور علي الوردي عالم الاجتماع العراقي الكبير الذي كتب بعض المقالات في مجلة «العيادة الشعبية»؛ ففي العدد الرابع من المجلة والذي صدر في مايس 1952 كتب الدكتور علي الوردي مقالا بعنوان: «هل الزواج نعمة أم نقمة؟» قال فيه: «إن الزواج نعمة ونقمة في آن واحد فهو كمصيدة الفئران الداخل فيها يود أن يخرج منها والخارج يود أن يدخل فيها. والواقع أن الزواج كبقية شؤون الحياة له على الأقل وجهان: لامع ومظلم. فالانسان قد ينجذب إلى وجهه اللامع ولكنه لا يكاد يدخل فيه حتى يذوق من وجهه الآخر ما يذوق ثم يأخذ بالندم ولات ساعة مندم.. لأن باب المصيدة قد أغلقت عليه وانتهى الأمر». ومما قاله، أيضاً، ساخراً: «إن الناس في أيام المجاعات يتغزلون برغيف الخبز كما يتغزل شبابنا في هذه الأيام بخد الحسناء. وختم الوردي مقاله بالقول: «إن الزواج نعمة ونقمة ولكن جانب النعمة فيه أعم لأنه يخلصنا من أناشيد المغرمين وهيام المجانين على الأقل. سهلوا أيها الناس الزواج فقد مللنا هاتيك الأنات والحسرات التي لا معنى لها. أنقذونا. ويحكم من آهات محمد عبد الوهاب وعويل فريد الاطرش، فقد نفد صبرنا وتجرعنا ما فيه الكفاية

أنقذونا! يرحكم الله»، و«إن من سوء حظ البشرية – أو حسن حظها، لا أدري أن قيساً أو روميو أو غيرهما من شعراء الغرام لم ينالوا ما أرادوا وتزوجوا بحبيباتهم لما وجدنا اليوم هذه الترهات التي يسمونها أناشيد الغرام والعياذ بالله. ولو أن قيساً تزوج بليلى لربما رأينا هذا الذكاء الخارق ينتج لنا عبقرياً كابن سينا أو ابن خلدون بدلاً من أن ينتج لنا مجنوناً يطوف البراري والقفار ويحرق نفسه من حيث لا يشعر ثم يموت غير مأسوف عليه».

وفي عدد حزيران 1952 من مجلة «العيادة الشعبية» نفسها، وكانت تطبع آنذاك (14) ألف نسخة تنفذ خلال أيام، كتب الدكتور علي الوردي مقالاً بعنوان: «المتفرنجون».. ومما قاله فيه: «إن في هذا البلد طائفة من البشر قد ابتلوا بمرض اجتماعي خطير أولئك هم المتفرنجون. فلا يكاد أحدهم يتصل بالحضارة الغربية من قريب أو بعيد حتى تراه قد نفخ أوداجه، وصعر خده، وأخذ يتفلسف ويتحذلق بالمصطلحات الجديدة. فهو لا يكاد يحفظ شيئاً من مبادئ العلوم الحديثة حتى أصبح إفلاطوناً يتعالى على الناس ويزدري الفقير ويشمخ بأنفه على السوقة فإذا رأى شحاذاً يستجدي الناس انتهره قائلا: لماذا لا تعمل؟ وإذا وجد عاملاً كادحاً يكسب قوته بعرق جبينه تقززت نفسه وتأفف وأخذ يسب الناس على بلادتهم وقذارتهم. إن هؤلاء المتفرنجين بلاء على الأمة. وربما كان ضررهم أعم حين يتولون شيئا من أمور الدولة ويصبحون موظفين».

وأضاف: «إن البلاء آت من نظرة هؤلاء إلى الحياة فهم يعتقدون مثلاً بإن الفقير أصبح فقيراً من جراء كسله وتواكله ولو كان جاداً حازماً عاقلاً لوصل في زعمهم إلى أعلى درجات الغنى وهم إذا رأوا شخصاً قذراً بصقوا عليه واحتقروه وظنوا أنه يستطيع أن يكون نظيفاً لو شاء».

ثم يصل الدكتور الوردي إلى نتيجة فيقول إن علماء الاجتماع وجدوا ان سلوك الفرد ما هو في الحقيقة إلا نتيجة من نتائج البيئة الاجتماعية التي ينشأ فيه.

ويقول إن هؤلاء المتفرنجين يشكلون خطراً على المجتمع العراقي لأنهم لا يتنازلون لدراسة مشاكله الواقعية ولا يسمحون لأنفسهم بالنظر فيها.

إن مشاكل المجتمع من فقر أو قذارة أو خرافة لا تعالج بالاحتقار

والاستنكاف.. إنها تحتاج إلى دراسة موضوعية، ونظر مشفق متواضع. فالقذر لا يصبح نظيفاً إلا بإصلاح ظروفه إصلاحاً جذرياً وتبديل عقليته تبديلاً عميقاً. أما الاشمئزاز منه فهو ظلم وتفرنج وغرور يؤدي إلى توسيع الشقة بين المثقف والإنسان البسيط وهذا داء عضال «.

وفي العدد السادس من المجلة الصادر في تموز 1952 كتب الأستاذ الدكتور علي الوردي مقالاً بعنوان: «عباقرة العراق» قال فيه: «إن النبوغ في العراق قليل – وهذه ظاهرة اجتماعية تلفت النظر. فإذا سألت أحداً لماذا قلّ النابغون في العراق؟ أجابك على الفور: لقلة التقدير والتشجيع!.. وقد أصبح كل مثقف في العراق يشكو من قلة التقدير، ذلك أن كل مثقف هنا يرى نفسه نابغة ويعتقد أنه لا يقدر على نبوغه التقدير اللائق ولهذا تراه يأخذ بالتذمر وصب اللعنات على هذا المجتمع العاق الذي لا يشجع أمثاله من أولي العبقرية والذكاء النادر ولقد صارت هذه العادة راسخة في أنفسنا بحيث لا يكاد أحدنا يمسك بيده القلم فيكتب مقالاً أو ينظم قصيدة حتى ينثال على من حوله من الناس يلومهم على غباوتهم وعلى قلة فهمهم لما يكتب أو ينظم من جلائل الحكم.. وحملة الشهادات العليا عندنا مصابون بما يماثل هذا الداء».

ويختم مقاله بالقول: «إن مشكلة مثقفينا في العراق هي أن المنافسة بينهم ضعيفة والتقدير لهم زائد والسبب في ذلك، كما ألمحنا آنفا، آت من حداثة عهدنا بالثقافة الحديثة. فالثقافة الحديثة عندنا لا ينالها إلا القلائل ممن أنعم الله عليهم بقسط من الثروة أو شيء من الظروف ولهذا نجد المثقف بيننا مدللاً عزيزاً مرموقاً».

وهاجم الدكتور الوردي سياسة انتقاء الطلبة ودعا إلى الاهتمام بالكم لأن (الكم) أقوى من (الكيف) في إنتاج العبقريات. إن انتقاء القليل من الطلبة واحتكار العناية لهم وحدهم يؤدي أحيانا إلى ما يسمى (أرستقراطية التفكير) حيث يخلق بيننا طبقة مغرورة من المثقفين لا همّ لهم إلا التبجح والتفرنج والتأفف من قلة التقدير».

رحم الله الدكتور الوردي فقد خدم مجتمعه خدمة كبيرة من خلال تشريحه وبيان معايبه ووضع الحلول لمعالجة مشكلاته.